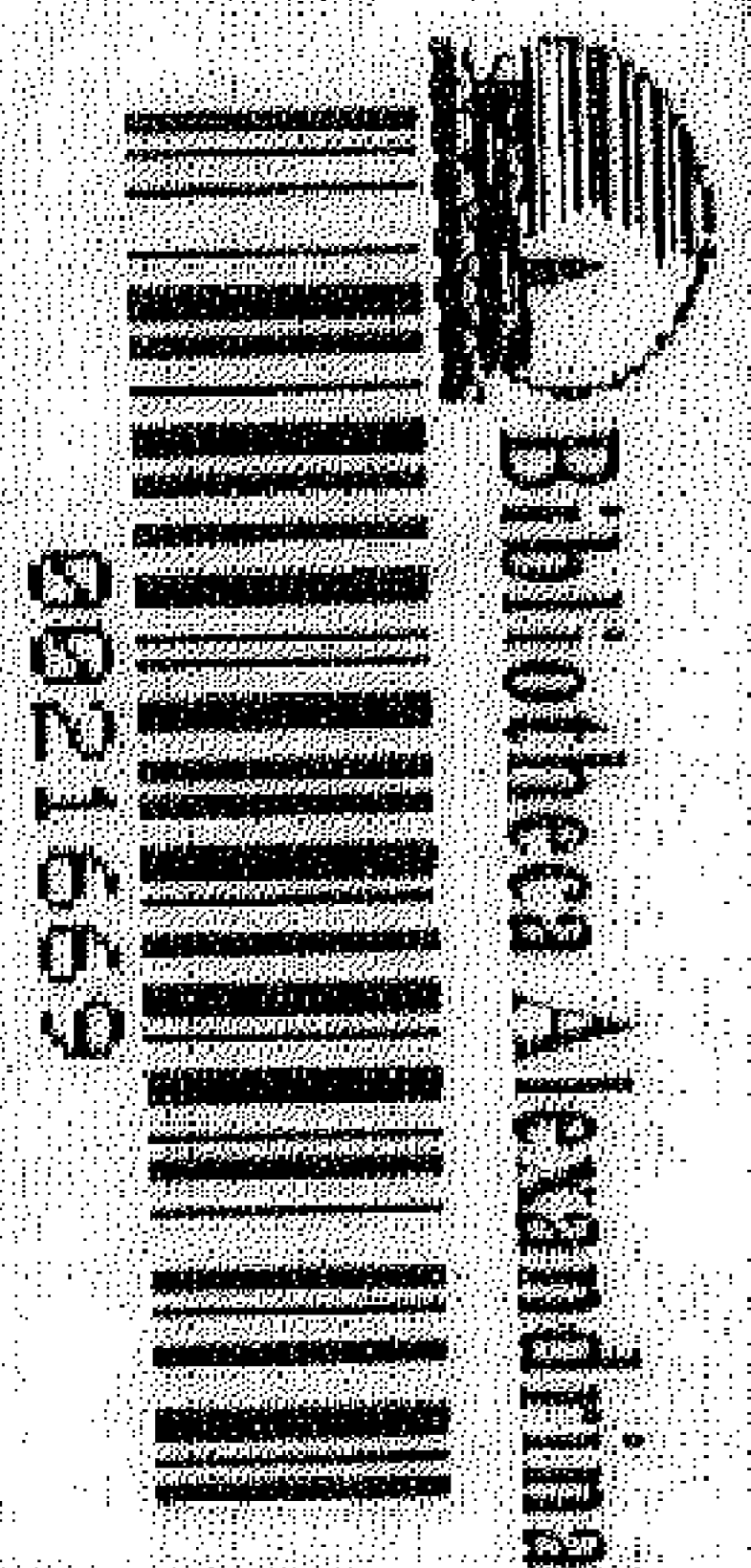
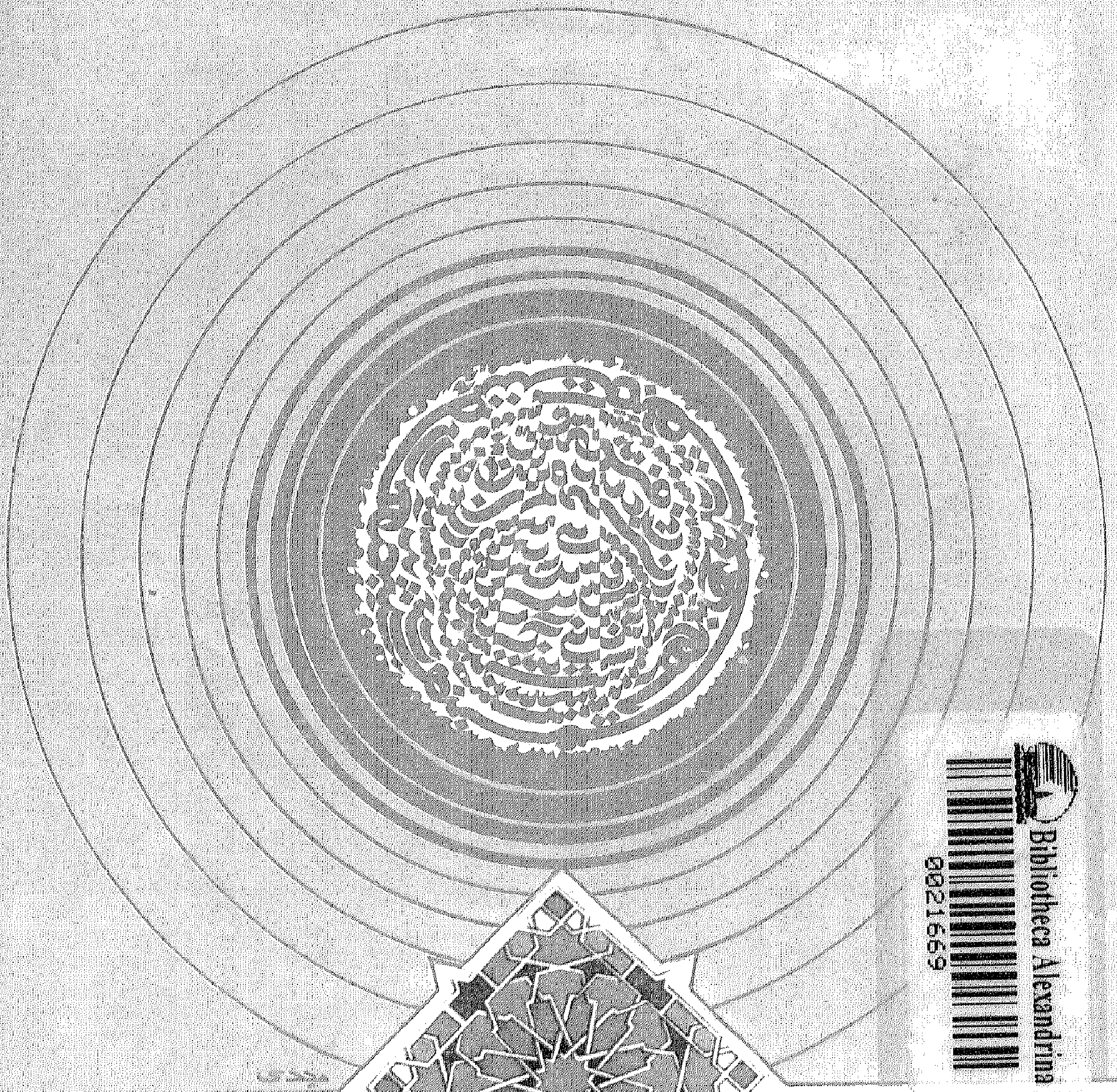


الأحزاب

في صدر الإسلام



دار الفكر العربي

الدكتور عبد اللطيف حمزة

الأعمال

في صدر الإسلام

الدكتور عبد اللطيف حمزة
أستاذ ورئيس قسم الصحافة
بكلية الآداب بجامعة القاهرة (مقا)

مترجم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
الشارع هوادي - القاهرة
ص ٠ ب ١٣٠ - ت : ٣٩٢٥٥٢٣

تیم

« إن الذى يبحث فى تاريخ الإعلام فى الاسلام لابد أن تكون له أصالة.

حقيقية في الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي ، والمذاهب الإسلامية ، ولا بد أن تكون في نفسه أصالة حقيقية في عالم الاتصال الذي يشتمل على فنون كثيرة من أهمها : فن الإعلام بوسائله الكثيرة . وفن الدعاية بأشكالها المختلفة ، وأين من يدعى لنفسه الإحاطة الكاملة بهاتين الثقافتين في دقة وعمق معاً . وهذا موقف للمؤلف له دلالة .

تلك هي أن التصدي لعمل علمي لا بد أن يكون على مستوى هذا العمل معرفة واستيعاباً ، ومن قبل ذلك ومن بعده استعداداً ذاتياً ، وذلك حفز صادق في نطاق التحريك النفسي للباحث - أي باحث - حتى يستشعر التبعة الملقاة على عاتقه ، وهي لاشك جد مبهطة .

ومن ناحية أخرى ينحو به إلى تواضع العلماء حتى لا يجمع به الغرور إلى كبوات لا مأمّن منها مع تلك الظاهرة الخطيرة التي تلم بكثير من المثقفين . وقد استشعر السيد المؤلف عبء التبعة فأقدم في تواضع الدارسين الأضلاء على هذا الموضوع البكر إقدام العالم الباحث متوخياً أغراضاً ثلاثة كلها هادفة وشريفة . والأهداف الثلاثة هي :

الأول أن هذا الاتجاه الجديد في بحوث الاتصال والإعلام الإسلامي سيغري الباحثين بالدخول في هذا الميدان ، وولوج شعاب بحوثه على طول الطريق من أول أيام الإسلام حتى عصرنا الذي نعيشه .

الثاني : الدفاع عن كرامة المؤلفين المسلمين الذين لا يليق بهم أن يظلوا في مواقع التبعية للمؤلفين الأجانب ، فلا ينبغي الانتظار حتى يأتي أجنبي ويؤلف في النواحي التي لم يؤلف فيها بعد من الثقافة الإسلامية كناية الدعاية والإعلام في الإسلام ، وبهذا نتغلب على مؤامرة الصمت التي ترتكب ضد الثقافة الإسلامية .

الثالث : لفت شبابنا المعاصر إلى ثقافتنا الإسلامية ، إذ جمهورتهم منصرف إلى التراث الأجنبي مفتون به . ويعرف عنه أكثر مما يعرف عن التراث الإسلامي . بل أصبح شباب هذا الجيل يفاخر بعضهم ببعضاً بهذه الظاهرة التي

تمثل مركب نقص في الشباب يجب على الفاقهين من أبناء هذا الجيل تخلص الشباب من عقابيله .

وتلك محامد للسيد المؤلف تذكر بالعرفان ، وتقابل بما هي أهل له من الشكران ، وقد اختار السيد المؤلف أقوم منهج وأعدله في الدراسة .

ذلك هو تتبع أحداث التاريخ في مسامرة وتحليل معطيات تلك الأحداث ، واستخلاص النتائج من الشواثب التي قد تلتوى بالدارس عن الطريق الموصل .

وكانت الدقة طابع التعبير في رحلة الكتاب ، إذ حدد المفاهيم تحديداً نقياً يحصن القارئ ويبتعد به عن الخلط ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

التفرقة بين الدعوة والإعلام والدعاية ، وتحديد المقصود بكل واحدة من هذه الثلاثة مما يجده القارئ موضعاً في مواطنه من الكتاب ، وقد أبرز السيد المؤلف أن عمل النبي ﷺ كان دعوة من الله أمر بتبليغها إلى الناس كافة .

وإذا كانت كلمة « ثورة » قد وصف بها الإسلام في الكتاب فإنه من الطبيعي ألا يقصد منها المعنى المتبادر والشائع من أنها ظاهرة ذاتية لفرد من الأفراد انفعلاً انفعالا خاصا بواقع يعيشه في مجتمع ما أدى به إلى حمل تبعة التغيير ، وإنما المقصود بالكلمة هدفها وغايتها وهو التغيير وتعديل الأوضاع على النحو المستقيم .

ولم يترك المؤلف ثغرة ينفذ منها متربص بالإسلام عندما تناول « الجهاد » كوسيلة من وسائل الإعلام ، إذ حدد مفهوم الجهاد في الإسلام ، وبين أنه ليس مقصداً إلى التوسع والسيطرة ابتغاء النفع ، وإنما كان لرد العدوان وتأمين الدعوة ، ومعتنقها من مكان الدس والغدر والتربص والتحرش في الداخل والخارج .

وقد أوضح السيد المؤلف الفواصل بين الدعاية البيضاء والدعاية السوداء ، وبين أن الأولى تعتمد على الصدق والشرف ، والأخرى تبجح لنفسها بالكذب والتحريف والاختلاق ، وركز على أن القدوة الحسنة وسيلة من وسائل

الإعلام تغني بذاتها عن جهود كثيرة تبذل في سبيل الإعلام ، وقدم نماذج
حية للقدوة الصالحة من سيرة الرسول الكريم . وكثير من رواد الصحابة
عليهم رضوان الله تبارك وتعالى .

ونحن مع السيد المؤلف في الانتفاع بموسم الحج كمجال لأكبر تجمع
إسلامي في مستويات متنوعة تجتمع كلها من القمة إلى القاعدة في انسجام
متهيء للتأثير والحشد لما فيه خير الإسلام والمسلمين ، ولعل الأمل في الاستجابة
ينخفض من آلام السيد المؤلف التي أحس بها والتي أشاركه الإحساس بمعاناتها ،
والتي بقيت رواسيها في نفسه منذ أدائه فريضة الحج عام ١٩٦٨ .

ومن اللامحات البارعة في الكتاب استبطانه حادث الهجرة في جميع
جوانبه وزواياه ، وإبراز الحركة الإعلامية فيه ودراسته للأذان في الإسلام
واستخراج لون من الفنون الإعلامية فيه سواء من جهة دلالة أو
من جهة تركيبه اللفظي ، وتناوله صاحب « الحديبية » ، وكيف كانت لحركات
الهمس التي أسفرت عنها بعض شروطه أثر إعلامي في نشر الدعوة ، وكيف كان
الفاروق عمر رضي الله عنه يستعمل أحدث أساليب قياس الرأي العام وغير
ذلك كثير في ثنايا هذا الكتاب الرائد .

وربما تطرق إلى الفهم العجлан ما يريب في مواقف بعض الصحابة في
بعض الأحداث ، لذا ندعو القارئ إلى التأنى في القراءة ، وفي تناول
الأحداث السياسية التي ألمت بالمسلمين ، منذ عهد الخليفة الثالث رضوان
الله عليهم أجمعين ، ونحن لا نعتقد العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ ، ولكننا
ننبه على أمر قد يغيب عن بعض القراء .

ذلك أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه كما قال القاضي
أبو بكر بن العربي : كان عند الظن به ، ما خالف عهدا ، ولا نكث
عقدا ، ولا اقتحم مسكروها ولا خالف سنة (١) وقد كان النبي ﷺ قد
أنهى بآن عمر شهيد ، وبآن عثمان شهيد على بلوى تصيبه .

(١) العواصم من القواصم لابن عربي تحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب من ٢٠٠٢ — ٥٥٥ .

وقد أورد ابن العربي رحمه الله جميع ما وجه إلى الخليفة الثالث عثمان
ابن عفان رضي الله عنه من مآخذ وأتى على جميعها نقدا موضوعيا بالحجة
والبرهان .

وكانت أصابع الفتن والكيد للإسلام والوقية من أعدائه هي محرك
الأحداث في نشأتها ومسارها وتواليها .

وبعد : فإن السيد المؤلف رحمه الله جدير بالتقدير ، وحسبه أنه بحق
رائد هذا المجال الذي لم ينفذ إليه من قبله فكر .

وأقول متناسقاً مع المؤلف : إذا كان لي أن أقترح شيئاً على الجامعات
والمعاهد ومراكز البحوث في مصر وغيرها من بلاد العالم الإسلامي فإني
أقترح أن تتألف لجنة علمية للقيام بمشروع « التأريخ للدعاية والإعلام في
الإسلام » .

وأضيف إلى هذا تنقية التاريخ تنقية يمكن معها تنحية كل مزور ،
وابعاد كل ما ليس له من الصحة حظ حتى تكون لدينا ذخيرة إعلامية
متميزة الأبعاد تستقبل ما تفد به الأيام والأجيال من متنوع الأساليب .

والحمد لله الذي تم بنعمته الصالحات ، وجزى الله السيد المؤلف
أطيب الجزاء وأجزله . ونفع بما قدم للمكتبة الإسلامية من جهود موفقة ،
ورحمه رحمة واسعة .

لأنه سميع مجيب . . .

والحمد لله رب العالمين .

دكتور

عبد الحليم محمود

الافتتاح

إلى الجامعة الأزهرية العظيمة وقد
بدأت تنجز عنايتها إلى دراسة
الإعلام والدعاية ، وذلك فيما
عنيت به من الدراسات المعاصرة
.. أقدم هذا الكتاب ،

عبد اللطيف حمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تحدث التاريخ عن الإسلام من زوايا كثيرة :

منها الزاوية الدينية والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والإدارية ،
ومنها الزوايا العلمية ، والثقافية ، والفلسفية ، والمذهبية ، ومنها الزوايا الخلقية ،
والفنية ، والحربية .

كما كتب الكثير عن تاريخ الأدب الإسلامي نفسه ، وبذلك أصبحت
الثقافة الإسلامية من أوسع الثقافات التي عرفت البشرية منذ ظهور الإسلام
إلى اليوم .

ولكن بقيت من هذه الزوايا المتعددة زاوية واحدة هي زاوية الإعلام
أو الاتصال بالناس .

ولم يكن ذلك تقصيراً من القداماء بوجه من الوجوه إذ أن علم الاتصال
علم حديث كل الحداثة ، وإن كان الاتصال في ذاته قديماً كل القدم ،
فقد مارسه جميع البشر منذ وجدوا على ظهر الأرض ، ومنذ احتاج بعضهم
إلى الاتصال ببعض ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « ولولا دفع الله الناس
بعضهم ببعض لفسد الأرض » .

والآن وقد أصبح الاتصال علماً من العلوم الحديثة المعروفة لم يبق
هناك عذر للعلماء المحدثين إذا هم قصروا في البحث عن الأديان - ومنها
الإسلام - وذلك من الناحية الإعلامية ، أو من ناحية الدعاية ، وهاتان
الناحيتان هما جانب من جوانب الاتصال .

وهذا وحده في الواقع هو ما حفزنا إلى التفكير في وضع الكتاب بين يدي القارئ .

* * *

غير أنني أريد أن أقول لهذا القارئ كلمة صريحة تذبح من ضميري العلمي ، أو شعوري بمسئوليتي عن هذا البحث .
هذه الكلمة هي أنني أقدمت على هذا البحث بشيء غير قليل من التردد والخوف ، فما السبب في ذلك ؟ .

إن الذي يبحث في تاريخ الإعلام في الإسلام لا بد أن تكون له أصالة حقيقية في الثقافة الإسلامية ، والتاريخ الإسلامي ، والمذاهب الإسلامية ، ولا بد أن تكون في نفسه أصالة حقيقية في علم الاتصال الذي يشتمل على فنون كثيرة ، من أهمها : فن الإعلام بوسائله الكثيرة ، وفن الدعاية بأشكالها المختلفة ، وأين من يدعى لنفسه الإحاطة الكاملة بهاتين الثقافتين السابقتين في دقة وعمق معاً ؟
ثم عدت أسأل نفسي هذا السؤال :

هل أستطيع أن أفر من هذا الميدان - ميدان البحث في تاريخ الإعلام في الإسلام - وقد مضت لي تجربة طويلة إلى الآن في كل من الثقافة الإسلامية والثقافة الإعلامية ؟ .

وسرعان ما أجبت عن هذا السؤال الأخير بالنفي .

فإنني أذكر - وليس ذلك تزكية لنفسي ، ولكن بنعمة الله أحدث - أنني شاركت في الثقافة الإسلامية بأكثر من عشرين كتاباً ، كما وضعت في الثقافة الصحفية والإعلامية ما لا يقل عن أربعين بحثاً .

ومعنى ذلك أنه ليس من حقي بعد ذلك أن أتخلى عن هذا الميدان ، ميدان البحث في تاريخ الإعلام في الإسلام ، بل يجب على أن أدلى بدلوى وأضرب ضربتي الأولى في هذه الأرض البكر .

ولم أكن لعل يقين تام بأن هذا الاتجاه الجديد في بحوث الاتصال في

الإسلام سيغرى الكثيرين من الباحثين بالدخول فى هذا الميدان ، وبذلك يعرض لنا الباحثون صوراً جديدة من التاريخ الإسلامى ، وزوايا جديدة من هذا التاريخ كانت مجهولة كل الجهل من جمهور المثقفين قبل اليوم .

وكم من كنوز سيقع عليها الباحثون فى هذه المنطقة من مناطق البحث . عندما يتحدثون عن الدعاية الأموية ، والدعاية العباسية ، والدعاية المذهبية ، والدعاية الفاطمية ؛ وكم من كنوز سيقعون عليها عندما يتحدثون بنوع خاص عن دعاية الشيعة ، ودعاية القرامطة والدعاية فى عهد الحروب الصليبية ، وذلك حتى يصلوا فى بحوثهم إلى الدعاية فى حرب السويس سنة ١٩٥٦ .

* * *

شئ آخر دعانى إلى ترك الخوف والتردد فى اقتحام هذا الميدان — ميدان البحث فى تاريخ الإعلام فى الإسلام — هو الدفاع عن كرامة المؤلفين العرب الذين لا يليق بهم أن يظلوا تابعين للمؤلفين من غير العرب ، أو يظلوا مكتوفى الأيدى حتى يأتى علماء أوربا فيؤلفوا لهم فى النواحي التى لم يؤلف فيها بعد من نواحي الثقافة الإسلامية كناحية الدعاية الإعلامية فى الإسلام .

وبهذا وحده نتغلب على مؤامرة الصمت التى ترتكب ضد الثقافة الإسلامية من جانب علماء أوربا وأمريكا ، وذلك فى النصف الثانى من القرن العشرين على وجه التحديد كما صرح بذلك المؤرخ الفرنسى جارودى (١) .

* * *

وثالث الدوافع التى حفزتنى على تقديم هذا الكتاب إلى القراء ، هو ما نعلمه عن أكثر شباب الجيل الحاضر أنهم أصبحوا يعرفون عن التراث

(١) جريدة الأهرام : العدد الصادر بتاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٦٩ فى محاضرة ألقاها فى موضوع « الحضارة العربية وأثرها فى الثقافة العالمية » .

الأوروبي أكثر مما يعرفون عن التراث الإسلامى ، بل أصبح شباب هذا الجيل يفاخر بعضهم بعضاً بهذه الصفة .

وكان الأولى بهم أن يتشبهوا بأبائهم وأجدادهم منذ العصر العباسى ، وهم الذين جمعوا إلى الثقافة العربية كلا من الثقافتين اليونانية والفارسية ، وصهروا هذه الثقافات الثلاث فى بوتقة واحدة خرج منها ما يسمى « بالثقافة الإسلامية » التى تتألف من العنصر العربى ، والعنصر الفارسى ، والعنصر اليونانى ، أما اكتفاء الجيل الحاضر « بالثقافة الأوروبية » وتفاخرهم بتجاهل الثقافة الإسلامية ، فقد كان جائزاً فى عهود الاستعمار ، أما فى العهد الذى بدأت فيه الشخصية العربية تتميز بين الشخصيات ، فلا ، ثم لا .

* * *

ولقد كان الإسلام فى ذاته ثورة ، كما كانت المسيحية فى ذاتها ثورة ، وكانت اليهودية ثورة ، وكان لابد أن تعتمد هذه الثورات على كثير من وسائل الإعلام أو الاتصال حتى تنجح وتحقق الغرض الذى جاءت من أجله ، ومن ثم أصبحت دراسة الاتصال بأنواعه التى من أهمها الدعاية والإعلام واجبة على جميع معاهد الإعلام فى العصر الذى نعيش فيه ، وهى أشد وجوباً - فيما نرى - للجامعات التى تعنى بالدراسات الدينية أو المعاهد التى تشغل بإعداد المبشرين الدينيين وتخرىج الدعاة .

أثر عن بعض البابوات المحدثين أنه قال :

لو بعث المسيح من جديد لاختار لنفسه أن يكون صحفياً ، وهذا قول ينطبق على الأنبياء جميعهم على السواء .

فإن النبى إذا بعثه الله فى أمة من الأمم وجب عليه أن يختار من وسائل الإعلام والإرشاد والاتصال بالناس أنجح هذه الوسائل فى العصر الذى ظهر فيه .

وقد كانت الوسيلة الإعلامية سحراً فى عهد موسى ، وكانت طبياً فى عهد عيسى ، وكانت قرآناً فى عهد خاتم النبیین محمد ﷺ .

أليس معنى ذلك أن الإسلام دين إعلامي لأنه اعتمد على القرآن . . ،
والقرآن آية الله تعالى في البلاغة ، وفي التأثير في نفوس البشر إلى الدرجة
التي سجد لها العرب ، وإذا كان القرآن هو أكبر وسائل الإعلام في
الإسلام فلماذا لا نسميه ديناً إعلامياً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ؟

ثم إن وسائل الإعلام في ذاتها نوعان : نوع قديم وآخر حديث ،
والنوع الأول منهما فطري من صنع البشر ، كالخطابة والشعر والندوة
والسوق ، والنوع الثاني منهما صناعي من اختراع العلم كالصحف والراديو
والتلفزيون ووكالات الأنباء والسينما ونحو ذلك . . وكل وسيلة من هذه
الوسائل الحديثة من وحى العلم ووليدة الاختراع ولا ندرى ماذا سيستحدث
منها فيما بعد ، وبها تيسر الاتصال بين الناس ، وقد كثر عددهم في كل بقعة منها ،
ولم يعد في وسعهم أن يتصل بعضهم ببعض عن طريق الخطابة فقط أو
القصيدة فقط ، أو السوق فقط أو الندوة فقط وهكذا ، لأن أحداً من
الناس لا يستطيع أن يجمع الملايين في مكان واحد ليخاطبهم في موضوع
معين ، كما كان الحكام أو القادة يقدرون على شيء من ذلك في الأزمنة
القديمة ، وإنما أصبحت الوسيلة الوحيدة في العصور الحديثة لهذا الاتصال
هي الصحف أو الإذاعة أو وكالة الأنباء وما شاكل ذلك ، ولهذا أصبحت
عملية الاتصال في ذاتها في العصر الذي نعيش فيه عملية مصطنعة تفقد كثيراً
من قيمتها وإن لم يكن في استطاعة أي مجتمع من المجتمعات أن يستغنى عنها .
بينما الوسائل القديمة كانت لها قدرة أكيدة وعجيبة على التأثير في
الأفراد والجمهير بالقدر الذي لا يمكن أن تحلم به وسيلة من وسائل الاتصال
الحديث كالصحافة والإذاعة ونحوها .

هذا الكتاب

وهذا الكتاب الذى بين أيدي القراء مؤلف من ثلاثة أبواب :

الأول : يتحدث عن وسائل الإعلام التى عرفها العرب فى الجاهلية والإسلام ، فأما الجاهلية فقد عرف عنها وسيلة التجارة الخارجية ، والتجار العرب كغيرهم من تجار الأمم الأخرى كانوا يشتغلون بنقل الأخبار من مكان إلى مكان ، وكانوا يشتغلون بنقل الثقافة أيضاً . . كما كان من الوسائل الإعلامية فى الجاهلية وسيلة للبعثات الدينية كاليهودية والنصرانية ، وقد كان لها أثر كبير فى الإعلام العربى والثقافة العربية فى الجاهلية ، هذا كله فى خارج جزيرة العرب ، وأما فى داخل شبه الجزيرة فقد مارس العرب شتى الوسائل المعروفة فى البيئات القديمة ، ومن أهمها القصيدة الشعرية ، والخطبة والخطباء ، والنداء والمنادون والأعياد ، والأسواق والندوات وغير ذلك .

وجاء الإسلام فاستحدث صوراً جديدة فى مجال الإعلام والاتصال بالناس ، ومن أوضح هذه الصور القرآن الكريم الذى هو أكبر وسائل الإعلام فى الإسلام ، ثم الحديث الشريف ، وقد اعتمدت عليه جميع العصور الإسلامية من الناحية الدعائية ، وكانت القدوة الحسنة من جانب الرسول وكبار الصحابة من أكبر العوامل فى نشر الدين الجديد ، وقد اعتمد الرسول ﷺ إلى جانب ذلك على وسيلة معروفة فى علم الاتصال أو الإعلام ، وهى وسيلة الاتصال بنوعيه الشخصى والجمعى ، والنوع الأخير يتمثل بوجه خاص فى مجال الإعلام والدعاية ، ومع هذه الدرائع الإعلامية كلها كانت ذريعة القصص غير القرآنى ، وقد بدأت فى الظهور أيام الخلفاء الراشدين ، ثم اعتمدت عليها الخلافة الإسلامية بعد ذلك منذ الخليفة الأموى الأول معاوية ابن أبى سفيان . ويضاف إلى هذه الميادين الإسلامية كلها ميدان الحج ،

وقد كانت مواسم الحج ميداناً كبيراً للإعلام والدعاية، وقد أفاد الرسول ﷺ من هذه المواسم في نشر العقيدة الإسلامية .

وباختصار جاء الباب الأول من أبواب هذا الكتاب عرضاً شاملاً للوسائل الإعلامية التي عرفها العرب في الجاهلية، والوسائل الإعلامية التي احتاج إليها الإسلام .

ثم في الباب الثاني من أبواب الكتاب وعنوانه (الدعوة في عهد الرسول) أتينا بكلمة تمهيدية للفرقة بين الدعوة والإعلام والدعاية .

أما الدعوة فاسم عرفت به جميع الجهود التي بذلها الرسول في سبيل الرسالة التي بعثه الله من أجلها ، وقد شملت هذه الجهود جميع الوسائل الإعلامية التي ظهرت في الإسلام .

وأما الإعلام فاسم لجميع الجهود التي بذلها الخلفاء الراشدون وكانوا فيها صورة دقيقة من الرسول نفسه وذلك في العقيدة ذاتها .

وأما الدعاية فهي الجهود التي بذلها الحكام المسلمون وأقاموا عليها حكوماتهم وذلك منذ حكم معاوية بن أبي سفيان إلى وقتنا هذا . وبعد هذا التمهيد شرح الكتاب مراحل الدعوة الإسلامية وهي المرحلة السرية ، والمرحلة العلنية ومرحلة الاضطهاد الديني ، ومرحلة الهجرة ، ومرحلة الاستقرار بالمدينة . ووقف البحث عند كل مرحلة من هذه المراحل ، واستعرض الطرق الإعلامية التي سلكها الرسول في كل مرحلة منها :

وبنوع خاص في المرحلة الأخيرة ، وهي مرحلة الاستقرار بالمدينة ، وفيها اتسعت مجالات الإعلام وعظم نشاط النبي ﷺ في هذه المجالات وتعددت صورته وأشكاله ، وجنى المسلمون ثمرة هذا النشاط في كل صورته ، وفي نهايتها نزل قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »

وفي الباب الثالث والأخير من أبواب هذا الكتاب حديث عن الإعلام في عهد الخلفاء الراشدين وذلك في فصول أربعة : فصل في الإعلام على (م ٢ الإعلام في صدر الإسلام)

عهد أبي بكر ، وفصل في الإعلام على عهد عمر ، وفصل في الدعاية والإعلام على عهد عثمان ، وفصل في الإعلام على عهد علي . وانتهى البحث عند هذا الحد .

اقترح :

(وبعد) فإذا كان لي أن أقترح شيئاً على الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث في مصر وفي غيرها من بلاد العالم الإسلامي ، فإنني أقترح أن تتألف لجنة علمية للقيام بهذا المشروع الضخم ، وأعني به مشروع :

التأريخ للدعاية والإعلام في الإسلام

ولهذه اللجنة أن تقوم ببحث هذا التاريخ عصراً عصراً ، أو فكرة فكرة ، أو مذهباً مذهباً ، ففي النهاية ستحصل المكتبة العربية على مجموعات غنية من الكتب الإعلامية الإسلامية ، تصبح كل واحدة منها بمثابة رافد من الروافد التي تصب في نهر الإعلام ،

نعم - ألع في العناية بهذا المشروع الجليل لأمرين :

أولاً : أنني لا أستطيع بمفردي أن أقوم بجمع الحلقات التي تتألف منها هذه السلسلة .

ثانياً : أنني لم أقل غير الكلمة الأولى فقط من هذه الحلقة الأولى بمعنى أن موضوع (الدعاية والإعلام في صدر الإسلام) ما زال مفتوحاً أمام الباحثين لأنني لم أقل فيه الكلمة النهائية .



وبعد : فإنني أقدم الشكر لجميع من تفضلوا بمعاونتي في هذا البحث ولو بإبداء الرأي .

فأشكر صديقي وزميلي الدكتور : إبراهيم إمام أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة .

وأشكر الشاب العراقي الأستاذ عناد الكبيسي فقد جاءني ببعض

النصوص التي احتاج إليها البحث . وأشكر موظفي المكتبة التابعة للجامعة
أم درمان الإسلامية ، فقد يسرت لي الحصول على بعض المراجع القديمة
والحديثه منذ كلفتني هذه الجامعة بإلقاء بعض المحاضرات في موضوع الدعوة
الإسلامية وأساليب نجاحها .

ثم أشكر — مقدماً جميع الذين يتعرضون لنقد هذا الكتاب من جميع
جوانبه . وأنا أشد الناس حاجة إلى هذا النقد .

والله أسأل أن ينفع بهذا جميع المثقفين في العالم العربي والراغبين في
إنصاف الثقافة الإسلامية من رجال العلم في كل بقعة من بقاع الأرض .

عبد اللطيف حمزة

مصر الجديدة في فبراير ١٩٧٠

صَوَرُ الْإِتِّصَالِ وَالْإِعْلَامِ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَصَدْرِ الْإِسْلَامِ

الفصل الأول الاتصال بالجمهور بعض صوره في الجاهلية

تختلف المجتمعات القديمة عن الحديثة في نواح شتى : أهمها ناحية الاعلام والاتصال بالجمهور. ذلك أن المجتمعات القديمة كانت ضيقة بالقياس إلى المجتمعات الحديثة ، وفي البيئات الضيقة من حيث المساحة والعدد يسهل اتصال الأفراد بعضهم ببعض .

ونستطيع أن ندرك هذه الحقيقة بجلاء حين نوازن — من هذه الناحية — بين القرية من جهة والمدينة أو العاصمة الكبيرة من جهة ثانية ، ذاك أن التفاهم بين الأفراد في القرية أيسر بكثير من التفاهم بينهم في العاصمة أو المدينة المزدحمة بالسكان .

ومعنى هذا أن قلة العدد في أى بيئة أو مجتمع مما يسمح بحرية المناقشة وإبداء الرأى . أما كثافة السكان في البيئة أو المجتمع فإنها تعوق هذه الحرية وتجعل الأفراد في الأمة الواحدة أشبه بالقطيع الذى لا حيلة له إلا الخضوع للراعى . ونكاد لا نستثنى من هذه القاعدة غير بيئة مكة والمدينة في صدر الإسلام ، وبيئة أثينا في بعض عصور التاريخ القديم . ومع هذا وذاك فإن المجتمعات القديمة كانت — كما يحدث التاريخ — لا تحفل كثيراً بما يسمى (بالرأى العام) .

أما المجتمعات الحديثة فلها عناية بهذا الرأى ، ومن ثم وجدنا فيلسوفاً كبيراً كأفلاطون يجرّد الرأى العام للجمهور من كل قيمة . ومن أقوال فلاسفة اليونان ، فى ذلك ، أن الأمة إذا اتسعت اتساعاً كبيراً لا تقوى على المحافظة على حرّيتها . والسبب فى ذلك أنه لابد أن يجتمع الناس كلهم فى ساحة واحدة لكي يستمعوا إلى أقوال الزعماء والقادة . وبدون ذلك

لا يستطيع الشعب الاطلاع على أحوال الحاكـم - أو بعبارة أخرى - لا يستطيع تتبع أعمال الحكومة (١) .

من أجل هذا لم يكن التاريخ يعطينا الدلائل الكافية على وجود رأى عام بمعناه الصحيح في البيئات القديمة ، وذلك باستثناء مكة والمدينة وأثينا . بل إن التاريخ أمدنا بالشواهد الكثيرة على وجود رأى واحد فقط هو رأى الحاكـم ، والذي ينظر إليه في بعض تلك البيئات القديمة على أنه ظل الله في الأرض ، ولا معقب لحكمه ، ويأمر ولا راد لأوامره (٢) .

مهما يكن من شيء فقد كان للإعلام والاتصال بال جماهير ميادين كثيرة في البيئات القديمة . غير أن تلك الميادين الإعلامية القديمة كانت تختلف في صورتها عن الميادين الحديثة .

فنحن نعرف أن الاتصال بال جماهير في هذه العصور الحديثة يشمل ميادين كثيرة من أهمها : الإعلام والدعاية والإعلان والعلاقات العامة والتعليم والحرب النفسية .. إلخ . ونفس هذه الميادين في الواقع هي التي وجدت العصور القديمة وذلك مع فارق واحد لا بد من وجوده ، هو اختلاف الصورة في البيئات القديمة عنها في الحديثة .

لقد عرف الناس في البيئات القديمة كلا من الإعلام والدعاية ، ولكن بالصور والوسائل التي تناسبها ، كما عرف الناس في تلك البيئات القديمة كلا من الإعلان والعلاقات العامة والتعليم بالصور والوسائل التي تناسب معها وهكذا .

فأما الإعلام

فقد عرف الناس في البيئات القديمة من أساليبه المتعددة ووسائله الكثيرة - وخاصة في العصر الجاهلي - أشياء كثيرة من أهمها فيما يتصل بالإعلام الخارجي ما يلي :

-
- (١) عبد اللطيف حمزة : الإعلام والدعاية ص ٥ . الناشر دار الفكر العربي .
(٢) عبد اللطيف حمزة : الإعلام له تاريخه ومذاهبه ص ٩٥ الناشر دار الفكر العربي .

١ — وسيلة التجارة : والتجار في الجزيرة العربية كما في البلاد الأوربية كانوا ينقلون الأخبار ويقتبسون بعض مظاهر المدنية وينقلونها من مكان إلى مكان ، يقول الأستاذ أحمد أمين في كتاب فجر الإسلام^(١) :

« شاع بين الناس أن العرب في جاهليتها كانت أمة منعزلة عن العالم لا تتصل بغيرها أى اتصال ، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب حصراها وجعلها منقطعة عمن حولها لا تتصل بهم في مادة ولا تقتبس منهم أدباً ولا تهدياً . والحق أن هذه الفكرة خاطئة وأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم مادياً وأدبياً » .: ونزيد نحن على ذلك أن هذا الاتصال بين العرب ومن حولهم من الأمم كان إعلامياً إلى جانب أنه مادي وأدبي .

٢ — ومن تلك الوسائل الإعلامية كذلك البعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب تدعو إلى دينها ونشر تعاليمها . فقد تكونت مستعمرات يهودية في الجزيرة العربية قبل الإسلام بقرون . وأشهرها « يثرب » التي سميت فيما بعد (بالمدينة) وكان من أشهر القبائل اليهودية في يثرب قبيلة (بنى النضير) وقبيلة (بنى قريظة) وقبيلة (الأوس والخزرج) وهما من اليمن . وكان اليهود حملة الثقافة اليونانية إلى الجزيرة العربية لأنهم نزحوا إليها من مراكز هذه الثقافة بالشام والإسكندرية .

وأما البعثات النصرانية ومن أهمها بعثة تنتمي إلى فرقة النساطرة وأخرى تنتمي إلى فرقة اليعاقبة . النسطورية في الحيرة واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام ، وأهم مركز للنصرانية في الجزيرة العربية هو نجران . وكان يتولى أمورها ثلاثة رؤساء . السيد ، والعاقب ، والأسقف . فالسيد كان رئيس القبيلة في الحروب وكان يتولى أمر العلاقات بينها وبين القبائل الأخرى . والعاقب يتولى الأمور الداخلية ، والأسقف يتولى الأمور الدينية .

وكان بنجران كعبة تضاهي الكعبة بمكة . ثم تحولت كعبة نجران إلى كنيسة ، وكان لنجران اتصال كبير بالحبشة لأنها يعقوبية المذهب . . وكان

(١) أحمد أمين — فجر الإسلام ص ٣٢ وما بعدها .

قسس نجران يردون أسواق العرب يعظون ويبشرون ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار .

وكانت النصرانية قبل دخولها الجزيرة العربية تحمل في ثناياها شيئاً من الثقافة اليونانية كما هو الشأن في اليهودية . وكان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال دين فلجئوا إلى الفلسفة يستمدون منها التعليل والبرهان^(١) .

هكذا كانت هذه البعوث اليهودية والنصرانية وسائل اتصال بين العرب والأمم والمدنيات المجاورة .

٣ — ثم من وسائل الاتصال بالجهامير في الجاهلية أو من أسباب هذا الاتصال ووجوده — إنشاء الإمارات على الحدود ، ذلك أن الجزيرة العربية كانت تقع بين أعظم حضارتين آن ذاك : الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية — أولاهما من ناحية الشرق والثانية من ناحية الغرب ، وقد حاول كل من الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لشركهم وسلبهم ونهبهم . وبدلاً من أن يكلفوا أنفسهم غزو جزيرة صحراوية لا أمان لها ، فلمهم — أي الفرس والروم — ساعدوا بعض القبائل العربية المجاورة لهم على أن يستقروا في الحدود يزرعون فيها ويتحضرون ، ويكونون في الوقت نفسه ردة لهم ضد بقية البدو المقيمين في صحراء الجزيرة العربية . ومن ثم تكونت في شبه الجزيرة إمارات على الحدود منها :

إمارة الحيرة على تخوم الفرس .. إمارة الغساسنة على تخوم الروم . فكانت هذه الإمارات أو المدن الجديدة همزة الوصل بين العرب من جهة والأمم المجاورة لهم من جهة ثانية ٥

قال الهمداني في كتاب (الوشي المرقوم)^(١) .

« لم يصل إلى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب . وذلك

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٣٣ وما بعدها .

(١) أحمد أمين — فجر الإسلام ص ٣٢ نقلاً من الكتاب .

لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الشام أخبر بأخبار الروم وبنى إسرائيل واليونان ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعاً .. إلخ .

* * *

تلك إذن هي أهم وسائل الاتصال بين العرب ومن جاورهم من الأمم في العصر الجاهلي ، وثم وسائل الاتصال بين العرب بعضهم وبعض في داخل شبه الجزيرة أشرنا إليها في كتابين سابقين هما كتاب « الإعلام له تاريخه ومذاهبه » وكتاب « الإعلام والدعاية » ولا بأس من أن نشير إلى بعضها فيما يلي :

١ - القصيدة الشعرية :

الحق أن الشعر في العصر الجاهلي كاد يكون هو الوسيلة الوحيدة من وسائل الإعلام والدعاية ؛ والحق أنه لم توجد إلى جانب هذه الوسيلة غير وسيلة الخطابة ، ولكن المنزلة الأولى في الجاهلية كانت للشعر دائماً ، وفي بيئة لا يعرف القراءة والكتابة فيها إلا قليلون يكادون يعدون على الأصابع كان لابد للشعر أولاً ثم للخطابة بعد ذلك أن يقوم بوظيفة الإعلام ووظيفة الدعاية للقبيلة . ولعل أكبر دليل على أهمية القصيدة العربية واهتمام العرب بها ما رواه التاريخ عن العرب أنهم كانوا يختارون أجود القصائد ويكتبونها على (القبايطي) بماء الذهب ، وكانوا يعلقونها على أستار الكعبة أو في بيوت الملوك ، ومن أشهر هذه القصائد ما سمي (بالمعلقات السبع أو العشر) .

صحيح أن قلة من المؤرخين أنكروا ذلك ، وعلى رأسهم (أبو جعفر النحاس) وتبعهم بعض المستشرقين في هذا الرأي . ولكن بقية المؤرخين والنقاد ذهبوا في قصة المعلقات إلى أنها صحيحة . ذكر البغدادى في خزانة الأدب : أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتي قائله في موسم الحج فيعرضه

على أندية قريش . فإذا استحسنوه روى وكان فخرا لقائله . وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه^(١) .

والعقل لا يرى مانعاً من صحة تعليق هذه القصائد في الكعبة . ويجوز أن يقع ذلك في أيام المواسم كلها أو بعضها ، ويجوز أن يكون في ساعة من نهار . والتاريخ يذكر أن قريشاً حين استقر رأيها على قطيعة بنى هاشم كتبوا بذلك صحيفة وعلقوها بأستار الكعبة .

ولم تجد قريش أفعل من هذه الطريقة الإعلامية ولا أقوى منها تأثيراً في نفس الرسول وأصحابه وفي نفوس بنى هاشم ليفهموهم أن قريشاً مصممة على تعذيبهم بهذه الطريقة لأن تعليق الصحيفة على أستار الكعبة يعطيها كل هذه الأهمية الإعلامية التي لا تجارى . .

والتاريخ يذكر لنا كذلك أن الرشيد حين كتب العهد للأمين والمأمون بالخلافة بعده أمر أن يعلق في أستار الكعبة ليكتسب بذلك قوة وهبة ، وليزداد الناس خضوعاً لهذه الطريقة الإعلامية الضخمة .

إذا صح كل ذلك فلا مانع من أن يكون للعرب وللشعر عندهم كل هذه المنزلة — عناية بالمعلقات التي هي من أجود القصائد العربية باعتراف جميع النقاد ، والتي تعتبر في الوقت نفسه من أعظم أنماط الدعاية للشاعر ولقبيلته التي يدافع عنها ويفخر بها في معلقاته .

أجل لقد شهد التاريخ أن القصيدة الشعرية قامت بوظيفتها في العصر الجاهلي خير قيام . وأن الشاعر إذا ظهر في قبيلة من القبائل هنا أفرادها بعضهم بعضاً ، وهنأتهم القبائل الأخرى كذلك بهذا الحادث السعيد وهو ظهور هذا الشاعر .

والسبب في ذلك أن الشاعر في القبيلة كان يقوم مقام الصحيفة بالنسبة للأحزاب في الوقت الحاضر . فهو الناطق بلسان هذه القبيلة . وهو المناضل عنها بشعره ، وهو الحافز لهما في أوقات الحروب وهو المصور لأخلاقها

(١) محمد هاشم عطية : تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ص ٢٢٣ .

وعاداتها ومكانتها بين القبائل الأخرى . غير أن أكثر هذا الشعر كان من باب الفخر ، والفخر من أنسب الأبواب الشعرية في الجاهلية وذلك لظهور العصبية والقبلية — فترى على حد قول القائل :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطيناً
... إلخ

وقد بقي هذا النوع من الشعر القبلي سائداً في الجزيرة العربية حتى بعد ظهور الإسلام ، وأظهر ما كان ذلك في الدولة الأموية . ومن أكبر شعرائها جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وذو الرمة ، ولهم في (باب النقائص) أو شعر المهاجرة القبلية شأن وأى شأن .

٢ — الخطبة والخطباء :

وقد كان هؤلاء يقومون بما قام به الشعراء من الوظائف الاجتماعية والسياسية وخاصة في أوقات الفتن والحروب والقتال ، وقد كانوا يعتنقون النصرانية ، وكان لشعرهم وخطبهم طابع ديني في أكثره .

٣ — المناداة :

وكان الناس يمارسون هذه الطريقة الإعلامية بأشكال مختلفة منها دق الطبول ومنها إشعال النار على قمم التلال أو المرتفعات ، ومن أهمها الأصوات التي ترتفع بها حناجر المنادين في القرى والمدن .

وما زال كثير من هذه الأشكال سائداً في البيئات العربية إلى يومنا هذا ، وإن أضاف إليها مرور الزمن أشكالاً أخرى من المناداة ومنها إطلاق الأعيرة النارية في الأفراح أو البشائر كالإعلان عن نجاح مرشح في الانتخابات أو الإعلان عن نجاح شاب في بعض الأسر وحصوله على شهادة علمية .

ومنها — أى من أشكال المناداة — ما كنا نراه في القرية المصرية حين نختم صبي من صبيانها حفظ القرآن الكريم فإذا ذكركم الصبي جملاً أو حملاً أو حصاناً ويطاف به في القرية إعلاناً بأنه أنتم حفظ القرآن الكريم .

وقد اختفت هذه الأشكال الأخيرة من أشكال المناداة في الوقت الحاضر . كما سيأتى ذكر ذلك .

٤ — الأعياد :

وقد عرفت البشرية الأعياد في جميع عصورها ولم يستغن عصر من هذه العصور عن الأعياد في أى شكل من أشكالها . وعرف العرب في الجاهلية كثيراً من الأعياد ومنها على سبيل المثال :

عيد الشباب :

فيه كان يجتمع شباب كل قبيلة تحت شجرة كبيرة ، أو في مكان به أشجار كثيرة . ويأتى الشاب منهم فيعلق رمحاً أو يعلق سيفه أو يعلق نوطه على غصن من أغصان الشجرة . ويحتفل الجميع بهذا اليوم وكانوا يطلقون على الشجرة اسماً يعرفونه بينهم ، فيسمونها (ذات أنواط) يفعلون ذلك من قبيل الفخر بالقوة . وكان هذا الفخر في ذاته يتفق وطبائع الجاهلية . فلما جاء الإسلام ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على هذه الشجرة وكان معه أصحابه وفيهم بعض الشباب قالوا « يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط » فضحك رسول الله ﷺ ولم يجهم إلى ما طلبوا . وعرف الشباب من الصحابة بعد ذلك أن الإسلام له أعياد من نوع آخر ، وله ذرائع لإظهار القوة من طراز جديد لأغراض جديدة لم تعرفها الجاهلية .

ومهما يكن من شيء فقد كان (عيد الشباب) في الجاهلية وسيلة من الوسائل الإعلامية وطريقاً من طرق الدعاية . وبهذا الطريق كانت كل قبيلة تعلن عن قوتها حتى تخشأها القبائل الأخرى .

٥ — الأسواق :

محدثنا الألوسى في كتابه (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) عن الأسواق في الجاهلية والإسلام ، ومن هذا الحديث نعلم أن الأسواق عند العرب لم تكن مراكز للمبادلات التجارية فقط ولكنها كانت معرضاً

للبضائع الفكرية والأدبية إلى جانب أنها معرض للبضائع المادية أو التجارية، وفي الأسواق كانت تفض المنازعات القبلية . وفيها كانت تعلن القبيلة الحرب على قبيلة أخرى . وفيها كان يحدث التعارف بين الناس . وقد يؤدي هذا التعارف إلى عقد الزواج بين بعض وبعض . وفيها كان يأتي من كل قبيلة شاعر ليعرض شعره على الناس ويحتكم فيه إلى المحكمين في نقد الشعر (كالنابغة) وغيره .

وفيها كان يأتي الخطباء ليخطبوا الناس في مختلف الشئون ، وكان من أولئك الخطباء « قس بن ساعدة الإيادي » الذي كان يخطب الناس في الأمور الكونية ويدعوهم إلى التأمل في الموت وما بعد الموت . وقد سمعه رسول الله ﷺ وأعجب به .

وقد كانت هذه الأسواق على ضربين من حيث الإتاوات والمكوس (أو الضرائب) ، منها ما يفرض المكوس على الوافدين إليها ، وهي الأسواق التي تتبع قبيلة من القبائل بالذات . ومنها ما لا يفرض هذه المكوس أو الضرائب لأنها لا تتبع قبيلة بالذات ، ومن الأخيرة سوق عكاظ . وقبل أن نتحدث عن سوق عكاظ التي هي في نظر التاريخ أعظم أسواق العرب في الجاهلية يجدر بنا أن نمر مروراً سريعاً ببقية الأسواق ومنها :

سوق دومة الجندل :

وهي سوق تجارية بحثة يحل موعدها كل عام في أول ربيع الأول ، وتقطنه قبيلتا كلب وجويلة طيء . ويشرف على موسمها أمراء من العرب . وكان (أكيدر) صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم في أول يوم .

سوق المشقر : (بكسر الميم وتشديد القاف) :

وهي حصن قرب هجر وتنزل هذه السوق أخلاط من جميع العرب . وكان امرؤ القيس ينزلها . وفيها حصر كسرى بنى تميم ، وأغلق عليهم باب الحصن ، ثم قتل الجند وسبي الذراري .

سوق هجر :

وهي سوق تجارية أيضاً تشتهر باللؤلؤ والنخيل وفيها تروج تجارات الهند وفارس ويدير أمورها (المنذر بن ساوى) ملك البحرين .

ثم من هذه الأسواق كذلك (سوق عمان) (وسوق حباشة) على أرض تهامة على بعد ست ليال من مكة إلى جهة اليمن . وقد تاجر فيها رسول الله ﷺ وسوق (صحار) وسوق (دبي) وسوق (الشحر) وغيرها ،

وكل هذه الأسواق المتقدمة لاتعنيننا كثيراً في هذا البحث لأنها أسواق تجارية خالصة تفيد الناس من ناحية التجارة ومن ناحية الاتصال بعضهم ببعض ، ولكن السوق التي تستحق منا كل عناية في هذا البحث هي :

سوق عكاظ :

وعكاظ هي المعرض العربي العام أيام الجاهلية :

فهو مجمع أدبي لغوي رسمى له محكمون تضرب عليهم القباب فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم ، وما استجادوه فهو الجيد وما بهرجوه فهو الزائف . وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية ، فما ينطق المحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة ، فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادها ، وتلهج بها الألسن في النوادي والخواضر ، ويحمل إلى هذه السوق التهامي والحجازي والنجدى والعراقي ، واليماني واليمامي كل ألفاظ حية ، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلا واصطفاء حتى يتبقى الأنسب الأرشق ، ويطرح المحفور الثقيل ، كما أنها السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة . وهي معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية ، فهنا قس بن ساعدة يخطب في الناس ويذكر الخالق ويعظم من كان قبلهم ويأمرهم بفعل الخير ، وهنا ندوة سياسية عامة تطرح فيها أمور كثيرة بين القبائل : فمن كانت له إتاوة على قبيلة نزل عكاظ فمجاؤوه بها . ومن أراد تخليد نصر لحيه - فعل فعل عمرو بن كلثوم - فرحل إلى عكاظ

ونخلده فيها شعرا : ومن أراد إجارة أحد هتف بذلك في عكاظ حتى يسمع عامة الناس . ومن أراد إعلان حرب على قوم أعلنه في سوق عكاظ .

وكانت هذه السوق تقوم بين العرب يومئذ مقام الصحيفة الرسمية في أيامنا هذه ، فمن أتى عملاً شائناً تأباه مروءة العربي شهروا به في عكاظ ونصبوا له راية غدر : فعرفوه فلعنوه فاجتنبوه . ومن أراد التبرؤ من قريب لسبب أو لآخر تبرأ منه في عكاظ .

وعكاظ نخل في واد بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف ، وموقعها جنوب مكة إلى الشرق . وتقام هذه السوق في ذى القعدة وتنزله قريش وهوازن وخطمان وخزاعة والأحباش وطوائف من العراق والبحرين واليمامة وعمان واليمن وسائر أطراف الجزيرة . وليس فيها مكس ولا أعشار لأنها لا تتبع أحداً من الأمراء . حتى جاء الإسلام فكان يعظ بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع . وكان أبوه قاضياً في الجاهلية . فمات فصار ميراثاً لهم .

وتقيم العرب في عكاظ وهم يتهيئون للحج ويتناشدون ويتفاحرون ويتنازعون ويتنافرون ويتعاضمون ، ولم يكن للعرب سوق كعكاظ ، وبقيت له هذه الشهرة بعد الإسلام ، فقد جاء في الأملالي لأبي علي القالي أن (عبد الرحمن بن ملجم) قاتل علي لما سئل عن قتله علياً قال : ضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ لقتلهم . وكان يقوم بأمر الحكومة عامة بنو تميم وكانت الحكومة في الشعر للنابعة ، وكانت تضرب له قبة بهذه السوق يجتمع إليه فيها الشعراء فدخل إليه حسان وعنده الأعشى ، قال النابغة أنشده شعراً وحكم له . ثم أنشدته الخنساء قولها :

قلدى بعينيك أم بالعين عوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

حتى انتهت إلى قولها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه ناراً

وإن صخرأ لكافينا وسيدنا وإن صخرأ إذا نشتو لنحار

فقال النابغة : لولا أن أبا بصير (يريد الأعشى) أنشدني قبلك لقلت
إنك أشعر الناس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة (كناية عن المرأة) فقالت :
والله من كل ذى خصيتين (كناية عن الرجل) ، فقال حسان : أنا والله أشعر
منك ومنها . قال : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجففات الغريلمعن بالضحي وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بناخالا وأكرم بنا ابنا
فقال النابغة : إنك لشاعر لولا أن قلت عدد جفائك وفخرت بمن.
ولدت ولم تفخر بمن ولدك .

* * *

ووقف رسول ﷺ بعد مبعثه بثلاث سنوات في عكاظ يدعو
الناس إلى الخير والهدى والسعادة والإيمان ، وقد لزمه منذ قيامه بالدعوة
حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله ، فعزم ليقصدهن المواسم
وليأتين فيها القبائل كل قبيلة بمنزلها وكل جماعة في حيمهم ، يعرض
عليهم هذا الدين .

قام في عكاظ يقول :

يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا ،

ويتبعه رجل له غديرتان وهو يقول :

يأيها الناس ، إن هذا ابن أخي وهو كذاب فاحذروه .

فعرف الناس أن هذا الصاد عن سبيل الله هو عمه (أبو لهب) يكذبه
كلما قال كلمة الحق .

وعاود الرسول الدعوة مراراً فلم يستجب له ولم ييأس ، فكان يقول للحى
في موسم عكاظ : لا أكره منكم أحداً على شيء ، من رضى الذى أدعوه
إليه قبله ومن كرهه لم أكرهه إنما أريد أن تجوزوني مما يراد بى من القتل
حتى أبلغ رسالات ربى . ويغفر الله لى ولمن صحبنى بما شاء .

ولعل أشهر أسواق الجاهلية أيضاً :

سوق مجنة : (بتشديد النون)

يقصده العرب بعد أن تنقضى سوق عكاظ .

سوق ذى المجاز :

ورد ذكرها كثيراً في شعر العرب . وخاصة شعراء هذيل - لأنها من أسواقهم الكبرى . وهذه الأسواق الثلاث : عكاظ- ومجنة وذو المجاز كانت تقوم في أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة . وقد شهدت إلى جانب البيع والشراء والمفاخرة مشهداً من أفضح مشاهد الجفاء والتنكر والأذى للرسول . وابتلعت بضجيجها صوت الدعوة الإسلامية فيما ابتلعت من دعوات .

وجاء الإسلام فاستمرت بعض هذه الأسواق وأضيف إليها أسواق جديدة منها :

المربد :

ولم يعهد لهذه الأسواق في الإسلام تلك القيمة التي كانت لها في الجاهلية ، وذلك أن العرب تحضرت وسكنت الأمصار وكثرت فيها الأسواق الدائمة إلا ما كان من أمر المربد الذي ورث عكاظ . وأخذ أمر المربد (وهو عكاظ الإسلام) يزداد شيئاً فشيئاً .

وتقع هذه السوق قرب البصرة ، وقلت أهميتها في عصر الخلفاء الراشدين وعادت إلى قوتها في العهد الأموي . وذلك للعصبية القبلية التي كانت من صفات هذه الدولة .

وتتعدد حلقات هذه السوق ويتوسطها الشعراء والرجاز ، ويؤمها الأشراف وسائر الناس يتآمرون ويتفاخرون ويتهاجون .. إلخ .

ولكل قبيلة شاعر يعرض شعره في المربد ، وكانت تموج بأعلام اللغة والأدب والشعر والنحو ، معهم محابرههم ودفاترهم يكتبون من فصحاء الأعراب . فلجريز والفرزدق وحلقة والراعي النخعي وذو الرمة لكل منهما حلقة .. إلخ .

وكان لكل من الشعراء رواة ينقلون له ما قاله خصمه وينشرون في الناس جواب شاعرهم عليه .

٦ - الندوة :

ولعل من أقوى طرق الاتصال بين العرب في الجاهلية - عدا الأسواق - الندوة . وهي مكان يجتمع فيه أهل الرأي في الأوقات التي تحتاج إلى تبادل الرأي .

ومن الأمثلة عليها (دار الندوة) قرب الكعبة، وهي الدار التي اجتمع فيها رؤساء القبائل العربية ومنهم بنو هاشم وأخذوا يتشاورون في الطريقة التي يتخلصون بها من محمد ﷺ . وكان ذلك قبيل الهجرة ، وكان العرب ينتهزون فرصة اجتماعهم كذلك بالأسواق على النحو الذي شرحناه في هذا الفصل ويعقدون فيما بينهم (ندوة) يتباحثون بها في شتى المشكلات التي تعرض لهم ويخرجون بحل لكل مشكلة . وقد يشتد بينهم الجدل فلا يخرجون بشيء .

٧ - إشعال النار في رعوس الجبال :

كذلك كان من وسائل الإعلام في الجاهلية وسيلة فطرية لا تكلفهم شيئاً من الجهد والمشقة ، وهذه الوسيلة الأخيرة هي إشعال النيران فوق رعوس الجبال يخبرون بها عن عدو يريد الإغارة على القبيلة، أو يخبرون بها عن حادث كبير . ساراً كان أو محزناً حدث في القبيلة ، أو يعلنون بها عن ولية كبيرة وهكذا ، وحول هذه النار تحلق العرب ومعهم ضيفانهم وهم الذين من أجلهم أوقدوها . وكثيراً ما يكون بين القوم شاعر ينفع به هذا المجلس ويمدح صاحب النار ويصفه بالكرم والجود ، فإذا روى هذا الشعر أصبحت لصاحب النار شهرة كبيرة .

وتحدثنا كتب الأدب عن رجل اسمه الملقى كانت له بنات لم يتزوجن وعلت بهن السن ، وفي ذات ليلة من الليالي جاءه شاعر من الشعراء فأوقد له

النار وبأبلغ في إكرامه وطعامه وشرابه ، ونظم الشاعر قصيدة في مدح هذا الرجل الذى أشعل النار (ويات على النار الندى والمخلق) وسارت هذه القصيدة ، وعلم الناس بأخبار الرجل وبناته فتقدم للزواج منهن خير شباب العرب .

والظاهر أن طريقة إشعال النار فوق الجبال هى التى تطورت بعد ذلك فى الإسلام إلى (المناور) والمناور هى مواضع رفع النار فى جنح الليل ومواضع الدخان فى وضوح النهار . وتكون تارة على رءوس الجبال . وتكون تارة فى أبنية عالية . وفى كل واحد من هذه المناور — كما يقول صاحب صبح الأعشى — نظارة لرؤية ما وراء (المناور) وما يكون أمامها . يقول صاحب صبح الأعشى : وهذه المناور مأخوذة عن ملوك الهند لكثرة وجود الجبال فى تلك البلاد .

ونحن نقول إن الأمر لا يحتاج إلى نقل فكرة (المناور) من بلد إلى بلد . لأن الطبيعة هدت العربى إلى إشعال النار فى رءوس الجبال لجميع تلك الأغراض الإعلامية ، ومن الطبيعى كذلك أن تخضع هذه الفكرة البسيطة للتطور شيئاً فشيئاً حتى تصبح فى العهود الإسلامية اللاحقة على صورة (المناور) .

٨ — المناداة :

وهى من أقدم الطرق الفطرية فى الإسلام وجدت فى جميع البيئات القديمة بدون استثناء ، والنداء فى جميع تلك البيئات وسيلة لنشر الأخبار ومازال إلى اليوم فى بعض البلاد العربية المتخلفة أو النامية . وذلك فى الوديان والسهول والقرى وبعض الجهات المتطرفة ، ومازال المنادى يتجول فى بعض المدن ، وقد يكون للمدينة الواحدة منادون كثيرون ، وأكثر ما يكون ذلك فى المواسم الدينية كشهر رمضان والعيدى ونحو ذلك ،

لذلك كان من الأمور الطبيعية أن يوجد المنادى فى الجاهلية وأن يقوم بكثير من الأغراض الإعلامية ، وأن يشبه فى ذلك (المنادى) فى الإسلام

وهو الرجل الذى يعهد إليه بإذاعة الأوامر الحكومية والأخبار الحربية وبعض الأخبار الرسمية كوصول حاكم جديد للولاية وتحديد الأعياد الدينية .

وكما تطور إشعال النيران فى رموس الجبال إلى (مناور) كذلك — فى رأينا تطور النداء فى الجاهلية إلى (الأذان) فى الإسلام وهو هذا النداء الذى يسمعه الناس خمس مرات فى اليوم واليلة إيداناً بالصلوات الخمس المعروفة .



الباب الأول

أشهر صور الإعلام في صدر الإسلام

تمهيد

عرفنا أن العصر الجاهلي لم يكن يمارس من وسائل الإعلام غير الوسائل الفطرية المعروفة عند الأمم المتخلفة أو الجماعات البدائية ، وأن أهم هذه الوسائل التي عرفها الناس في الجاهلية وسيلة القصيدة الشعرية ، ووسيلة الخطب ، ووسيلة الندوات ، والأسواق والمناداة ، ووسيلة إشعال النيران من أعلى الجبال ونحو ذلك .

ومنذ ظهور الإسلام كان لا بد من أن يصبح للإعلام صور جديدة لم يعرفها العرب من قبل ، وصور قديمة احتفظ بها الإسلام وكانت معروفة للعرب من قبل :

فأما الصور القديمة التي احتفظ بها الإسلام فهي القصيدة الشعرية وإن لم يصبح لها في الإسلام شأن كبير كما كان لها هذا الشأن في الجاهلية ، ومنها الخطابة وهي الصور الإعلامية التي أصبح لها في الإسلام شأن أكبر من شأنها في الجاهلية ، ذلك أن الخطابة فن الاقتناع وأنها لا تزدهر في عصر من العصور كما تزدهر في عصر الثورات ، ولذلك بلغت الخطابة أوجها على يد الرسول وأيدي الخلفاء الراشدين من بعده : أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وكان هذا الأخير مضرب المثل في البلاغة العربية على حد سواء .

ثم من الوسائل الإعلامية التي احتفظ بها الإسلام وسيلة الأسواق ووسيلة الندوات لأنهما متصلتان اتصالاً قوياً بحياة الناس في كل زمان ومكان :

جاء الإسلام واستحدث الكثير من الأساليب الجديدة في ميدان الإعلام والاتصال بالناس منذ عرض عليهم هذا الدين الجديد . وبذل النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل هذه الغاية من الجهود الكبيرة التي ستتضح عند الكلام على كل أسلوب من هذه الأساليب على حدة .

وقد سبق أن قلنا في التمهيد إن الجهود التي بذلها النبي في ميدان الاتصال تسمى بالدعوة ، وإن الجهود التي بذلها الخلفاء الراشدون في هذا الميدان ممكن أن نطلق على أكثرها اسم (الإعلام) ، ذلك أن الرسول كان قد أدى الأمانة وقام بالرسالة وفرغ من عرض الدين الجديد على الناس . أما الخلفاء الراشدون من بعده فكان عليهم واجب آخر لا يصح أن نسميه (دعوة) ولكن نطلق عليه اسماً آخر هو (الإعلام) في سبيل نشر الدعوة .

وإذا ذهبنا نستعرض أساليب الدعوة والإعلام في صدر الإسلام وجدناها كثيرة في جملتها ، وكانت كلها من وحي القرآن ، أو كانت كلها من وحي الرسالة التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام . فمن هذه الأساليب بعد القرآن الكريم والحديث الشريف والخطبة النبوية :

أسلوب الأذان لإقامة الصلاة ، وأسلوب الغزوات والسرايا الحربية التي كان الرسول والخلفاء من بعده يقومون بتنظيمها لاستطلاع حال العدو وإعلامه أن الدين الجديد له من القوة الحربية ما يستطيع بها المحافظة على نفسه في الداخل والخارج ، وقد نظر هذا البحث - كما سبق القول في ذلك - إلى الغزوات على أنها كانت من أقوى وسائل الإعلام بهذا المعنى .

أسلوب العلاقات الودية :

وقد كانت معروفة في الحياة الجاهلية ولكن لم يكن لها من الخطورة والأهمية ما أصبح لها منذ ظهور الثورة الإسلامية ، والسبب في ذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يقيمون حياتهم على العصبية القبلية .

وهي التي أشعلت بينهم نار الحرب لأتفه الأسباب ، ثم هي العصبية التي جاء الإسلام لمحاربتها واقتلاع جذورها من الوجود العربي ، ومن أجل ذلك وجدنا الإسلام قد أحل أسلوب العلاقات الودية محل العصبية ، ومارسها الرسول مع أصدقائه وأعدائه على السواء .

ولا شك أن الذي ساعد الرسول على القيام بهذه العلاقات الودية هم أصحابه من القراء والمتفقيين في دينه ، فقد كان هؤلاء هم الصلة بينه وبين

القبائل العربية التي كانت تكرم هؤلاء الرسل تارة ، وكانت تسيء إليهم إلى درجة الغدر بهم وقتلهم تارة أخرى :

ومهما يكن من شيء فنحن إذا استعرضنا وسائل الاتصال بالجمهور في عهد الرسول والخلفاء الراشدين فسنجد أن أقواها تأثيراً في النفوس وأعظمها نجاحاً في الترويج للعقيدة التي جاء بها الرسول مالا يقل عن تسع وسائل نذكرها مرتبة حسب أهميتها على الوجه الآتي :

١ - القرآن الكريم .

٢ - الحديث الشريف والخطبة النبوية .

٣ - القدوة الحسنة من جانب الرسول والصحابة أجمعين .

٤ - الاتصال الشخصي والجمعي وهو من أقوى وسائل الإعلام قديماً وحديثاً :

٥ - أسلوب القصص ، وهو وسيلة إعلامية ظهرت أول ما ظهرت في القرآن الكريم . ثم ظهرت على أيدي نفر ممن دخلوا الدين الجديد أطلق عليهم اسم (القصاصين) وكان لهذه الوسيلة أعمق الأثر في تعلق المسلمين بهذا الدين ، ثم في ميدان الجهاد من أجل نشر هذا الدين .

٦ - مواسم الحج أو مواطن التجمعات الإسلامية على أوسع نطاق . وقد كانت هذه المواسم أشبه شيء بالمؤتمرات الإسلامية الكبرى أو ، الأسواق العامة .

٧ - الغزوات التي نظر إليها البحث على أنها وسيلة إعلامية أوجبها القرآن لنشر الإسلام .

٨ - العلاقات الإنسانية .

٩ - القصيدة الشعرية .

من هذه الوسائل التسع سنتحدث عن الوسائل الإعلامية الآتية كل على حدة وهي :

أولاً : القرآن الكريم . ثانياً : الحديث الشريف .

- ثالثاً : القدوة الحسنة :
رابعاً : الاتصال الشخصي ،
خامساً : القصص .
سادساً : مواسم الحج ،
سابعاً : العلاقات الإنسانية .

أما الغزوات والبعوث الحربية وأما القصيدة الشعرية وأما الخطبة النبوية فسنرجى الحديث عنها إلى الوقت الذي نتحدث فيه عن (الدعوة الإسلامية على يد الرسول وطرق نجاحها) وتلك هي الخطوة التي وضعناها للباب الأول من أبواب هذا الكتاب .

هذه هي أهم صور الإعلام والاتصال في عهد رسول الله ﷺ وسنرى أن الخلفاء الراشدين اتبعوا هذه الطرق الإعلامية نفسها . ولم يكادوا يزيدون عليها . وذلك أن تاريخ الخلفاء الراشدين — رضوان الله عليهم كان صورة دقيقة — في ميادين الإرشاد والتعليم والاتصال والإعلام — من حياة الرسول ،

ونحن حين نقف عند كل وسيلة إعلامية من هذه الوسائل السبع منضرت المثل فيها بالرسول . وذلك لأنه أضخم شخصية في الوجود الإسلامي ، ولأن الاستشهاد بسيرته ومسلكه في ميدان الاتصال يغني عن الاستشهاد بالصحابة أنفسهم ، كما سنشرح ذلك في كلمة بعنوان (تمهيد) سنبدأ بها الكلام في الباب الثاني من أبواب هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ،

الفصل الأول

القرآن أكبر وسائل الإعلام

في الإسلام

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم هو الوسيلة العظمى والطريقة المثلى للدعوة الإسلامية، ولا محل للمناقشة أو الجدل في هذه الحقيقة سواء كان هذا الجدل من المسلمين أو من غير المسلمين أو من الدهريين أو الوثنيين الذين لا دين لهم ولا عقيدة .

والبحث في القرآن الكريم باعتباره أكبر وسيلة من وسائل الإعلام منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا بحث ليس بالهين . إنه بحاجة أولاً إلى دراسة عميقة لهذا الكتاب السماوي من الزاوية الإعلامية، وهو بحاجة ثانياً - إلى من من يجمع من صور هذا الكتاب المقدس كل الآيات القرآنية التي تحمل معنى الدعوة - أو التي رسمت للرسول طريق هذه الدعوة ، ومن أمثلة هذه الآيات - قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هي أحسن » .

وقد نص القرآن في كثير من آياته على أن الرسول مكاف من قبل الله تعالى بشيء واحد فقط هو تبليغ الناس هذه الرسالة الجديدة . وأنه ليس مسئولاً عن تصديق الناس لها أو عدم تصديقهم إياها . قال تعالى : « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

وقال تعالى : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء » . كما نص القرآن الكريم في آيات كثيرة على الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها الداعية بوجه عام، والتي يتحلى بها الرسول الكريم بوجه خاص . ومن هذه الأخلاق : الصبر وحسن المعاملة والجدال بالتى هي أحسن والإعراض عن الجاهلين والمنافقين ، والبعد عن الغلظة قال تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

وحض الله رسوله كذلك على قتال المشركين ونشر الدعوة الإسلامية بطريق السيف ، فصعد الرسول لهذا الأمر ومارس الحرب لا للتوسع الإقليمي ولا للحصول على السلطان ولا للانتقام من أحد من المشركين : فليس بينه وبين أولئك المشركين إلا أن يقولوا « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . فإن قالوها عصموا منه دماءهم ولم يجز له أن يقاتلهم ، وأسلوب آخر من أساليب القرآن في الدعوة إلى الإسلام — ولعله كان أكثرها وقعاً في نفوس العرب وغيرهم من الأمم التي اعتنقت الإسلام — وهو أسلوب القصص ، وقد حفل الكتاب بقصص الأنبياء وما لقيه كل نبي منهم من أذى بأعنف الصور والأشكال التي عرفت البشرية ، ومع ذلك صبر الأنبياء على ما أوذوا في سبيل الله ، وكانت هذه الطريقة السلبية — وهي الصبر — من أنجح الطرق في تبليغ رسالتهم السماوية إلى الأمم التي بعثوا إليها ، وكانت هذه القصص التي حكيت حياة الرسل من لدن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام قد بثت في المسلمين روح التضحية والصبر من أجل الدين . وأوحى إليهم بالقدوة الحسنة التي سبق القول أنها كانت في العصور القديمة من أنجح الوسائل في ميادين الإعلام والتربية والتعليم وميدان العلاقات العامة .

ثم إن القرآن الكريم نزلت آياته حسب المواقف والحوادث التي مرت بالرسول ، يسترشد بهذه الآيات التي نزل بها الوحي في كل حادثة من هذه الحوادث وفي كل موقف من هذه المواقف ، وكانت بعض آيات الكتاب تنبئ الرسول بما سيحدث له ولأصحابه في المستقبل ، وكانت بعض آياته تقف الرسول على أخبار المشركين والمنافقين وما كان يدبره هؤلاء وهؤلاء من المؤامرات ونحو ذلك ، كما كانت بعض آياته تنقد حالة المسلمين في كثير من المواقف التي تمر بهم وترشدهم إلى الصواب في هذه المواقف .

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم من جميع هذه النواحي الإخبارية وما يتبع هذه الأخبار من نقد وتحليل لمواقف المسلمين والمنافقين ورسم

الطريق الذى يسلكه المسلمون تجاه المنافقين ورسم الآداب التى يجب على المسلمين أن يعاملوا بها الرسول . نقول إذا نظرنا إلى القرآن الكريم من هذه الناحية فقط أمكننا أن نعتبر هذا الكتاب المقدس صحيفة العهد الذى ظهر فيه الاسلام ، إذا صح هذا التعبير ، ولكنها صحيفة من طراز آخر ممتاز بالصدق كأحسن ما يكون الصدق وبالنزاهة فى التوجيه والارشاد كأحسن ما تكون النزاهة ، ولاغرو إنها صحيفة الله تعالى ومن أصدق من الله قيلا .

وأهم من ذلك كله أن هذه الصحيفة الإلهية كان لها الأثر كل الأثر فى خلق مجتمع جديد فى الجزيرة العربية هو المجتمع الاسلامى الذى يختلف اختلافاً تاماً عن المجتمع الجاهلى . يدلنا على ذلك أنه أصبح للمجتمع الاسلامى الجديد على يد الرسول مجموعة من القيم والمفاهيم مخالفة كل المخالفة للقيم والمفاهيم التى كانت للعرب فى الجاهلية ، وبعبارة أخرى أصبح المثل الأعلى للمسلمين على يد الرسول شيئاً مغايراً كل المغايرة للمثل الأعلى للعرب فى العصر الجاهلى .

وقد بحث المستشرقون من الغربيين هذه القضية بحثاً مستفيضاً ، وأفاد الأستاذ أحمد أمين من هذه البحوث فى كتاب « فجر الاسلام » ، وقال : إن المثل الأعلى للرجل فى الجاهلية كان يتمثل فى الشعر العربى عامة وفى المعلقة بوجه خاص ، وقد صور طرفة بن العبد — وهو من شعراء المعلقة — هذا المثل الأعلى فى الجاهلية بقوله :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وربك لم أحفل متى قام عودى^(١)
فمنهم سبق العاذلات بشربة كمت متى ما تعل بالماء تزبد^(٢)

(١) معناه ولولا ثلاثة أشياء تقوم عليها حياتى لم أهتم متى جاء الأجل وتركنى جميع من يعودوننى فى المرض .

(٢) أول هذه الأشياء الثلاثة إسكات العاذلات والعدل للذين يلوموننى على شرب الخمر المعتقة التى يملوها الزبد متى ما علاها الماء .

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

بهكنة تحت الجباء المعمد (١)

وكرى إذا نادى المضيف مجنبا كسيد الغضا ذى السورة المتورد (٢)،

وليس شك أن القارىء الحديث يجد صعوبة ما فى قراءة هذه الأبيات، الجاهلية ولكننا نطالب هذا القارىء الحديث بأن يفهم مغزاها وأن يرسم فى ذهنه من خلالها صورة للمثل الأعلى للرجل العربى فى الجاهلية .

وهى صورة رجل يقول أنه لا يعيش حياته إلا لغايات ثلاث :

الغاية الأولى : شرب الخمر ،

الغاية الثانية : قضاء اليوم الغائم الجميل مع المرأة الجميلة ،

الغاية الثالثة : النجدة لكل من يستنجد به والهجوم على من يتعدى على هذا الضعيف هجوم الذئب على فريسته ، والغاية الأولى هى التى عبر عنها البيت الثانى وهى شرب الخمر التى يعلوها الزبد متى علاها الماء ،

والغاية الثانية هى التى عبر عنها البيت الثالث - وهى الجلوس إلى الحسناء فى اليوم الغائم تحت الخيمة القائمة على العمدة ، والغاية الثالثة هى التى عبر عنها البيت الأخير وهى الاسراع لنجدة الخائف أو الملهوف أو الضعيف ، ليقفز لنجدته كما يقفز الذئب المختفى وراء الأشجار استعداداً للهجوم على

(١) الدجن : الغيم وبهكنة ، المرأة الحسناء ، والمعمد : القائم على أعمدة ، والمعنى أن الشئ الثانى من هذه الأشياء الثلاثة التى أعيش من أجلها هو قضاء اليوم الغائم الجميل مع المرأة الحسناء فى خيمة كبيرة ذات أعمدة .

(٢) كرى : من الكر وهو الجرى ، والمضاف : اللاجئ أو المستنجد والمجنب (بكسر النون المشددة) المنحى من شدة للضعف أو الخوف وسيد الغضا (بكسر السين) هو الذئب المختفى وراء الأشجار استعداداً للهجوم على فريسته . وذى السورة ، معناه ذو الغضب الشديد . والمتورد : أى الوارد على عجل . .

والمعنى : إن الشئ الثالث من الأشياء التى يعيش من أجلها وثوبه لنجدة من يستنجد به كما يشب الذئب على فريسته .

فريسته بكل عنف . ذلك إذن هو المثل الأعلى للرجل العربي في العصر الجاهلي .

أما المثل الأعلى الذي رسمه القرآن للرجل المسلم فإنه يظهر في آيات كثيرة ليس من السهل أن نحصرها ، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » ، ومعنى ذلك أن المثل الأعلى للرجل في الإسلام هو مخافة الله تعالى مخافة تحول بينه وبين معصية الله ورسوله ، وقوله تعالى يشرح معنى التقوى التي هي المثل الأعلى : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » .

الحق لقد كان الاسلام في ذاته ثورة كبيرة ، وكان لابد لهذه الثورة أن تكون مقرونة بطائفة من القيم الجديدة والمفاهيم الجديدة ، ومثل جديدة يقوم عليها المجتمع الجديد ، ويصبح بها مغايراً كل المغايرة للمجتمع الذي سبقه إلى الوجود ، وهو المجتمع الجاهلي .

* * *

يقول الأستاذ توماس أرنولد في كتابه (الدعوة الاسلامية) (١) .
إن دعوة محمد كانت تعارض كثيراً ما كان ينظر إليه الغريب نظرة ملؤها التقدير والإجلال حتى ذلك الحين . كما كانت تعلم حديثي العهد بالإسلام أن يعدوا من الفضائل صفات كانت قبل إسلامهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار . كان العربي يتباهى برد الشر بالشر ، وينظر إلى كل من يسلك خلاف ذلك نظره إلى كل نذل ضعيف .

(١) الدعوة إلى الإسلام ، تأليف أرنولد — وترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ، وإسماعيل النحراني . الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨ ص ٦٢ .

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يرجى الفتى كيا يضر وينفعا
ولقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم أمثال هؤلاء بقول القرآن
الكريم « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ».

وكان مجرد فرض الصلاة مشار سخرية من هؤلاء العرب الذين يوجه
إليهم محمد رسالته أول الأمر ، وكان من أشق مراحل رسالته أن يوجه
تفكيرهم وجهة دينية نحو الخالق فلم يكن هذا الشيء معروفا لدى الوثنيين من
العرب ، ولذلك لم يكونوا مهيبين كل التهيؤ لتلقى تعاليم الرجل ، ولم يعد هؤلاء
يحتملون هذه القيود التي جد الإسلام في فرضها على حريتهم فالخمر والنساء
والغناء كانت من أحب الأشياء إلى قلب العربي في الجاهلية ، وكان النبي
صلى الله عليه وسلم صارما شديدا في نواحيه الخاصة بكل منها .

وهكذا حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذي يقوم على الدعوة
ويسعى لجذب قلوب الناس وتحويلهم إليه وحشهم على الدخول في زمرة
أصحابه .

كل ذلك بطبيعة الحال كان بفعل القرآن الكريم الذي وضع الأساس المتين
للمجتمع الإسلامي الجديد ودعا محمد أصحابه إلى التعاون معه في هذا البناء .

* * *

وهدف آخر من أهداف القرآن الكريم ، في ميدان الدعوة لهذا
الدين الجديد ، هو تحريض المؤمنين على قتال المشركين حتى ينطلقوا « بشهادة
« أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » فإذا رفضوا أن يقولوها وجب
على المسلمين أن يقاتلوهم ، وهذا معنى قولنا في أول هذا الكتاب أن الإسلام
كان ثورة كبيرة ودعوة جديدة اعتمدت في نجاحها على وسيلتين كبيرتين هما ،
الكلمة من جهة والسيف من جهة ثانية ، وقد اعتمد الرسول الكريم على
الكلمة وحدها في العهد المكي . فلما انتقل إلى المدينة المنورة أمره الله تعالى
بأن يعتمد عليها وعلى السيف معاً .

(م ٤ — الإعلام في صدر الإسلام)

ولعل من أخطر القيم أو المفاهيم التي بنى القرآن عليها صرح المجتمع الإسلامي الجديد مفهوم الجهاد في سبيل الله وهذا الجهاد في ذاته من أكبر وسائل الإعلام والدعوة إلى الدين الجديد ، وكتاب الله زاهر بالسور والآيات التي تدعو المسلمين إلى القتال باعتباره إحدى الدعامين اللتين قام عليهما الإسلام . من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » ،

وقوله تعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » ، الخ .

وقوله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

وقوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

إن الروح المعنوية بين المسلمين كانت تملأ بهذه الآيات إلى الدرجة التي كانوا فيها يتسابقون إلى الموت في سبيل الله وإلى الدرجة التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في غير عهد النبي ﷺ .

* * *

إننا لانستطيع ولو حرصنا أن نحصى القيم والمفاهيم الجديدة التي أتى بها القرآن الكريم التي بنى عليها النبي هذا المجتمع الإسلامي بناء سليماً ، ولكننا لا نستطيع أن نترك الكلام عن هذه القيم والمفاهيم دون الإشارة إلى مفهوم الشورى .

قال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » معنى ذلك أن العصمة لا تكون لبشر ولو كان هذا البشر نبياً من الأنبياء أو رسولا من الرسل ، ومحمد معصوم من الخطأ في تبليغ الرسالة ولكنه ليس معصوماً عند الاجتهاد في الرأي .

أذن الرسول لبعض المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك فعاتبه الله على ذلك في قوله تعالى ، « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » .

الخلاصة :

إن النبي ﷺ كان على سمو منزلته ، وكمال عقله وخلقه معرضاً للخطأ لأنه بشر وكان بحاجة إلى الرجوع في كل أمر من أموره إلى أصحابه يقف على آرائهم ويوازن بينها بعقله ، ثم يأخذ بالأمثل في نظره من هذه الآراء ، وكان لا يمنع خطأ واحد من أصحابه في الرأي من أن يعود إليه بالمشورة في المرة الثانية ، وهذا ما عناه القرآن كما سبق ذكر ذلك - بقوله تعالى : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » .

الحق - لقد كانت حياة النبي من أول الرسالة إلى آخرها تشاوراً بينه وبين كبار الصحابة ، وكان النبي لا يهمل مع ذلك آراء غير الكبار من الصحابة ،

فهذا رأى لبعض المسلمين العاديين يظهر على بقية الآراء في غزوة بدر ، فقد خرج رسول الله في ذلك اليوم واختار هو وكبار الصحابة موضعاً معيناً لهم ولبقية الجيش ، فقال « الحباب بن المنذر » للرسول ﷺ : أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال له رسول الله : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . فقال الحباب : يا رسول الله - فإن هذا ليس لك بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزل ، وتردم الآبار ، وتبنى لنا حوضاً نملؤه بالماء فنشرب ولا يشربون ، ففعل رسول الله ما أشار به الحباب ،

وفي غزوة الخندق أو الأحزاب أشار سلمان الفارسي على رسول الله ﷺ

أن يحفر خندقاً حول المدينة ليدراً عنها الخطر . فعمل الرسول بمشورته واشترك بنفسه في هذا الحفر .

وأنى الخلفاء الراشدون فأرسوا قواعد الشورى وكان أحدهم لا يقطع بأمر حتى يرجع فيه إلى أهل (الحل والعقد) من كبار الصحابة، ومن ذلك أن اختيار أبي بكر أو عمر لعماله (أى لأمرء الأقاليم) كان يقوم على أساس من تقديم الرأى أو تقديم المشورة . قال عمر ذات يوم لأصحابه (أشيروا على ودلوني) على رجل أستعمله فى أمر قد دهمنى فقولوا ما عندكم فإنى أريد رجلاً إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم ، فقالوا نرى لهذه الصفة « الربيع بن زياد الحارثى » فنشير على أمير المؤمنين به فاستدعاه عمر فولاه ووفق فى عمله وحقق ما أراد عمر .

* * *

وقيمة كبيرة ومفهوم عظيم من المفاهيم التى بنى عليها القرآن بناء المجتمع الإسلامى الجديد - هو المفهوم الذى يتصل بعلاقة الحاكم بالمحكوم ، وهى علاقة تتلخص فى أول كلمة قالها أبو بكر بعد توليه الخلافة : - « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ورسوله فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم » ، وعلى نفس الطريقة سار عمر بن الخطاب فى خلافته، وهو القائل : « ومن رأى فى اعوجاجا فليقومه » فرد عليه أحد الجالسين فى المسجد : والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحمد سيوفنا .

كان عمر بن الخطاب يشتغل يوماً بتقسيم بعض الغنائم فإذا بعض الحاضرين يقف بينهم ليقول : اتق الله يا عمر، فغضب الحاضرون لقوله هذا واستكثروا على أمير المؤمنين أن يقال له هذه الكلمة . فما كان من عمر إلا أن قال لهم : دعوه يقولها فلا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا ولا خير فينا إذا لم نتقبلها منكم .

وهكذا قامت العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى الإسلام على هذه القاعدة،

وهى قاعدة العدل ، فإذا وقع شيء من الجور - وإن كان قليلا ، وجب على المسلمين أن يكلموا فيه الحاكم ويمنعوه منه فإن اقتنع ورجع إلى الحق وأقام الحدود فلا يخلع ولا يخل خلعه ، وإن امتنع عن إقامة الحدود وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » (١) .

وهل نستطيع أن نترك القيم القرآنية والمفاهيم الإسلامية دون أن نقف وقفة عابرة عند مفهوم التكافل الاجتماعي . ولعل من مظاهر التكافل الاجتماعي في الإسلام علاقة المسلم بالمسلم وعلاقة المسلم بالجماعة وعلاقة الرجل بزوجه وعلاقة الفرد بأفراد أسرته ، وقد حرص القرآن والحديث جميع المسلمين على أن يتنازلوا عن بعض حقوقهم لمصلحة الآخرين ، بل يتنازلوا عن حريتهم الفردية في سبيل الجماعة ، ومن الشواهد على ذلك في الإسلام نظام الوراثة ، وذلك بين الأصول والفروع بلغة الفقهاء ، أو بين الأقارب - أقارب العصب ، وأقارب الحواشي ، فنظام التوارث عبارة عن التكافل الاجتماعي ، بين الأجيال المتعاقبة وبين أفراد الأسرة الواحدة ، وهو نظام تقول به الغرائز الإنسانية ، وتحتّمه الضرورات الاجتماعية ، وتشجع عليه محبة الآباء لأبنائهم .

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس . إن نظام التكافل الاجتماعي يوجب على كل فرد في المجتمع الإسلامي مراعاة صالح الجماعة التي يعيش فيها كمراعاة صالح نفسه سواء بسواء . قال رسول الله ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) .

وقال رسول الله ﷺ . « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا

(١) ابن حزم ، في الملل والنحل ج ٤ ص ١٧١ إلى ١٧٦ :

نخرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً» (١) .

لقد حث القرآن كما حض الحديث على أن يرعى كل مسلم مصلحة المسلم سواء كان أخاه أو أباه أو أمه أو أخته أو زوجته أو خادمه ، ولا أدل على هذا المعنى الأخير من معانى التكافل الاجتماعى الذى دعا إليه القرآن والحديث من قوله ﷺ . « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

أجل لسنا فى مقام الإحصاء الدقيق للمفاهيم الجديدة التى أتى بها القرآن الكريم ، ولكننا نلأم إذا أهملنا الحديث عن « مفهوم المساواة فى الإسلام » على النحو الذى شرحه لنا الكتاب الذى نزل على النبي ﷺ .

والإسلام دين جاء بتحريم التفرقة العنصرية أو الجنسية أو التفرقة على أساس المال أو الجاه أو السلطان ونحو ذلك .

والرسول نفسه — رغم أنه المثل الأعلى فى سمو الأخلاق بشهادة القرآن الكريم كان بحاجة إلى طريقة ترشده أو درس يتعلمه فى هذا المفهوم الجديد ، وهو مفهوم المساواة ، وقد تولى القرآن إرشاده إلى هذا المعنى وأعطاه هذا الدرس ، يدلنا على ذلك حادثان حدثا للرسول الكريم فى حياته بمكة .

الأول : حكايته مع الأعمى . فقد كان الرسول يدرك جيداً أنه إذا نجح فى إقناع السادة والأشراف من قريش بصدق دعوته جاء إقناع بقية أهل مكة وبقية الأفراد فى القبائل العربية بهذه الدعوة ، وهى حقيقة من الحقائق التى يعترف بها (رجال الاعلام) . وما زال يؤخذ بها إلى يومنا هذا ، وقد كان الرسول مشغولاً فى يوم من الأيام بإقناع بعض السادة من قريش ، وإذ ذاك دخل عليه شاب أعمى من فقراء مكة يقال له (عبد الله بن أم مكتوم) وسأل الرسول أن يعلمه مما علمه الله . فما كان

(١) روى هذا الحديث بصورة كثيرة ، وكلها ترمى إلى معنى الحرية المحدودة بمحدود المسئولية الاجتماعية والتكافل الاجتماعى :

من الرسول — بحكم أنه بشر — إلا أن عبس في وجهه وهو يعلم علم اليقين أن هذا الشاب لم ير شيئاً من هذا العبوس ، غير أن السماء رأت هذا العبوس من النبي ولا مته عليه ، وفي هذا نزلت سورة عبس (عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى) .

والثاني : من هذين الحادتين اللذين وقعا بمكة ، أن نفرا من أشرفها وسادتها ذهبوا إلى رسول الله في مجلسه وصارحوه بقولهم : يا محمد إننا نريد أن نستمع إليك وننظر في دعوتك ولا يمنعنا من ذلك إلا جلوسك إلى هؤلاء العبيد الذين يحيطون بك وهؤلاء الفقراء الذين لا يليق بنا أن نجلس معهم جنباً إلى جنب ، وقد جئنا إليك لتدبر لنا مجلساً لا يكون فيه واحد من هؤلاء الفقراء أو العبيد ، ولحرص النبي على أن يؤمن بدعوته سادة قريش وسراهم وقد تهيئوا — في نظره — لشيء من ذلك ، ولأن عمر بن الخطاب استحسن هذا الرأي وأشار على النبي بأن يعمل به من أجل الدعوة ، أظهر النبي لهم شيئاً من القول . لهذا أجمعوا على طلبه وكاد يهيء لهم هذا المجلس بالصورة التي سألوها منه ، ولكن السماء لم تسمح بهذه الصورة التي تتم عن التمييز بين البشر على أساس لا يرضاه الإسلام فلا يميز بين الناس إلا على أساس التقوى .

ولذلك نزل القرآن الكريم بقوله تعالى مخاطباً الرسول :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » . الخ (١) .

من هذه الآيات وأمثالها تعلم الرسول — وتعلم الصحابة — كيف تكون

المساواة التي يدعو إليها القرآن فمارسها الرسول في حياته ، ومارسها الصحابة في حياتهم ، ونجح الجميع في تثبيت هذه الصورة في أذهان المسلمين ، وتاريخ الصحابة حافل بالأمثلة على هذه الحقيقة وإن كان عمر أشدهم استمساكا بهذه المساواة على أكمل صورها - كما شهد بذلك التاريخ ، وربما أتينا بشواهد على ذلك عند الكلام في عهد عمر بن الخطاب في الباب الرابع من أبواب هذا الكتاب بمشيئة الله تعالى .

* * *

وأخيراً نأتى إلى مادة من مواد الإعلام في القرآن ، ونعنى بها المادة التي تتحدث عن الجنة والنار ، وفيها أوصاف كثيرة لما أعدّه الله لعباده المؤمنين من نعم كبير في الجنة ، وما أعدّه الله تعالى للكافرين من العذاب في النار .

والجنة والنار واليوم الآخر أو يوم الحساب كلها أمور غيبية أخبر بها الرسول الكريم وعنيت بها الكتب السماوية كلها على السواء ، وليس هذا هو موضع بحثنا الآن ، ولكن موضوع البحث هنا هو (القيمة الإسلامية) لهذه الأوصاف التي وصف بها القرآن - بنوع خاص - كلا من الجنة والنار ، فإلى أى حد تأثر المسلمون بهذه الأوصاف ؟ وإلى أى حد ترك ذلك أثره في سلوكهم مع الرسول ومع الصحابة إذ ذاك ؟

من الصعب علينا في الواقع أن نحصى الآيات التي جاءت بأوصاف الجنة والآيات التي جاءت بأوصاف النار ، ولكن يكفي أن نذكر أن من أوصاف الجنة أنها كبيرة ومتسعة (عرضها كعرض السموات والأرض) وأنها تحوى من أنواع النعيم والملاذات (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) فيها حور عین ، وولدان مخلصون ، وأكواب وأباريق وكأس من معين ، وأنهار من لبن وأنهار من عسل مصفى ، وغير ذلك مما تشتهى النفس البشرية من ألوان الشراب والطعام إلى آخر هذه الأوصاف التي حفل بها القرآن الكريم والتي قلنا إننا لا نستطيع ولو حرصنا أن نحصى بعضها في هذا الفصل ، ترى ماذا كان لهذه الأوصاف من أصداء في

نفوس المسلمين منذ قرأ عليهم الرسول هذه الآيات ؟ لقد أخبرنا التاريخ أن المسلمين الذين سمعوا هذه الآيات تبدل حرصهم على الحياة وتقديرهم لها سخرية بهذه الحياة وبيعاً لها في سبيل الله تعالى ، وهذا هو السبب الذي من أجله تسابق المسلمون الأولون في ميدان الاستشهاد أو الجهاد في سبيل الله .

ولماذا لا يتسابقون إلى ذلك ! ألم يعدهم الله بأنهم سينتقلون من هذه الحياة الدنيا إلى حياة أفضل منها ، وأنهم سيبدلون بهذه الأعمار القصيرة أعماراً طويلة لا يذوقون فيها طعم الموت ولا طعم العذاب الذي وجدوه في الدنيا ؟

إن رجل الإعلام إذا نظر إلى هذه المادة من مواد القرآن وإلى التأثير الذي أحدثه في نفوس الناس عندما أصبحت هذه المادة جزءاً من نسيج عقولهم وشيئاً يمتزج بأرواحهم ودمائهم لا يحق له أن يهمل الحديث عنها أو التنويه بها ، والتاريخ حافل بآلاف الشواهد على المسلمين والمسلمات وعلى الرجال والصبيان الذين يتسابقون إلى الاستشهاد في سبيل الله حتى لقد أقبل على الجهاد من أعفاهم الله من عبء الجهاد ، فقد قال الله تعالى (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) ومع ذلك فقد كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج وله أربعة أولاد وكان لهم جميعاً شرف الغزو مع رسول الله فلم يكتف أبوهم بذلك حتى ذهب واستأذن رسول الله في أن يخرج مع أولاده للغزو ليكون له شرف الاستشهاد في سبيل الله فأحاله الرسول إلى قوله تعالى : (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج) وألح الرجل أن يخرج إلى الغزو في سبيل الله وهو أعرج فلم يسمع رسول الله إلا أن أذن له .

ويحدثنا التاريخ كذلك عن أمهات وزوجات كن ينافسن أولادهن وأزواجهن على بلوغ هذا الشرف ، حتى لقد كانت واحدة من أولاء تدافع عن الرسول في غزوة أحد ، وقد أحرق به المشركون يريدون

قتله ، وكانت الفرصة مواتية لهم للإقدام على هذا العمل ولكن قوة الإيمان عند بعض الصحابة إذ ذاك ، ومنهم هذه السيدة - هي التي حمت الرسول من هذا المصير :

وقل مثل هذا في كثير من الصبية الذين تطوعوا للقتال في صف الرسول قبل أن يبلغوا الحلم ، ويقدرُوا على حمل السيف أو الرمح ، وكان الغلمان والصبية يفعلون ذلك بوازع من ضمائرهم وإيمانهم أولاً ، وبدافع من أمهاتهم المسلمات بعد ذلك .

ولا يسمح لنا المجال في هذا الفصل أن نترسل في ضرب الأمثلة والإتيان بالشواهد الكثيرة التي تدل دلالة كبيرة على القيمة الإعلامية لهذه المادة من مواد القرآن - ونعني بها الأوصاف الممتعة أو المذهلة التي وصف بها الجنة والنار :

وهكذا نرى أن القرآن الكريم كان ضرباً رائعاً من ضروب الإعلام على يد رسول الله الكريم ، بما أتى به من قيم ومفاهيم جديدة تختلف كل الاختلاف عن القيم والمفاهيم في عصر الجاهلية : بل كان من أنجح وسائل الإعلام في الإسلام على وجه الإطلاق .

الفصل الثاني الأحاديث النبوية وقوتها الدعائية

كان رسول الله ﷺ معلم هذه الأمة ، وكان قبل ذلك داعية لهذا الدين الذي دخلت فيه هذه الأمة ، ومن أجل هذا حملت خطب النبي ﷺ وأحاديثه طابعين في وقت معاً ، وهما :

- ١ - طابع التعليم والإرشاد والهداية .
- ٢ - طابع التبشير والدعوة أو الدعاية .

والطابع الأخير هو الذي يعنينا في هذا الفصل ، ولعل أكبر شاهد على هذا الطابع أحاديثه ﷺ في موضوع الجهاد ، والجهاد كان ولا يزال من أقوى وسائل الدعوة الإسلامية ومن أعظم أسباب انتشارها - كما نعلم ، ومن أبواب الفقه الإسلامي باب يسمى باب الجهاد - نوه فيه الفقهاء بأجر المحاهدين في سبيل الله ، واعتمدوا في ذلك على كثير من آيات الكتاب الكريم وعدد عظيم من الأحاديث النبوية .

وفي كتب الحديث طائفة صالحة من كلام الرسول في هذا الباب ، فإذا رجعنا إلى كتاب « مفتاح كنوز السنة » للعالم الهولندي ونستك^(١) وجدنا للبخاري خمسة وخمسين حديثاً في هذا المعنى . ولمسلم تسعة وستين ، ولترمذي خمسة وأربعين ، ولأبي داود ثمانية وثلاثين . وللنسائي واحداً وخمسين . ولابن ماجه اثنين وثلاثين .

وهؤلاء هم أشهر من جمعوا حديث رسول الله ﷺ ، وهم خير من تحروا في جمعه كل الصدق والدقة وتحملوا في سبيله كل ما يمكن أن نتصوره من تعب وكد ومشقة .

(١) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد فؤاد عبدالباق ، راجع باب الجهاد

ومن هذه الأحاديث على سبيل المثال (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها) .

ومنها : (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهد في سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض) .

ومنها : جاء رجل إلى النبي صلى عليه وسلم فقال : « يا رسول الله ما القتال في سبيل الله ؟ فإن أخذنا يقاتل غضباً ويقا تل حمية ، فرفع إليه النبي ﷺ رأسه وقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل » .

وفي الحديث الأخير ما يدل على اختلاف مفهوم القتال في الجاهلية عنه في الإسلام . فالقتال في الجاهلية عن حمق وحمية وعصبية ، والقتال في الإسلام عن رغبة صادقة في إعلاء كلمة الله واعتقاداً بوجوده ، ومن أحاديثه صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يغز أو يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق » .

وخرج رسول الله على جماعة من المسلمين فيهم ابن عباس . فقال : (ألا أخبركم بخير الناس منزلة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : رجل ممسك برأس فرسه في سبيل الله حتى يموت أو يقتل) .

ومن أحاديثه ﷺ في هذا المعنى كذلك : (من شاب شية في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة) .

ومن أشهر أقواله ﷺ (الجنة تحت ظلال السيوف) .

* * *

الحق أن كل واحد من هذه الأحاديث وأمثالها كان بمثابة « شعار » للثورة الجديدة التي أتى بها الإسلام ، ونحن نعلم أنه لا غنى لكل ثورة عن الشعارات ، ووظيفة الشعار في كل ثورة هي تلخيص العمل الذي جاءت من أجله أو الأفكار التي أتت لإعلانها والمناداة بها ، ومن أجل

ذلك نرى كل زعيم من الزعماء في كل ثورة من الثورات يجتهد في صياغة هذه الشعارات ويحاول بعد ذلك أن يرددها ، ويكثر من ترديدها بين الناس حتى يحفظها الناس عن ظهر قلب . وبذلك تصبح لهذه الشعارات قدرة كبيرة على الإيحاء ، وعليها يعتمد الزعماء في إذكاء شعور الجماهير وفي سرعة اعتناقهم للفكرة الجديدة أو العقيدة الجديدة أو الدعوة الجديدة .

من أجل هذا وجدنا في أحاديث الرسول الكريم مادة قوية تصلح لكل ثورة من الثورات الإسلامية ، فلم يكدمر بالمسلمين عصر من العصور ينتقلون فيه من دور إلى دور ، أو من نظام إلى نظام ، ومن خلافة إلى خلافة أو من ملك إلى ملك : أو من مذهب إلى مذهب إلا واعتمدوا فيه اعتماداً قوياً على الأحاديث النبوية ، وأخذوا منها ما يتفق ودعوتهم أو فكرتهم ومذهبهم ، ذلك أن الشعب الإسلامي لا يسمع حديثاً من أحاديث النبي ﷺ إلا وترك في نفسه من الأثر العميق ما لا تتركه وسيلة أخرى من وسائل الاعلام أو الإرشاد وذلك باستثناء القرآن الكريم .

وهذه حقيقة ثابتة لا تختمل الجدل ولا يرقى إليها الشك .

ألا ترى أن الأئمة في جميع المساجد بالبلاد العربية في وقتنا هذا يسلحون أنفسهم ويملأون خطبهم بمثل هذه الأحاديث في معنى الجهاد ضد إسرائيل؟ ولو نخلت خطبة من الخطب الدينية من بعض هذه الأحاديث النبوية قلت قيمتها وانصرف الناس عنها .

ولنستطرد قليلاً فنقول إنه لعل من أبرز الأدلة التاريخية على استغلال الأحاديث النبوية ما قامت به الخلافة الأموية ، ثم الخلافة العباسية ، ثم الخلافة الفاطمية ، من الاعتماد في دعايتها السياسية على هذه المادة .

وسنكتفي هنا بضرب المثل بما فعلته الخلافة الأموية وبما قامت به هذه الدولة من الدعاية القوية ضد الإمام علي بن أبي طالب . فقد روت لنا بعض الكتب الأدبية أن الدولة الأموية عمدت إلى تحريف الأحاديث أو إلى

اختلافها وإسنادها إلى رواية ثقات حتى يصدقها الناس فور سماعها مسندة إلى أولئك الرواة .

ومن هذه الأحاديث التي يشتم منها أنها موضوعة لغرض من الأغراض حديث فيه طعن ظاهر على الإمام علي بن أبي طالب : (روى عن عروة ابن الزبير أنه قال : حدثتني عائشة أم المؤمنين أنها قالت : كنت عند رسول الله ﷺ إذ أقبل العباس ، وعلى ، فقال النبي ﷺ يا عائشة إن هذين (يشير إليهما) يموتون على غير ملتي) (١) ،

وأغرب من هذا وذاك أن في هذه الكتب رواية عن معاوية بن أبي سفيان تقول إن معاوية بذل لسمره بن جندب مائة ألف درهم ليقرأ الآية الكريمة : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » وأمره معاوية أن يقول إنها نزلت في علي (٢) ثم أمره معاوية بعد ذلك أن يقرأ الآية :

« ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله » ويقول إنها نزلت في عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي ، ولكن الفقيه سمره بن جندب لم يقبل ذلك ، فبذل له معاوية مائتي ألف درهم فلم يقبل ، فبذل له معاوية أربعمائة ألف درهم فقبل : وكان لكل شرف نقطة انصهار - كما يقول الإنجليز - ودرجة الانصهار عند هذا الفقيه وصلت إلى هذا الرقم ، ومن حق المؤرخ أن يشك في هذه الروايات وأمثالها - مما نسجه الخيال حول معاوية ولكنها في نظر رجل الإعلام والدعاية لا تخلو مطلقاً من دلالة ، وهي أن رجال السياسة في تلك العصور كانوا يلجأون إلى طرق كثيرة لكسب الجماهير إلى جانبهم ، ومن هذه الطرق تفسير القرآن بما يناسب دعوتهم :

ومن هذه الطرق أيضاً تحريف الأحاديث أو اختلافها بحيث تدخل

(١) كتاب شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١ ص ٥٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٥٨ .

في روع الجماهير أن القادة أو الساسة على حق وأن خصومهم على باطل
وهنا يظهر الفرق واضحاً بين الدعاية البيضاء والدعاية السوداء .

فالدعاية البيضاء تقوم على أهداف شريفة وتستعين على غاياتها
بالأحاديث الصحيحة .

أما الدعاية السوداء فإنها تبيح لنفسها تحريف الأحاديث واختلاقها
وتفسير الصحيح على غير الوجه الذي قيلت فيه :

وقد كان معاوية يحس إحساساً قوياً بحاجة إلى تثبيت ملكه وتأييد
سلطانه والدفاع عن هذا السلطان ضد هذه الشخصية الرهيبة التي لا يمكن
التغلب عليها بالطرق المستقيمة وهي شخصية على بن أبي طالب .

فنحن وإن كنا لا نميل إلى تصديق الروايات التي نقلناها عن ابن أبي
الحديد فإننا نضع في اعتبارنا معنى لامفر منه وهو كراهية الشيعة لمعاوية بن
أبي سفيان ، ومن الجائز أن تكون هذه الكراهية هي التي حملتهم على نسبة
هذه التصرفات إلى معاوية .

مهما يكن من شيء فإنه إذا صحت هذه الروايات فإنها تذكر رجل
الإعلام والدعاية بالمساومات التي تحدث أحياناً بين بعض أصحاب الصحف
من جهة وكبار المعلنين والساسة المغرضين من جهة ثانية ،

فإذا جاء أحد من الساسة أو الرأسماليين وعرض على صاحب جريدة
من الجرائد مائة جنيه لكي يتنازل عن نشر مقال من المقالات التي تحارب
سياسته أو تضر برأسماله فإنه لا يقبل هذا المبلغ ، فإذا عرض عليه السياسي
أو المعلن مائتين فإنه لا يقبل أيضاً وتمضى المساومة بينها حتى يعرض
السياسي أو صاحب رأس المال مبلغاً يقرب من ألف جنيه فإن صاحب
الجريدة في هذه الحالة قد يقبل ؛ وهذا هو سلطان رأس المال على الصحافة
وبهذه الطريقة كان الملوك والولاة والحلفاء في بعض عصور الإسلام
يتغلبون على الفقهاء وهم الذين يمثلون الرأي العام الإسلامي يستعبدونهم بالمادة
ويشترون ضمائرهم بالمال ويستخدمونهم لتحقيق أغراضهم بمثل هذه الطرق .

وإن الفقهاء في تلك العصور الماضية كانوا كالصحفيين في الوقت الحاضر ، منهم من كان له ضمير حي وخوف صحيح من الله ورعاية تامة لمصالح الرعية وشجاعة نادرة في مجابهة السلطان ، ومنهم من كان رقيق الدين غير مكترث بمصالح المسلمين فهو لا يرغب في أن يقوم بالواجب الذي فرضه عليه الدين والضمير .

لقد استطردنا في الكلام عن الأحاديث النبوية وطرق استغلالها في الأمور السياسية لنقدم الأدلة الواضحة على أن لها قدرة دعائية ازدادت مع الأيام قوة .

غير أننا يجب أن نقول في هذا الفصل أن الأحاديث النبوية كانت تتمشى مع الدعوة الإسلامية ومع القرآن ، وذلك في عهد الرسول وفي عهود الخلفاء الراشدين ، وأنها كانت قوة هائلة في نشر الدين والعمل بالقرآن وذلك ، على الوجه الذي لا نظير له في أية فترة أخرى من فترات الإسلام .

ذلك أن الرسول ﷺ كان في جميع أحواله ، وفي كل ما ينطق به من أقوال وأحاديث يمثل القرآن الذي نزل عليه وصدقت السيدة عائشة أم المؤمنين حين سألت عن خلق الرسول فقالت ﷺ « كان خلقه القرآن » .

ونختم الكلام عن الحديث بهذه العبارة التي أوردتها الأستاذ (١) أحمد أمين وفيها ، يقول : وبعد — فقد كان للحديث — سواء منه ما كان صحيحاً أو موضوعاً — أكبر الأثر في نشر الثقافة في العالم الإسلامي . فقد أقبل عليه الناس يتدارسون إقبالا عظيما وكانت الحركة العلمية في الأمصار تكاد تدور عليه .

وعن طريق الحديث انتشرت في العالم الإسلامي أنواع من الثقافة

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٧٦

عدة : فالتاريخ الاسلامى بدأ بشكل الحديث . . وقصص الأنبياء وما إليهم ، جاءت فى القرآن وتوسع فيها أصحاب الحديث . ثم توسع فيها القصاص ، وظهر القصص ومعه الحكم وقواعد الأخلاق وشيء من فلسفة اليونان والهند والفرس ، ووضعت كل هذه المواد وضعاً فى الحديث وانتشرت بين الناس على أنها دين . فكان لها من الأثر فى الناس ما ليس للتعاليم الدنيوية ، وفوق ذلك كان الحديث منبعاً للتشريع والمسائل المدنية والجنائية ، وعلى الجملة فقد كان الحديث أوسع مادة للعلم وللثقافة فى ذلك العصر .

أجل ، كان الحديث أوسع مادة للعلم والثقافة وقد أثبتنا فى هذا الفصل كيف أن الحديث كان — إلى جانب هذا وذاك — أوسع مادة للدعاية . فقد اعتمد عليه الحكام فى الترويج لسياساتهم ، كما اعتمد عليه أهل المذاهب الدينية لنشر مذاهبهم ، ومن هنا كثر فيه الوضع ، وذلك تبعاً لكثرة الدواعى التى دعت إلى هذا الوضع .

الفصل الثالث القدوة الحسنة

والقدوة الحسنة مبنية على غريزة من غرائز الإنسان هي غريزة التقليد أو المحاكاة ، وهذه الغريزة الإنسانية تأثير فعال في ميدان الإعلام وميدان الإعلان وميدان التربية والتعليم على السواء ، ولذلك يعتمد عليها رجال هذه الميادين كلها بدون استثناء ، فالمربون والمعلمون في جميع مراحل التعليم يسوقون إلى الشباب أمثلة كثيرة للبطولة والأبطال . وذلك في كل مجال من مجالات العمل والكفاح ، كمجال العلم ومجال الكشف ، ومجال الأدب ، فضلاً عن مجال الحرب والجهاد .

والمعلنون ورجال التسويق يجذبون الناس إلى بضائعهم بطرق الإعلان المختلفة ، ومنها طريقة الترغيب في هذه السلعة أو تلك - ولتكن نوعاً من المنسوجات بأن فلاناً من العظماء أو اللامعين في المجتمع يؤثرونها على غيرها من الأنواع الأخرى .

ورجال الإعلام - هم الذين يقومون بتزويد الناس بالحقائق السليمة والمعلومات الصحيحة - ينظرون إلى القدوة الحسنة على أنها وسيلة من وسائل الإعلام تغني في ذاتها عن بذل الجهود الإعلامية في سبيل دعوة ينشرونها أو فكرة يدعون إليها أو عقيدة أو سياسة جديدة ينشرون بها ونحو ذلك ، وسنرى في تاريخ الإعلام في صدر الإسلام أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن الصحابة رضوان الله عليهم كان من أنجح أساليبهم في نشر الدعوة الإسلامية أسلوب (القدوة الحسنة) .

وفي ذلك يقول القرآن الكريم « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » وهذا ما فعله الصحابة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، ثم هذا ما فعله بقية أصحاب الرسول من أمثال

عبد الرحمن بن عوف وغيره ممن كانوا مثلاً أعلى في مجال القدوة الحسنة ،
ولانبالغ إذا قلنا أن تاريخ الرسول والخلفاء الراشدين من بعده وتاريخ الصحابة
رضوان الله عليهم كان ينحصر في هذا المعنى .

لقد أثبت التاريخ أن الرسول كان مضرب المثل في معاملة المسلمين
وغير المسلمين .

وفي ذلك يقول القرآن الكريم في صفة الرسول « وإنك لعلى خلق
عظيم » . كما أثبت التاريخ أن كل واحد من صحابة الرسول كان مضرب
المثل في القيم الجديدة التي دعا إليها الدين الجديد ، وفي تحقيق الأهداف التي
رسّمها الرسول .

أجل — فأبو بكر — وكان رجلاً مرموقاً في الجاهلية — حين دخل
الإسلام — وهو أول من دخله من الرجال وحذا حذوه كثير من أصحاب
رسول الله ، فدخلوا معه هذا الدين الجديد ، كان قدوة حسنة ، أبو بكر
الصديق حين رأى ما عاناه العبيد من العذاب الشديد على أيدي سادتهم
الذين لم يسمحوا لهم بدخول الإسلام اشتراهم بماله الخاص ، ثم أعتقهم
وتركهم أحراراً في اعتناق الإسلام ، نقول : أبو بكر حين فعل هذا كله كان
بلا ريب قدوة حسنة .

وعمر بن الخطاب حين سمع بأن أخته استجابت لدعوة محمد عليه الصلاة
والسلام غضب لذلك وحمل سلاحه واقتحم عليها بيتها يريد أن يقتلها فوجدها
تقرأ في صحيفة في يدها بعض آيات الكتاب فأخذ الصحيفة من يدها وقرأ
ما فيها فتأثر قلبه ووضع السلاح من يده وذهب مسرعاً إلى الرسول — وكان
يومئذ في دار الأرقم — ودق الباب بعنف فخرج رسول الله بنفسه وحاول
أل يبعده عن الدار ، فأعلن عمر إسلامه وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن
محمداً رسول الله ، فصاح الجميع ! الله أكبر ! الله أكبر ، نقول : عمر
حين فعل هذا كله كان بلا ريب قدوة حسنة .

وعثمان بن عفان حين تبرع بكل ماله لتجهيز حملة أو غزوة من غزوات

الرسول ، فقال له الرسول الأعظم : وماذا أبقيت لأولادك يا عثمان ؟ قال له أبقيت لهم الله ورسوله ، نقول إن عثمان بن عفان حين فعل هذا كله كان بدون شك قدوة حسنة .

وعلى بن أبي طالب حين نام في مكان الرسول ليلة الهجرة من مكة إلى المدينة وخاطر بنفسه وروحه ودمه في تلك الليلة ومكن الرسول وصاحبه أبا بكر من الخروج في جنح الليل وجنود المشركين رابضون على باب المنزل ، نقول : إن على بن أبي طالب حين فعل كل هذا كان بلا ريب قدوة حسنة ، وقل مثل هذا في بقية صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونخص بالذكر منهم العشرة المبشرين بالجنة وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعد بن معاذ ، وأبو عبيدة بن الجراح ، والذي لا شك فيه أن النبي ﷺ بشرهم بالجنة حين رأى بنفسه وسمع بأذنه أن كل واحد منهم كان قدوة حسنة .

ويطول بنا القول لو أخذنا نذكر الأمثلة التي ضربها كل واحد من هؤلاء في مجال القدوة الحسنة وليس ذلك غاية لنا في هذا البحث ، لأن مجاله كتب التاريخ والسيرة وغيرها . المهم أن الرسول وأصحابه نجحوا في ممارسة هذه الوسيلة من وسائل الإعلام والتأثير في نفوس الجماهير كان نجاحهم في الوسيلة لا يقل عن نجاحهم في الغزوات والبعوث وغيرها من الوسائل الإعلامية الأخرى ، وهكذا نجد أن الإسلام قام في حياة الرسول على رقة أبي بكر وعلى حزم عمر وعلى بذل عثمان وعلى فدائية علي بن أبي طالب ، إذ كل واحد من هؤلاء الأربعة كان أمة وحده في مجال القدوة الحسنة وهي القدوة التي اقتدى بها بقية الصحابة أولا — كما اقتدى بها المؤمنون الأوائل بعد ذلك ، وجميع هؤلاء كانوا قدوة حسنة في الجهاد في سبيل الدين ، وذلك في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

القدوة الحسنة وصاحب الدعوة

ولكن مما لا شك فيه أن المثل الأعلى في القدوة الحسنة إنما كان يتمثل في الرسول نفسه ﷺ فقد كان المثل الأعلى في الصبر ، ولذلك تكرر له الأمر من الله تعالى بالصبر وخاصة في العهد المكي قال تعالى : في سورة (ن) وهي السورة الثالثة في تاريخ النزول « فاصبر لحكم ربك » إلخ .

وقال تعالى في السورة الرابعة في تاريخ النزول وهي سورة المزمل « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً » ، والمدقق في السورة النبوية يرى أن النبي ﷺ التزم خطة الصبر في نشر الدعوة وكان أكثر ما صبر عليه في الحقيقة أمران هما :

١ — أذى المشركين في مكة .

٢ — والحرب الباردة بينه وبين المنافقين في المدينة .

أما أذى المشركين في مكة فقد ضاق به صدر الرسول عشر سنوات كاملة ذلك لأنه كان شديد الحرص على هدايتهم. ونزل عليه قول القرآن الكريم « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » ونزل عليه قوله تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، وقوله تعالى : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا » : وقوله تعالى : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين » وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين »

إلى هذا الحد بلغ الغضب والحزن برسول الله ﷺ على إعراضهم عن دعوته ، وإلى هذا الحد شدد الله تعالى في لوم رسوله على هذا الغضب أو الحزن .

على أن الكفار سلكوا كل طريقة ممكنة في رد محمد عن دعوته ولم يبق أمامهم إلا أن جمعوا كبراءهم وعلى رأسهم أبو سفيان وذهبوا للقاء

عمه أبي طالب وقالوا له : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل بآياتنا فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخل بيننا وبينه ، ولكن أبا طالب ردهم ردًا جميلاً وأفهمهم أن التهم التي يوجهونها لمحمد مبالغ فيها فإن محمداً لم يندد بآلهتهم لأن القرآن نفسه ينهى عن ذلك في قوله تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » فلما لم يصل المشركون إلى هدفهم ذهبوا مرة أخرى إلى أبي طالب وقالوا له : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد سألناك أن تنصفنا من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإنا لا نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، حتى تكفه عنا أو ننزله وإياك ، فكانت هذه العبارات بمثابة البلاغ النهائي والإنذار بالحرب القومية أو الفتنة الأهلية التي لا يعلم مداها إلا الله .

فأرسل أبو طالب إلى النبي يقول له : أبق على نفسك وقومك يا ابن أخي ولا تحملني مالا طاقة لي به ، فما كان من النبي إلا أن زادته الأزيمة إيمانا بالله وإصراراً على موقفه من قريش ، واتجه من فوره إلى عمه أبي طالب يقول له (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه) .

فازداد العم تقديراً لابن أخيه ، ووقف إلى جانبه في أخرج ساعات الخطر ، وقال للرسول (اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لن أسلمك لشيء أبداً) .

محمد المثل الأعلى في الصبر على الحرب الباردة بينه وبين المنافقين بالمدينة : على أن شر ما منى النبي به في حياته شيئان هما : النفاق والمنافقون من جهة وترويج الشائعات المضادة من قبل أولئك المنافقين من جهة ثانية ، وقد ضرب النبي أروع المثل في صبره على هاتين الجبهتين ونصره الله في كلتا الجبهتين ، وكان قدوة للمسلمين في هذين الموقفين . وقد تعرض النبي لكل هذا الأذى وهو بالمدينة أي بعد هجرته إليها

من مكة ، وكان بالمدينة رجل أسلم على نفاق — هو عبد الله بن أبي بن سلول ، ويعرف في تاريخ الإسلام بكبير المنافقين ، وكانت له منزلة كبيرة بين قومه حتى ليخيل إلى الناس أنه كان يريد أن يولى أميراً على جميع من بالمدينة ، ولذلك كان يغار كثيراً من الرسول ويحمل في قلبه حقداً دفيناً ضده : وأوضح ما ظهر حقه هذا على النبي ﷺ في حادثتين رواهما التاريخ .

الأولى : حادثة الشائعة الخطيرة التي أشاعها (عبد الله بن أبي) ليفرق بها بين المهاجرين والأنصار في المدينة حتى لا يجد المهاجرون لهم مفرّاً من الخروج بأنفسهم وأهلهم عنها — وتفصيل ذلك أنه حدث أن أجيراً لعمر ابن الخطاب اصطدم بحليف لقبيلة الخزرج فضربه أجير عمر ، فنادى حليف الخزرج : يا معشر الخزرج ، ونادى أجير عمر يا معشر الأنصار وكادت تكون فتنة بين الفريقين فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال دعوة الجاهلية ! فأخبره القوم بما حدث . فقال ﷺ : دعوها فإنها كلمة خبيثة منتنة . . فغضب عبد الله بن أبي — وكان معه جماعة من قومه (أى من قبيلة الخزرج) وفيهم غلام يقال له زيد بن الأرقم ، ثم أخذ عبد الله ابن أبي ينطق بكلمات فيها تعيير للمهاجرين بأن الأنصار آووههم ، ومنها قوله : (والله ما رأيت كاليوم مذلة . . أو قد فعلوها) ؟

نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما أظننا ورجال قريش إلا كما قال الأقدمون في أمثالهم : (سمن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعوا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل (يعنى بالأعز نفسه والأذل النبي) ثم أقبل على من حضره من قومه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديهم لتحولوا إلى غير داركم . .

وسرت الشائعة في أجواء المدينة كالبرق ، فقد ذهب الغلام (زيد بن الأرقم) يبلغ رسول الله بما حدث وما سمع فتغير وجه الرسول وقال : يا غلام

لعلك غضبت منه ؟ قال الغلام : لا . فقال الرسول : لعله أخطأ سمعك ؟ فأصر الغلام على أن نقله صحيح ، ثم زاد على ذلك : وإني لأرجو أن ينزل الله على نبيه ما يصدق حديثي .

وكان عند الرسول عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله مر عباد بن بشر فليقتل عبد الله بن أبي ، فقال الرسول : كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟

واتسعت الشائعة في المدينة ولم يكن للناس حديث إلا فيها ، فأمر الرسول أن يؤذن للمهاجرين بالرحيل عن المدينة ، وكانت ساعة لم يكن لرسول الله أن يرحل فيها لشدة الحر ، ولكنه ارتحل بالناس ليشغلهم عن الحديث في هذه الشائعة وبذلك يبدد ما كان يخافه من الحرج ، وهدأت النفوس بعض الشيء ، ثم لم يلبث أن نزلت عليه سورة المنافقين وفيها يقول الله تعالى : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون » يقولون لننرجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون .

وإذ ذاك مشى عبد الله بن أبي إلى رسول الله وحلف له بالله أنه ما قال بهذا القول ولا تكلم به ، واعتذر الأنصار لرسول الله واتهموا الغلام أنه لم يحفظ ما قال ابن أبي ، وقال بعضهم للنبي : فأنت يا رسول الله تخرجه من المدينة إن شئت وهو الدليل وأنت العزيز . ثم قالوا له : يا رسول الله ارفق به فلقد جئتنا وإن قومه لينظّمون له الحرز ليتوجوه ما كما وإنه ليرى أنك قد استلبت هذا الملك .

والثانية : من الحوادث التي حقد فيها كبير المنافقين (عبد الله بن أبي ابن سلول) على الرسول وقابلها الرسول بصبر عظيم ، حادثة مشهورة في حياة النبي تعرف بحادثة (الإفك) وقد وجد كبير المنافقين في هذه الحادثة فرصة طيبة لترويج شائعة طعن بها شرف السيدة (عائشة أم المؤمنين) وكانت ساعة

مخرجة لم ير النبي ﷺ في حياته أشد منها . لولا أن الله تعالى نجي الرسول منها وأظهر له الحق فيها ، وذلك حيث قال تعالى في سورة النور : « إن الذين جاعوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاعوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونهم بالتلقون وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » .

هكذا كانت حادثة الإفك وما دار حولها من الشائعات مأساة كبيرة في حياة الرسول ، ولكن الرسول صبر عليها ولم يسيء معاملة زوجته وانتظر حتى جاءه الوحي الذي برأها من هذه التهمة الشنيعة التي لا تتفق وبيت النبوة ، ولا تتفق وسمعة رجل كأبي بكر كان من أشرف الناس في الجاهلية فكيف ينأى عنه الشرف أو ينأى هو عن الشرف في الإسلام .

هكذا كانت الحرب بين النبي والمنافقين حرباً قائمة على الشائعات . ولو نجحت واحدة منها في بلوغ الهدف منها لكانت خطراً على الدعوة وصاحب الدعوة ، وكانت كفيلة بهدم الإسلام في مهده وهدم الرسول في أول مجده ، ولكن الله حماه وحمى دعوته من جميع هذه الشرور والآفات والشرور .

هكذا كان الرسول مثلاً أعلى في القدوة الحسنة لجميع المسلمين . كان مثلاً أعلى في الصبر وفي الحلم ، وهذا كله من حسن سياسته ﷺ ومن توفيق الله له في تأدية رسالته .

ثم هكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يقتدون بالرسول في جميع

أقوالهم وأعمالهم وحركاتهم وسكناتهم ، فكتب الله لهم النجاح في إقامة هذا الدين ثم صيانتة وتثبيتته بكل ما في وسعهم من عزم وإيمان وقوة ثم أتموا نشره بعد ذلك بطريقين هما القدوة الحسنة من جهة والسيف من جهة ثانية .

* * *

لقد قلنا غير مرة أن محمداً عليه الصلاة والسلام ، نشر الدعوة وحارب من أجلها بسلاح الأخلاق قبل سلاح الجند والرمح ولولا حسن الأخلاق لما حظى النبي عندهم — أى العرب — بكل هذا التقدير — حتى من أعدى أعدائه — وهو أبو سفيان — وكثيراً ما سمعنا عن بعض اليهود والنصارى أنهم دخلوا الإسلام لمجرد اقتناعهم بسمو أخلاقه وحسن معاملته وجميل معاشرته وبلوغه في كل ذلك الدرجات العليا من درجات القدوة الحسنة .

إن القدوة الحسنة هي من أنجح الأساليب والوسائل للاتصال بالناس ، ومن ثم وجب على كل زعيم أو حاكم أو قائد أن يكون قدوة طيبة لغيره متى أراد لنفسه النجاح في الفكرة أو العمل الذي جاء يدعو له .

الفصل الرابع

الاتصال الشخصي والجمعي وأثره في نشر الدين وجمع كلمة المسلمين

إن الذي لا شك فيه أن الاتصال الشخصي في ذاته أساس لجميع العمليات الإعلامية من حيث هي ، ومن بينها العملية الإعلامية التي تعرف (بالعلاقات العامة) والعملية التي تعرف (بالإعلان) ولكن الاتصال الشخصي أكثر ما يؤثر في الحقيقة في ميدانين خطيرين هما ميدان الدعوة وميدان الدعاية ، والقدرة على ممارسة الاتصال الذي من هذا النوع شرط في نجاح العمليات الإعلامية التي أشرنا إليها ، ذلك أنه يلعب دوراً خطيراً في الاعلام على جميع المستويات ، ومن الجدير بالذكر أن اتجاهات البحوث الحديثة تؤكد أهمية الاتصال الشخصي وتنسب إليه مقدرة عظيمة على التأثير في الجماهير أكثر بكثير من بقية وسائل الإعلام العامة^(١) .

والمهم في هذا الاتصال هو مدى ثقة الجمهور في مصدر الاعلام، لأن هذه الثقة هي الأساس الذي يبنى عليه الجمهور تصديقه أو عدم تصديقه للرسالة الإعلامية. ويعمل الباحثون من أمثال لازرسفياد وكارتز وغيرهما سر تفوق الاتصال الشخصي في التأثير بأنه « إذا كان من السهل أن ينصرف الناس عن المواد الإعلامية التي لا تتفق مع آرائهم وميولهم فإنه ليس من السهل أن يتجنبوا الحديث مع زميل أو قريب أو صديق لهم وخاصة إذا كان موضوع الحديث غير معروف لديهم سلفاً ، كما يتيح النقاش المباشر مرونة أكبر في عرض وجهات النظر والتأثير في الناس^(٢) .

وربما أنه من أجل ذلك تعب الرسول تعباً شديداً في ممارسة هذه

(١) د. إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير .

(٢) نفس المصدر ص ١٢ .

الوسيلة من وسائل الإعلام مع قومه ومواطنيه في مكة - وغيرها من مدن الحجاز وذلك في العهد الأول من عهود رسالته وهو العهد المكي بالذات ، ذلك أن الرسالة التي جاء بها ﷺ - لقيت نفورا واعتراضاً كبيراً من جانب العرب في مكة ، وإن كانت تربطه بهؤلاء المكيين وشائج القرى لأنهم من قريش ومحمد من قريش ، ومن ثم لم يكن غريباً ما سمعناه عن الأذى الذي لقيه من بعض أعمامه وهو - أبو لهب - وقد بالغ هذا الأخير هو وزوجته في إعنات الرسول حتى نزلت سورة من سور القرآن الكريم في ذمهما ، وفيها يقول الله تعالى :

« تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد » .

وهذا معنى قولنا أن الرسالة الاعلامية لا تؤثر في الأفراد أو الجماعات مباشرة ولكن تؤثر فيهم من خلال قادة الرأي في المجتمع ، وإذا كانت الدعوة الجديدة لا تتفق مع آراء زعماء قريش وميولهم فقد كان من الصعب أن تتأثر بها جموع مكة والطائف وغيرها من المدن في الحجاز ، ومع هذا وذاك فلم ينصرف الرسول في بعض الأحيان عن ممارسة الاتصال الشخصي بهؤلاء القادة والزعماء .

وظفق الرسول يمارس هذه الوسيلة الفعالة في أول الأمر مع العامة والفقراء ، وقد رأى هؤلاء في العقيدة الجديدة تحريراً لأنفسهم من قيود وأغلال كثيرة ، ولم تكن لهم أموال ضخمة يخشون عليها ولا تجارة عظيمة يخافون كسادها ولا زعامات كبيرة يضمنون بها .

وأخذ الرسول يعرض نفسه على القبائل العربية هنا وهناك ويحاول أن يناقش أفرادها سواء كانوا من الأغنياء أو الفقراء وذلك على النحو الذي سنشرحه هذا البحث عند الكلام عن مراحل الدعوة وأسباب نجاحها على يد الرسول .

ومهما يكن من شيء فإن أكثر ما استند الرسول على وسيلة الاتصال

الشخصى كان فى المراحل الأولى من الدعوة وبنوع خاص فى العهد المكي ، ومعنى ذلك باختصار شديد أن وسيلة الاتصال الشخصى كانت أولى الوسائل التى مارسها الرسول فى نشر الدعوة .

لقاء الرسول برجال من الخزرج فى البيعة الأولى

وما دمنا نتحدث عن طريقة الاتصال الشخصى المباشر على يد الرسول فلا ينبغى لنا أن نغفل الحديث عن اتصاله صلى الله عليه وسلم برجال من الخزرج وذلك قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وكان هذا اللقاء عندما خرج الرسول فى موسم من مواسم العرب ليعرض نفسه على القبائل ، وبينما هو عند (العقبة) إذ لقي رهطاً من الخزرج ، وكان الخزرج فى نزاع مستمر مع الأوس فى داخل يثرب ، وكانوا يخرجون من حين لآخر للبحث عن قبيلة من قبائل العرب تعينهم على الأوس ، ووصلوا فى ذلك إلى العقبة ولقيهم النبی هناك فسألهم قائلاً : من أنتم ؟ فقالوا من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . وجلسوا معه صلى الله عليه وسلم ، وعرض عليهم الاسلام وعندئذ ذكروا قول اليهود لهم إن نبياً قد حان وقت ظهوره ، وقد أظلم زمانه وسيتعقبونه ليقتلوه كما قتلت عاد ولهم ، فلما كلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله أنه النبی الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه عليه الصلاة والسلام فيما دعاهم إليه وصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، وقالوا : إننا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك . وسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . ثم قدموا المدينة وذكروا أمر هذا النبی الجديد ودعواهم إلى الإيمان به — حتى إذا كان العام القادم أتى من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوا الرسول (بالعقبة) وكانت البيعة الأولى للنبي ﷺ (١) .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٧١ .

وعن ابن مسعود قال : وعدنا رسول الله ﷺ في أصل العقبة يوم الأضحى ونحن سبعون رجلاً ، فأتانا رسول الله فقلنا ، يا رسول الله: سلنا لربك وسلنا لنفسك وسلنا لأصحابك وأخبرنا ما لنا من الثواب على الله تبارك وتعالى وعليك .

قال : أما الذي أسأل لربي فأن تؤمنوا به ولا تشركوا به شيئاً ، وأما الذي أسأل لنفسي فأن تطيعوني أهدكم سبيل الرشاد ، وأسألكم لي ولأصحابي أن تواسونا في ذات أيديكم وأن تمنعونا مما منعم منه أنفسكم ، فإذا فعلتم ذلك فلكم على الله الجنة . فددنا أيدينا فبايعناه .

من أجل ذلك كان الاتصال المباشر أول خطوة من خطوات العمل الاعلامي الكبير الذي قام به الرسول . بل كان من أخطر هذه الصور الاعلامية على الإطلاق ، وقد التزم الرسول بهذه الوسيلة الخطرة منذ بدء الرسالة إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى .

★ ★ ★

سبق أن ذكرنا في الفصل الذي عنوانه (القرآن أكبر وسائل الإعلام) أمثلة من المساواة ، ومرة أخرى نؤكد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان في ممارسته لهذه الوسيلة من وسائل الإعلام وهي وسيطة (الاتصال الشخصي) لا يفرق بين الأغنياء والفقراء ولا بين العبيد والسادة وقد حدث في مرة من المرات أن اجتمع النبي بسادة قريش يغيروهم بدخول الإسلام وشرح لهم مزايا الدين الجديد ، ثم حدث في تلك اللحظة التي كان فيها النبي مشغولاً بهذه المهمة أن دخل عليه رجل أعمى من عامة الناس هو عبد الله ابن أم مكتوم ولما كان الرسول أهمل هذا الرجل حتى يفرغ من هؤلاء القوم وفي هذا الموقف من مواقف الرسول نزلت سورة من سور القرآن الكريم يعاتب الله فيها الرسول عتاباً كبيراً على إهمال هذا الأعمى بحجة انصرافه إلى أولئك السادة ، وفي ذلك يقول الله تعالى : (عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى فأنت عنه تلهى ... إلخ .

وهذا مثل آخر من أمثلة الاتصال الشخصي المباشر مارس فيه النبي، الوسيلة الاعلامية الخطيرة لغرض آخر علما نشر الدين وهو المحافظة على الوحدة بين الأنصار والمهاجرين ، وذلك كما يتضح فيما يلي من حديث ،

والحق فقد كان اعتماد الرسول ﷺ على هذه الوسيلة من وسائل الإعلام - وهي وسيلة الاتصال الشخصي اعتماداً كبيراً يدل على حسن سياسته وعلى عظيم حكمته في معالجة المواقف الحرجة التي كانت تمر به في حياته، وكادت تفسد العلاقات الطيبة بينه وبين أصحابه وأنصاره ، ولكنه استطاع بسياسته ومبادرته بالاتصال الشخصي المباشر بينه وبين مصادر الفتنة في مثل تلك الساعات الحرجة أن يهدم كل ثورة وأن يمحو كل سخط وأن يذيب كل حقد، وأن يعيد نفوس أصحابه أصنى مما كانت عليه قبل حدوث الفتنة، وقد كانت طريقته في كل ذلك الصراحة التامة، والصدق الذي ليس بعده صدق ، والشجاعة التي لا تماثلها شجاعة ، وبذلك أعاد العلاقات الطيبة التي بينه وبين هذه الجماهير إلى أحسن مما كانت عليه من قبل، ومارس فن الاتصال الشخصي بالطريقة التي لا يرقى إليها زعيم في أمة أوقائد في حركة وما ذلك إلا بتوفيق من الله تعالى وحسن توجيهه .

أعطى رسول الله من فيء هوازن ما أعطى في قريش وقبائل العرب ، ولم يعط من هذا الفيء لأحد من الأنصار شيئاً ، فغضب الأنصار لذلك ، غضباً شديداً وفشت فيهم الشائعات المسيئة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم لبعض إن هذا هو العجب يعطى قريشاً ويحرمانا - وسيوفنا تقطر من دماء القرشيين فإن كان ما فعل النبي من أمر الله صبرنا وإن كان من أمر رسول الله عاتبناه ، فدخل عليه سعد بن عباد فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء ، فقال عليه الصلاة والسلام فأين أنت من ذلك. فقال سعد بن عباد : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي ، فقال عليه الصلاة والسلام : فاجمع لي قومك في هذه القبة ، فلما اجتمع الأنصار أتاهم رسول الله فقال لهم : من كان من غير الأنصار

فليرجع إلى رحله ، ثم وقف النبي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
يا معشر الأنصار ما مقالة بلغني عنكم ، وموجدة وجدتموها على في
أنفسكم ، ألم آتكم ضالا فهذاكم الله بي ؟ وعالة فأغناكم الله بي ؟ وأعداء
فألف بين قلوبكم . ثم قال يا معشر الأنصار ألا تجيبونني ؟ قالوا بماذا نجيبك
يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المنة والفضل ، قال رسول الله : أما والله
لو شئتم لقاتم فصدقتم وصدقتم : أتيتنا مكذبا وصدقناك ، ومخذولا وطريداً
فآويناك ، وعائلا فآسيناك .

فقال الأنصار : المنة لله ولرسوله . قال رسول الله مرة أخرى : ما حديث
بلغني عنكم ؟ فسكتوا ، فأعاد مرة ثانية وقال : ما حديث بلغني عنكم ؟ فقال
فقهاء الأنصار أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئاً ، وأما حديثو السن منا فقالوا :
يغفر الله تعالى لرسوله يعطى قریشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوجدتم يا معشر الأنصار في شيء قليل
من الدنيا تألفت به قوما ليساموا ويسلم غيرهم تبعاً لهم ، وولتكم إلى إسلامكم
الثابت الذي لا يزول ؟ إني لأعطي الرجل - وغيره أحب إلى منه -
خشية أن يكبه الله في النار ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس
بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا
الهجرة لسكنت رجلا من الأنصار ، ولوسلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً
لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، فبكى القوم
حتى ابتلت لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً
وحظاً . ثم انصرف رسول الله وتفرقوا .

فهذه طريقته ﷺ في معالجة الأمور ، وهي طريقته في إطفاء نار
الفتنة ، وهي طريقة بنيت على الصدق والصراحة والرحمة والتقرب إلى
الناس والتودد إليهم ومباشرة الاتصال الشخصي بهم ، هذه الطريقة في
السمو بنفوس أصحابه عن الماديات ، والعلو بها إلى مستوى الروحانيات ،
وكان من نتيجة هذا الموقف المثالي في مواقف رسول الله أن رجع القوم من
عنده أكثر صفاء في النفوس وطهارة في القلوب وتعلقاً بالرسول ، وحباً

للمبادئ الإنسانية التي دعاهم لها ، وما أعلم أن زعيما من زعماء الأرض
كان يستطيع أن يتصرف مثل هذه الفتنة على هذا النحو أو يذيب السخط
من نفوس قومه بمثل هذه الطريقة .

ضربنا المثل هنا في مجال الاتصال الشخصي المباشر بالرسول لأنه أضخم
شخصية في الوجود الإسلامي كله ولأن الاستشهاد بمواقفه يغني عن
الاستشهاد بموقف أصحابه .

أما الاتصال الجمعي فأظهر ما يكون عادة في مجال الخطابة حين يجتمع
الخطيب بعدد كبير من الناس يوجه إليهم كلامه ، ومن أجل ذلك سيتناول
هذا الكتاب موضوع (الخطب النبوية) في الباب الثاني وهو الباب الذي
سنتحدث فيه عن (الدعوة في عهد الرسول ﷺ وطرق نجاحها) .

الفصل الخامس القصص غير القرآني

رأينا فيما سبق أن القرآن الكريم اعتمد على وسيلة القصص في سبيل الدعوة والاتصال بالجمهور ، وسنرى الآن كيف أن المسلمين بعد انقطاع الوحي ووفاة الرسول مضوا في طريق القصص ، ولكن مع الفارق الشديد بين القصص القرآني والقصص غير القرآني ، فالأول وهو القرآني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والثاني غير القرآني كان يبنى على الصدق حيناً وعلى الكذب أحياناً ، يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه (فجر الإسلام)^(١)

(كان أول من قص في مسجد رسول الله ﷺ (تميم الداري) ، استأذن عمر بن الخطاب أن يذكر الناس ، فأبى عليه ذلك ، حتى كان آخر ولايته فأذن له عمر أن يذكر الناس في يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر من المسجد ، واستأذن تميم في ذلك عثمان بن عفان ، فقبل عثمان ذلك) .

وكان تميم هذا نصرانياً من اليمن أسلم سنة تسع من الهجرة .

وأما صورة هذه القصص فهي أن يجلس القاص في المسجد ، ويقص على الحاضرين حكايات وأحاديث وأساطير عن الأمم الأخرى لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب ، والظاهر أن هذا القصص كان على نوعين :

قصص للعامة ، وقصص للخاصة .

فأما قصص العامة فهو الذي يجمع إليه نفوس أكثر الناس ، وهذا من القصص مكروه عند فقهاء المسلمين ، وأما قصص الخاصة فهو الذي اعتمد عليه أكثر الخلفاء الراشدين ، فلما ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة الأموية ولي رجلاً من قبله على القصص . فكان إذا انتهى من صلاة الصبح

(١) ص ١٩٠ وما بعدها .

جاس هذا الرجل وأخذ يذكر الناس فيبدأ باسم الله والصلاة والسلام على رسوله ، ثم يدعو للخليفة وأهل بيته ويدعو لجنده وقواده ، ثم يدعو على المخالفين له من المسلمين ، كما يدعو على المشركين كافة (١) .

وانتشر القصص ودخل عليه الكذب وذلك منذ خلافة علي بن أبي طالب حتى اضطرب على إلى طرد جميع المشتغلين بالقصص في المساجد واستثنى منهم (الحسن البصري) لتحريه الصدق في القول ، ولكن مما لا شك فيه أن القصص كان من أكبر أسس الدعاية في عهد الفتن الإسلامية ، وأولها: الفتنة الكبرى التي حدثت في أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثم علا شأن القصص شيئاً فشيئاً حتى أصبح عملاً من الأعمال الرسمية في الدول الإسلامية ، وأصبح القاص أشبه بوزير الإعلام والدعاية في الوقت الحاضر ما لم يكن أكبر منه ، وكان بعض القصص في تلك العصور يجمعون بين وظيفتين في وقت واحد هما : وظيفة القضاء ووظيفة القصص أو بلغة العصر الذي نعيش فيه بين وزير العدل ووزير الدعاية ، ثم رأى فيما بعد أن يختص الرجل بإحدى هاتين الوظيفتين .

وكان أول من جمع بين القصص والقضاء في مصر الإسلامية هو (سليمان ابن عتر التجيبي) سنة ثمان وثلاثين للهجرة .

مهما يكن من شيء فعن طريق القصص دخلت على المسلمين أساطير الديانات الأخرى اليهودية والنصرانية ، وكان ذلك سبباً من الأسباب التي كلفت رجال الحديث كثيراً من الجهود المضنية في التحري عن صدق الأحاديث النبوية إلى جانب الأسباب الأخرى التي جعلتهم يعانون من أجل هذه الغاية .

وبسبب ذلك أيضاً امتلأت كتب التاريخ الإسلامي بكثير من الوقائع الزائفة والحوادث المختلفة ، وذلك منذ اعتمد المؤرخون المسلمون على مصدرين كبيرين هما (وهب بن منبه) (وكعب الأحبار) . أما وهب بن منبه فرجل

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٥٣ - المطبعة الأميرية .

يمنى من أصل فارسي وكان من أهل الكتاب وله معرفة واسعة بقصص الأنبياء وأخبارهم ، وأما كعب الأخبار فيهودى من الذين أيضاً وكان مصدراً لتسرب أخبار اليهود إلى المسلمين وعن طريقه أيضاً دخل فى تفسير القرآن الكريم ما يعرف (بالإسرائيليات) .

والخلاصة أن القصص أفاد المسلمين فائدة جزئية عن طريق الدعاية للخلفاء والملوك والسلاطين ، ولكن هذا القصص أخر بنواح ثلاث وهى :

ناحية الحديث النبوى ، وناحية التاريخ الإسلامى ، وناحية الديانة الإسلامية نفسها عن طريق الإسرائيليات - هذا ما حدث فى صدر الإسلام ولكن بتحول الخلافة الإسلامية إلى ملك حقيقى على يد معاوية أصبح للقصص شأن كبير فى تحميس الجنود للقتال فضلاً عن الدعاية لخلافة جديدة أو مذهب جديد ونحو ذلك .

لقد كان القصص عنصراً أساسياً فى جيوش المسلمين ، وعليه اعتمد أولو الأمر فى شد أزرج الجنود فى الفتوح الإسلامية والحروب الدينية ومن أشهرها الحروب الصليبية المعروفة فى التاريخ .

* * *

وبعد - فقد كان لكل نبى من الأنبياء السابقين معجزة ، وكانت هذه المعجزة فى ذاتها أقوى وسائل الدعاية لنجاح النبى فى دعوته التى بعث بها من قبل الله تعالى .

فكانت لموسى معجزته التى حدثنا بها القرآن الكريم وهى العصا ، وكانت لعيسى معجزاته التى منها أنه يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله ، ومنها أنه يحيى الموتى بإذن الله ، وهكذا ، أما محمد بن عبدالله فمعجزته القرآن ، ولم نتحدث عن القرآن بحيث إنه معجزة لهذا المعنى ، وما نريد أن نتحدث عن كتاب الله من هذه الناحية ، ذلك أننا نحرص على أن نكتفى بالجنب العلمى من جوانب

الإعلام والاتصال بالجمهور في الإسلام ، وليس معنى ذلك أن العلم ينكر المعجزات أو أن العلماء كلهم في تاريخ العالم منكرون لها، ولكن يمنعنا من الحديث عن المعجزة من الزاوية الإعلامية الخاصة أننا سنلتقي بكثير من الباحثين يأخذون علينا هذا السلوك ، ومن هنا تحدثنا عن القرآن في مجال الإعلام والاتصال بالجمهور ، وذلك بالطرق والأساليب التي يفهمها البشر في كل زمان ومكان ، وكفانا ذلك عن الحديث عن القرآن الكريم من حيث إنه المعجزة الكبرى الوحيدة أو الفريدة لرسول الله ﷺ :



الفصل السادس هو اسم الحج من أعظم وسائل الدعوة

أجمع الباحثون على أن الإسلام دين السلام والمحبة ، ودين الاجتماع والوفاق والوحدة، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أنه الدين الذي أدرك قيمة الإعلام السليم وقيمة الاتصال بالناس على قاعدة متينة من قواعد الألفة والصدق والإخلاص والأخوة .

وفي الشريعة الإسلامية كثير من العبارات التي تدل دلالة واضحة على هذا المعنى ، فصلاة الجماعة تقام خمس مرات في اليوم والليلة، وصلاة الجمعة تقام في كل أسبوع مرة، وذلك على نطاق واسع وتجمع أكبر ، وفيها يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » ، ثم هناك صلاة عيد الفطر وصلاة عيد الأضحى وفيهما تهليل وتكبير وذكر لله كثيرا يصدر من جميع المصايين على شكل نشيد جميل يترك أعظم الأثر في نفوس المسلمين، ويعبر عن شكر جميع المسلمين لله تعالى على النعم التي أفاضها عليهم والانتصار الذي خص به نبيهم ودينهم حتى أظهره على الدين كله .

وأخيراً نأتي إلى التجمع الأكبر الضخم ، والمؤتمر الأعظم ونعني به يوم الحج الأكبر ، وفيه يلتقي المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها مستجيبين لنداء الله مهاجرين بقلوبهم إلى الله متجردين لعبادة الله ، وذلك بالطريقة التي رسمها لهم لا يحيدون عنها قيد شعرة .

لقد أخبرهم الله تعالى بقوله : (إن أول بيت وضع للناس الذي بمكة

مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً) .

كما أعلمهم الله تعالى أنه كلف أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأن يدعو الناس للحج والطواف بالكعبة فقال تعالى (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات)

* * *

ونحن لانتحدث عن الحج من حيث هو ركن من أركان الإسلام ولا من حيث هو نوع من الهجرة إلى الله والتجرد الكامل لعبادة الله، كما لانتحدث عن الحج من حيث حكمته البالغة في جمع كلمة المسلمين من شتى بقاع العالم، ولا من حيث الغاية التي شرع من أجلها لاتباع هذا الدين، فكل هذه البحوث ليست من قصودنا ولا هي هدف لنا وإنما هدفنا هو التحدث عن الحج من حيث إنه من أكبر وسائل الدعوة الإسلامية حيث إنه مقرون بكثير من المظاهر الإعلامية والأشكال الدعائية التي صحبت أداء هذه الفريضة من أولها إلى آخرها .

ربما كان أول شكل من هذه الأشكال الدعائية هذا النشيد الذي يردده الحجاج وهم مقبلون على مكة ، ويرددونه في أثناء طوافهم بالكعبة وهو النشيد الذي وضعه لهم رسول الله ﷺ وفيه يقول (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك لا شريك لك لبيك ، وإن الخير كله في يديك لبيك) .

مشهد رائع جميل من مشاهد الدين يثبت العقيدة في نفوس المسلمين ويزرع الإيمان والسكينة زرعاً آخر في قلوب المؤمنين ، والأناشيد الحماسية في كل ثورة دينية أو سياسية أثرها الذي لا يحتاج منا إلى شرح .

من أجل ذلك جعل الله الحج ركناً من أركان الدين وفرض على كل مستطيع أن يقوم به من المسلمين والمسلمين ، وذلك في قوله تعالى : (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) .

وقوله ﷺ (أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا) فقال رجل من الحاضرين: أكل عام يارسول الله؟ فسكت النبي حتى قالها الرجل ثلاث مرات، فقال عليه الصلاة والسلام (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم).
ولحكمة جليلة أيضاً جعل الله العمرة مثل الحج لقوله تعالى (وأتموا الحج والعمرة لله).

وهي فرض على المسلم كالحج مرة واحدة في العمر، ولكن ذلك مشروط كما في الحج بالقدرة مالا وصحة. وهما - أي الحج والعمرة - مفروضات على كل مسلم ومسلمة، وفي الحديث قالت السيدة عائشة (يارسول الله هل على النساء من جهاد؟ قال: نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه، الحج والعمرة)^(١).
ونتساءل: ماهي هذه المنافع التي يشهد بها الناس في الحج بجانب العبادة والتجرد لله تعالى؟ إن مما لا شك فيه أن التجمعات السلمية في كل زمان ومكان لا تخلو من الفوائد التي تعود بالخير على الإنسان، فمن هذه الفوائد التجارة وتبادل السلع المادية، ومن هذه الفوائد أيضاً الإعلان وتبادل السلع الإخبارية والمواد الروحية، وليس من حق مفسر للقرآن مهما عظم شأنه أن يتجاهل الناحية الأخيرة، ونعني بها السلع المعنوية أو الاعلامية فما الحج في جانب من جوانبه إلا سوق كبيرة تعلو على جميع الأسواق المشهورة في الأمم القديمة والحديثة، وما كانت هذه الأسواق في يوم من الأيام مقصورة على البضاعة التجارية دون البضاعة المعنوية إلا إذا كان هناك سلطان غاشم يحول بقوة وجبروته دون تبادل السلع المعنوية.

ودعنا مرة أخرى نوازن بين (النادي) (والحج الأكبر) ولو أن القياس هنا مع الفوارق العظيمة، فإذا كان النادي وسيلة من أقوى وسائل الإعلام في العصور القديمة والحديثة، في القرية أو الحي... أو المدينة في الدول الصغيرة أو الكبيرة فكيف بناد كبير ليس له نظير في العالم كله، كنادي الحج يجتمع فيه المسلمون من أقاصى الأرض حول مكان واحد،

هو الكعبة أو جبل (عرفات) ، وفي وقت واحد هو شهر ذى الحجة ،
إن المسلمين في جميع أقطار الدنيا لو دبروا أمرهم وهيثوا نفوسهم لمثل
هذا الاجتماع الكبير أو المؤتمر العظيم لما استطاعوا تنظيم ذلك بخير
من الحج .

في هذه البقاع المقدسة يجتمع المسلمون لا فرق بين كبير وصغير ولا بين
أبيض وأسود ولا بين أحمر وأصفر ولا بين غني وفقير ولا بين سيد ومسود
ولا بين رجل وامرأة فيتعارفون ويتآلفون ويزورون تلك البقعة التي شهدت
موالد الرسول ، وكان فيها نزول القرآن الكريم وكان فيها جهاده ﷺ ضد
المشركين والمنافقين ، ودارت فيها الحرب الباردة بينه وبين اليهود كما دارت
فيها الحرب الساخنة بينه وبين الكافرين ، كما يشهدون تلك الأرض التي
هاجر إليها الرسول وشهد فيها من النصر والتأييد ما أنعم به الله عليه وعلى
دينه الحنيف .

وانظر معي بعين الخيال مرة أخرى إلى بقية مظاهر الدعوة الإسلامية
والأشكال الدعائية التي اقترنت بهذه الفريضة الدينية وهي فريضة الحج .
فمن ذلك الطواف حول الكعبة سبع مرات طواف قدوم أو إفاضة
وطواف توديع ، وغير ذلك من ضروب الطواف التي أمر بها الرسول .

ثم انظر معي إلى الصور التي اختارها النبي ﷺ لهذا الطواف .
لقد أمر النبي أصحابه أن يتجردوا من ثيابهم المعهودة أو التي تعودوا لبسها
كل يوم ، وأن يرتدوا ثياباً أخرى غير مخيطة ، ويتألف كل ثوب من إزار
يغطي النصف الأسفل من الرجل [ورداء يجعل وسطه تحت منكبه الأيمن
ويجعل طرفيه على منكبه الأيسر ، وقد سميت هذه السنة من سنن الحج
(بالاضطباع) ^(١) .

أتدري ما هي الحكمة التي دعت الرسول إلى أن يأمر أصحابه باتخاذ
هذه الهيئة في تغطية الجسم في أثناء الطواف ؟

(١) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ص ٥٣٢ :

لقد كان الرسول يذهب إلى الحج وهو بالمدينة، فحرص على الظهور هو وأصحابه على هذه الهيئة التي يغطي فيها أحد كتفيه ويكشف فيها عن الكتف الأخرى لكي يظهر للمشركين هو وأصحابه بمظهر الأقوياء المفتولي العضلات الذين يستطيعون مع قلتهم أن يقاوموا المشركين مع قوتهم ومثانة بنيانهم الجسدي .

إن الطواف إذن - لاخلو من معنى (المظاهرة) الكبرى التي قصد إليها الرسول قصداً ، وذلك بغية الإعلان عن الدين ، وبغية الظهور بمظهر القوة البدنية إلى جانب القوة الروحية للمسلمين وفي ذلك تخويف للمشركين في مكة وإرهاب لرعوس الكفر في تلك البلدة التي اضطرت النبي وأصحابه إلى الهجرة .

الحق - إن في كل شعيرة من شعائر الحج فضلاً عن معنى التجرد والعبادة كما قلنا - معنى من معاني الدعوة الإسلامية، وإشارة بليغة إلى قوة هذه الدعوة .

ومن أهم هذه الإشارات البليغة أو الدعائية - التلبية والطواف .

وفي وقفة عرفات - وذلك في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة - يجتمع المسلمون كذلك من كل أقطار الأرض في هذا الوادي القريب من مكة في وقت واحد وبقلب واحد وعيد واحد من أكبر أعياد المسلمين ، وينظمون لأنفسهم أو ينظم الله لهم مؤتمراً ثانياً كمؤتمرهم حول الكعبة، وفي هذا المؤتمر العظيم، يستطيع المسلمون - لو أرادوا - أن يتبادلوا الرأي فيما يعود على الأمة الإسلامية كلها بالخير، ويندود عنها الشر وينصروهم على العدو. وإن أسلوب المؤتمرات هو السمة الأساسية للاتصال الشخصي في عالمنا الحاضر ، ولكن مؤتمر الحج يختلف عنها من حيث تجتمع له كل مقومات النجاح العقائدية والروحية والفكرية .

وشعيرة أخرى من شعائر الحج - هي رمي الحصى أو الجمرات - إذ يأخذ كل واحد منهم تسعاً وأربعين حصاة من أرض يقال لها (المزدلفة)

في طريقهم إلى (منى) ويبيتون في تلك الجهة حتى إذا أشرق الصباح ذهبوا بجمعهم إلى مكان يقال له (العقبة) وهناك يأخذون في رمي الحصى أو الجمرات فإذا انتهوا من ذلك ذبحوا ذبائحهم وأطعموا الفقراء .

أليست هذه الأعياد من الأمور التي تتدرج بها الدعاية في كل زمان ومكان ؟ وماذا يفعل الناس في أعيادهم منذ القدم أكثر من هذا ؟ إنها إذن مظاهر كبرى من هذه المظاهرات التي اقترنت بالحج الأكبر، وإنها للريشة من أقوى ذرائع الدعوة للإسلام والانتصار لنبي الإسلام والاحتفال به على النحو الذي يلقي الرعب في قلوب خصومه وأعدائه .

وشعيرة أخيرة من شعائر الحج هي سعي الحجاج بين الصفا والمروة وإنها لمظاهرة كبرى لا تقل في روعتها عما سبقها من المظاهرات فيها يعلو الهتاف للإسلام ، ونبي الإسلام، وفيها يكثر الدعاء إلى الله بالرحمة والغفران، وبها يزداد المسلمون تعلقاً بالرسول وإصراراً على التمسك بمبادئه العالية .

وقبل أن يغادر المسلمون مكة المكرمة يعودون إلى الطواف حول الكعبة المشرفة طواف وداع ، وقلوبهم تفيض بالإيمان وقوة الاعتقاد بهذا الذي أرشدهم إلى مواطن الرفعة المعنوية والنفسية والمادية .

فأين الزعيم الديني أو السياسي أو الاجتماعي الذي يستطيع تنظيم مثل هذه التجمعات أو المؤتمرات ؟ وأين الفرصة التي تتاح للاتصال بالجمهور وتبادل الأفكار والآراء والأخبار والمعلومات مثل هذه الفرصة التي تتاح للناس في الحج ؟

ولعل ذلك ما أراده الله تعالى من قوله (ليشهدوا منافع لهم) كما سبق القول في ذلك، فليت المسلمين في هذا العصر ينتفعون بهذه الوسيلة الإعلامية القوية، إنهم يستطيعون أن يتخذوا من موسم الحج في كل عام مؤتمراً إسلامياً عالمياً يعرضون فيها آراءهم وأفكارهم ومشكلاتهم وقضاياهم ومنها قضية فلسطين (١)

(١) أذكر أنني أدت فريضة الحج عام ١٩٦٨ وأدبت شعائر الحج ما استطعت حتى وصلت مع الحجاج إلى جبل عرفات — وكان يوماً عظيماً شعرت فيه بسعادة روحية لم أذق مثلها في حياتي، =

ودعنا نختم هذا الفصل بهذه الآية الكريمة التي تعطينا أكبر دليل على أن (يوم الحج الأكبر) تمييزاً — له عن الحج الأصغر وهو العمرة — أكبر إعلان للإسلام والمسلمين ، وتحذيراً في الوقت نفسه للمشركين والكافرين . قال تعالى : (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) .

ولكن الذي أحزنني في ذلك اليوم وحز في نفسي كثيراً أنني لم أجدا كنت أنتظره وأتخيله في نفسي قبل ذلك : فقد كنت أنتظر أن أشهد أضخم مؤتمر إسلامي هناك يخطب فيه الخطباء في قضية فلسطين ، وهي القضية التي كانت تشغل بال المسلمين في ذلك الحين . وبعد قليل سمعت خطيباً واحداً أخذ يخطب الجماهير في هذه القضية ولكنه لم يطل كما توقعت ولم يعقب عليه خطباء آخرون فلم يشجعي ذلك على أن أكون واحداً من أولئك المعقبين — برغم أنني كنت في غير كامل صحتي في ذلك اليوم .

لقد كانت هذه الفرصة ثمينة يتحدث فيها زعماء المسلمين في أمور كثيرة من أهمها قضية اللاجئين ، ولكن ذلك لم يحدث فرجعت من عرفات في ذلك اليوم وأنا حزين وأريد أن أعفي نفسي من الاستطراد في الحديث .

الفصل السابع العلاقات الإنسانية في صدر الإسلام

نسمع في العصر الذي نعيش فيه بمادة جديدة من مواد الإعلام هي مادة (العلاقات العامة) غير أن هذه المادة إنما تعتبر جزءاً من علم أوسع هو علم العلاقات الإنسانية، وينقسم هذا العلم إلى قسمين: العلاقات الداخلية أو الخاصة، والعلاقات الخارجية أو العامة، ولا غنى للمؤسسات الحكومية أو الأهلية عن القسمين معاً .

أما العلاقات العامة فهي علاقات المؤسسات بالجمهور من الخارج ، وأما العلاقات الخاصة فهي علاقات المؤسسة في الداخل .

فإذا طبقنا ذلك على الظروف التي أحاطت بالرسول والخلفاء الراشدين في صدر الإسلام وجدنا أن علاقاتهم بالمسلمين من سكان المدينة تمثل العلاقات الداخلية، وأما علاقتهم بغير المسلمين في داخل المدينة وخارجها فتمثل العلاقات العامة ، وقد جمع الرسول وجمع الخلفاء الراشدون من بعده بين هذين النوعين من العلاقات الإنسانية - ولكنهم كانوا قد بدعوا بالعلاقات الداخلية ثم وجهوا عنايتهم إلى العلاقات الخارجية .

ولعل أكبر شاهد على ما نقول أن رسول الله ﷺ بدأ رسالته بدعوة أهله وعشيرته إلى الإسلام وذلك عملاً بقوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) فبدأ بدعوة زوجته السيدة خديجة وغلالمها ياسر وسمية زوجة ياسر، هذا في المرحلة السرية من مراحل الدعوة، ثم بدأ المرحلة العلنية بدعوة بنى هاشم كما سنشرح ذلك في موضعه .

والعجب أن النظريات الحديثة في العلاقات الإنسانية تقول إن هذه العلاقات ينبغي أن تبدأ من الداخل ثم تنتهي بالعلاقات العامة أو العلاقات من الخارج ، فانظر كيف اهتدى الرسول إلى ممارسة هذا النوع من أنواع

الإعلام — وهو العلاقات الإنسانية — بطريقة يقرأها العلم الحديث ، ذلك أنه بدأ بزواجه وبنى قرابته ثم بأدنى الأصدقاء إلى نفسه ، وهو الصديق أبوبكر ومن في درجته ، ومضى في طريقه حتى بلغت الرسالة غايتها بعد ذلك .

ويشبه العلماء المحدثون ممارسة العلاقات الإنسانية على هذا النظام المتقدم أعنى به البدء بالإعلام الداخلى والانهاء بالإعلام الخارجى بالحجر يلقى به فى الماء ، فيحدث فيه حركة شديدة ، وإذا بدوائر أو حلقات من الأمواج تتكون حول الحجر ، وتتسع شيئاً فشيئاً ، وهذه الدوائر أو الحلقات إنما تتكون من الداخل أولاً وتتسع فى اتجاهها إلى الخارج شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى بعد ذلك . بناء على هذه القاعدة الحديثة من قواعد العلاقات الإنسانية ، يمكن التأكيد بأن الإعلام الداخلى يجب أن يكون سابقاً على الإعلام الخارجى ، بل إن الإعلام الخارجى إنما هو انعكاس لابد منه للإعلام الداخلى ، ومن ثم كان من الأخطاء التى ترتكبها بعض الدول فى وقتنا هذا أن تسلك فى الإعلام خطة عكسية ، فلاتصيب هدفاً إعلامياً ذا بال .

ثم إن العلاقات الإنسانية لا تنشأ إلا فى جو ثقافى وحضارى يؤمن بقيمة الانسان من حيث هو إنسان له كرامته وله حقوقه على الآخرين ، وعليه واجبات نحوهم ، وقد توفرت هذه المعانى فى المجتمع الإسلامى وهو المجتمع الذى خلقه وتولى بناءه الرسول الأمين ﷺ ، ومن الخطأ كل الخطأ أن يزعم المؤرخون أن هذه المعانى لم توجد إلا بقيام الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وفى القرآن آيات كثيرة تتفق على ذلك منها على سبيل المثال : « ولقد كرمنا بنى آدم . . . » وفى الحديث قول الرسول ﷺ : (الناس جميعاً سواسية كأسنان المشط) .

فضلاً عن هذا وذاك فإن لفظ (الانسان) أو ابن (آدم) كثير الورد فى القرآن الكريم بمعنى الكرامة والاحترام ، وبوصفه سيداً للطبيعة التى سخرها له الله تعالى وفضله على أى مخلوق سواه ، ويضاف إلى كل ذلك

ما سبق أن قلناه من أن الاسلام حض على الشورى وأمر المسلمين بها ، بل أمر النبي نفسه باتباعه مع أنه المثل الأعلى للانسان وأنه أرجح عقلاً وأكثر علماً وأعظم منزلة من جميع الذين عاصروه واتبعوه في دعوته ، وفي مثل هذه الأجواء من الديمقراطية يتهيأ الرأى العام وتتهيأ العلاقات الإنسانية وتظهر على أحسن وجه .

وهكذا وفر الإسلام بتعاليمه جواً من الإخاء والمساواة جعل من العلاقات الإنسانية نباتاً صالحاً للتربة الإسلامية فأصبحت هذه العلاقات الإنسانية سمة من سمات المجتمع في صدر الاسلام ، أعنى في عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين من بعده .

ثم حدث بعد ذلك أن انعكست هذه العلاقات الإنسانية في داخل المجتمع الاسلامى الضيق في المدينة على الجهات البعيدة عنها ، وعلى الدول الكبيرة المحيطة بشبه الجزيرة العربية ، كما ظهر ذلك في الوفادات أو التمثيل الدبلوماسى بلغة العصر الحديث ، وهو التمثيل الذى تحقق بشكل ملموس في بعثات النبي ﷺ إلى الأمراء والملوك المجاورين .

وسنتحدث عن ذلك بوضوح في الفصل الذى عنوانه : (الدعوة في عهد الرسول وأساليب نجاحها) .

وعلى ذلك فنحن لا نبالغ إذا قلنا أن الإعلام الإسلامى هو الذى وضع النواة الأولى لفن العلاقات الإنسانية بشقيها : العلاقات الداخلية والعلاقات الخارجية ، كما أنه وضع الأساس الأول لفن الدبلوماسية والتعامل الإنسانى المتحضر مع الآخرين .

والحقيقة أن عبقرية الدين الإسلامى عبقرية إعلامية في جوهرها كما أشرنا كذلك إلى أنها لم تكن سحراً كما كان الأمر في الموسوية في عصر فرعون مصر المعروف باسم « منفتاح » ولم تكن المعجزة طباً كما كان الأمر في المسيحية أيام الرومان .

ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام فطن كذلك إلى أهمية الشرح

والتفسير باعتباره جزءاً من الإعلام ، وكان يبعث بالوفود من القراء والفقهاء لتفسير الدين وشرح القرآن الكريم ، كما يفعل خبراء الإعلام من المعلقين والممثلين في العصر الحديث .

وباختصار نجد أن هذه الوسيلة من وسائل الإعلام كانت من أبرز صور النشاط الإعلامي الذي مارسه الرسول ومارسه الخلفاء الراشدون ، وعلينا أن نقيم الأدلة على صدق هذه القضية ، وذلك من حياة الرسول وأصحابه على النحو التالي :

١ - فمن ذلك أن الرسول كان يحسن استقبال الوفود العربية التي وفد إليه في المدينة وترغب في اعتناق الإسلام على يديه .

٢ - ومن ذلك أيضاً أن الرسول حاول أن يوجد نوعاً من التآخي بين المهاجرين والأنصار منذ هاجر وهو وصاحبه أبو بكر من مكة وتبعه أصحابه من المكين في ذلك .

٣ - ومن ذلك أن الرسول حاول أن يوجد نوعاً من العلاقات السياسية بينه وبين اليهود المقيمين معه في المدينة ، وذلك بقصد التعايش السلمي معهم كما نقول في لغة العصر الحاضر .

٤ - ومن ذلك ما أشرنا إليه منذ حين - من أن الرسول نجح في إيجاد العلاقات الدبلوماسية بينه وبين أمراء العرب ، ثم بينه وبين ملك الحبشة وملك الروم وكسرى وعزيز مصر وغيرهم من الملوك المعروفين في زمنه ، وكل هذه الجهود التي بذلها الرسول تعتبر في نظر الباحث الحديث صوراً من العلاقات الإنسانية .

٥ - ثم من ذلك طريقة المصاهرة ، والمعروف أن النبي ﷺ كان له زوجات كثيرة ، ولكن ذلك لم يكن دليلاً على ميله للشهوات - ولو كان من طريق الحلال - ولكن ذلك كان نوعاً من أنواع العلاقات الإنسانية - كما سنشرح ذلك فيما بعد .

والواقع أن كل فكرة جديدة أو عقيدة جديدة لا نستطيع أن نجد لها

غنى عن فن العلاقات الإنسانية ، وهذا كلام ينطبق على كل نظام جديد .
أو كل حكومة جديدة أو كل فرقة من الفرق السياسية أو الاجتماعية أو الدينية .
تظهر في المجتمع .

وإذا كانت العلاقات الإنسانية بشقيها يمكن مزاوتها في العصر الحديث
عن طريق الصحف والإذاعة ونحو ذلك فإن العصور القديمة كانت تزاوها
بالطرق التي تيسرت لها إذ ذاك كالخطابة ، والشعر ، والندوات والزيارات
الرسمية . ومنها الزيارات التي كان يقوم بها عمر بن الخطاب إلى الأقاليم
الإسلامية من حين لآخر رغبة منه في الوقوف على أخبار الرعية من جهة ،
وتوطيداً للعلاقات الإنسانية بين المسلمين وولايتهم في هذه الأقاليم من
جهة ثانية .

ونقطة أخرى لا بد من توضيحها في مجال العلاقات الإنسانية بمفهومها
في العصر الذي نعيش فيه : فهناك المؤسسات الحكومية أو الأهلية . وهناك
المنظمات أو الجمعيات التي تهدف إلى الأرباح المالية من طريق التسويق
والتسويق وحده قبل أى شئ ، ومن الأمثلة على هذه المنظمات ما تراه من
الشركات التجارية أو المنشآت الصناعية ، وكل هذه الشركات أو المنشآت
في العصر الحاضر إنما تحتاج إلى قوتين في وقت معاً ، هما قوة الإدارة من
جانب ، وقوة العلاقات العامة من جانب آخر .

غير أن هناك منظمات ومؤسسات ليست بحاجة إلى الربح المالى ومن
الأمثلة عليها الجامعات والمستشفيات والجمعيات الخيرية كالمبرات ونحو
ذلك ، ومن غير المعقول أن يكون لهذه المنظمات هدف إلى الكسب المادى ،
أو بعبارة أخرى ليس لها هدف التسويق ، فالجامعة عملها نشر العلم ،
 والمستشفى لعلاج المرضى ، والمبرة أو الجمعية الخيرية لمساعدة الفقراء ،
وهكذا .

والمنظمات الفكرية والفرق المذهبية لا بد أن تكون من النوع الأخير ،
ليس لها هدف التسويق وإنما هدفها الوحيد هو ترويج المذهب الجديد أو
(م ٧ - الإعلام في صدر الإسلام) .

العقيدة الجديدة ونحو ذلك ، ومن هذا القبيل تلك الدعوة التي دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي الدعوة إلى الإسلام ، ومن أجل ذلك مارس الرسول فن العلاقات الإنسانية بالطرق التي أشرنا إليها ، وكان يعتبر بالأنبياء الذين سبقوه إلى مثل هذه الدعوة ، فلا يطلب من العرب أجراً على الجهد الذي يبذله في سبيل الدعوة ، بل كان يقول لهم ما قاله الأنبياء من قبله : (قل ما أسألكم عليه من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شيء شهيد) .

* * *

بقي أن نستشهد ببعض الأمثلة على هذه العلاقات الإنسانية التي زاوها الرسول ﷺ وقام بها بعض الخلفاء من بعد ، وسنكتفي بالأمثلة الآتية :

أولاً : طريقة القراء أو الفقهاء الذين يبعث بهم الرسول إلى القبائل العربية التي اعتنقت الإسلام ، وكان على أولئك الفقهاء أن يقوموا بأعمال كثيرة منها :

شرح تعاليم الدين الجديد ، وتفسير بعض آيات القرآن وبيان الحديث الشريف ، ومنها تقوية الروابط بين أفراد هذه القبائل من ناحية والنبي وصحبه وبقية المسلمين من ناحية ثانية ، وإذا كان الهدف الأول من العلاقات العامة في كل زمان ومكان هو إيجاد هذه الروابط الإنسانية السليمة في المجتمع وضمان التفاهم الصحيح بين طرفين هما : الطرف الذي يمثل مصدر الرسالة أو المرسل (بكسر السين) والطرف الذي يمثل المستقبل (بكسر الباء) نقول إذا كان هذا هو الهدف الأول والأخير من العلاقات العامة ، فقد نجح مبعوثو الرسول في أداء هذه المهمة كل النجاح ، وجاهدوا في سبيل هذه الغاية حق الجهاد ، وقد وطنوا أنفسهم على التعرض لكل الأخطار في سبيل ذلك .

والحق لقد كانت هذه المهمة الجليلية مخوفة بالأخطار العظيمة . فقد كان بعض الخونة غلاظ الأكباد من العرب يستدعون الفقهاء بقصد التفقه في

الدين فإذا خلوا بهم قتلوهم غدراً ووحشية وانتقاماً من الإسلام ، حدث
حادث كهذا في مكان يقال له (بئر معونة) وذلك في صفر من السنة
الرابعة للهجرة (١) وتعرف هذه الواقعة بسرية القراء « وكانوا سبعين قارئاً
يؤلفون هذه السرية » .

فقد قدم أبو براء - سيد قبائل بني عامر - إلى النبي صلى الله عليه وسلم
ومعه هدايا ، وطلب من النبي أن يبعث معه بعض رجال من الصحابة إلى أهل
نجد فخاف النبي على أصحابه أن يغدر بهم أهل نجد ورفض الهدايا ، كما رفض
أن يبعث برجاله ، ولكن أبا براء أجازهم وضمن سلامتهم ، فبعث النبي معه
سبعين رجلاً من خيار المسلمين ، فلما وصلوا إلى بئر معونة وجدوا أنفسهم
محاصرين بجيش كبير ، وضربت أعناق الرجال الأبرار الذين كانوا يحملون
رسالة السماء ولم يفر منهم إلا كعب بن زهير وعمرو بن أمية ، فبلغ النبي خبرهم
فوجد لهم أشد الوجد وحزن عليهم أعظم الحزن وقال : هذا عمل أبي براء ،
فقد كنت لهذا كارهاً متخوفاً ، فبلغ أبا براء ما قاله النبي ﷺ فمات عقب
ذلك أسفاً على ما صنع ابن أخيه عامر بن الطفيل .

ووقعت مأساة كهذه في الرجيع - وهو اسم ماء لذيذ بين مكة وعسفان (١)
غير أن وقوع هاتين الحادثتين المؤلمتين اللتين تركتا في النبي ﷺ
أعمق الأسى والحزن لم يمنع النبي من المضي في خطته هذه ، وإرسال القراء
إلى القرى العربية للقيام بإفهام المسلمين مبادئ الدين ، وإفهام المشركين
أنهم لن يزعموا عقائد المسلمين عن طريق الغدر والخيانة التي يمتقها هذا
الدين ولا يقرها ولا يعتمد عليها ، ويحل محلها وسيطة من وسائل الاتصال
بالناس سعياً وراء نشر الدين وغرس الفضائل الحقيقية التي يغرستها في نفوس
المسلمين ، وهي طريقة العلاقات الإنسانية .

ثانياً : ونعني بها المصاهرات التي عقدها الرسول مع بعض الصحابة
من جانب ، وبعض القبائل العربية من جانب آخر .

(١) بئر معونة : مكان ببلاد قبيلة هذيل بين مكة وعسفان .

فقد أصهر النبي إلى بكر وعمر وإلى عثمان ، كما أصهر النبي إلى بعض القبائل العربية ، ليس ذلك لرغبة في اللذة أو الرغبة في المال أو الجاه أو السلطان أو غير ذلك من الأغراض التي تدفع الناس إلى الزواج ، ولكن لتقوية الروابط بينه ﷺ وبين جميع هؤلاء .

وصحيح أن الناس في عصرنا هذا قد لا ينظرون إلى المصاهرة بمثل هذه النظرة ، ولكن يرون الملوك والرؤساء في جميع عصور التاريخ يعتقدون بهذه الزيجات لتقوية العلاقات الودية بين دولتين من الدول ، أو بلدين من البلاد ، ويرون بأعينهم أن لهذه الطريقة أكبر الأثر في الوصول إلى هذه النتائج ، وفي حياة الرسول ﷺ شواهد كثيرة على صدق ما نقول ، ونكتفي منها بشاهد واحد يغني عن بقية الشواهد الأخرى ، ويتضح ذلك في غزوة بني المصطلق .

وقعت هذه الغزوة في السنة الخامسة للهجرة . وبني المصطلق فرع من فروع خزاعة ، وهي قبيلة مرتبطة مع النبي برباط تحالف وثيق ، كان سيدهم الحارث من بني ضرار ، وكان يجمع الجيوش لقتال المسلمين ، وكان ذلك في الأعم الأغلب من تحريض قريش . فسمع النبي بذلك واستوثق من صحته ، فأسرع إلى الخروج من المدينة ليأخذ جيوش الحارث على غرة ، ففر الحارث بجيشه ولكن سكان المكان الذي يعيش فيه الحارث - واسمه المريسيع ، ويبعد تسعة أيام من المدينة أبوا على أنفسهم إلا أن يحاربوا المسلمين ، فانهزموا ووقع في أيدي المسلمين منهم ستمائة أسير ، كان من بينهم جويرية بنت الحارث ، فدفع النبي فديتها فطلبت منه الزواج بها فتزوجها . فلما اشاع خبر زواجها من الرسول ﷺ أطلق المسلمون من بأيديهم من الأسرى إكراماً لمصاهرة النبي إلى بني المصطلق .

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : « لقد أعتق بزواج الرسول من جويرية أهل مائة بيت من بيوت بني المصطلق ، فما أعلم امرأة أعظم على قومها بركة من هذه المرأة » .

(١) عبد الوهاب جوادة . ساعات حرجة في حياة الرسول ، ص ١٠٢ - ١١٣ .

ثالثاً : وكما كان الرسول ﷺ نموذجاً أعلى للعلاقات الإنسانية -
كما رأينا - فكذلك كان صحابته من بعده :

ولعل حاكماً من الحكام لا يرام منه أن يبلغ في البر بمخالفه في الدين
مبلغاً أكرم ولا أرفق مما وصل إليه عمر ، فقد أجرى الصدقة على فقراء اليهود
والنصارى ، ومن ذلك كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد : أنه أجرى
الصدقة على شيخ يهودى مكفوف البصر ، وقال في ذلك : ما أنصفناه أن
أكلنا شبيبته (١) ثم نخذه عند الهرم .

وقد جعل ذلك سنة فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوزين . فمر في
أرض دمشق بقوم مجذمين (أى مصابين بمرض الجذام) من النصارى فأمر
بإعطائهم من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت ، وله - رضى الله عنه -
في هذا الباب نوادر وأخبار لا يتسع لذكرها هذا الكتاب .

ألا ما أعظم العلاقات الإنسانية وما أقوى سرها وما أنبل مقصدها في
مجال الإعلام والاتصال بالناس ! وصدق من قال : إن شرف الوسيلة من
شرف الغاية التي تهدف إليها .

(١) أكلنا شبيبته : بمعنى انتفعنا به أو انتفعت الدولة به في شبابه حتى هزم :

الباب الثاني الدعوة في عهد الرسول وأَسَالِيبُ نَجَاحِهَا

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَن لَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تَطْعَمِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » .

(صدق الله العظيم)

تمهيد

الدعوة والإعلام والدعاية في الإسلام

مما لا ريب فيه أن الإسلام كان ثورة كبيرة اعتمدت في نجاحها على طريقين لا ثالث لهما . وهما :

الكلمة من جهة ، والسيف من جهة ثانية ، وسننظر في هذا البحث إلى غزوات النبي ﷺ على أنها كانت هي الأخرى ضرباً من ضروب الدعوة لنشر الإسلام ، وقد ثبت من التاريخ أن هذه الغزوات التي قام بها الرسول ﷺ لم تكن لها غاية وراء ذلك .

أجل - انتشرت دعوة الإسلام بالوسائل المعروفة في ذلك الوقت ، ولـكن كان القدماء منذ ظهور الرسول لا يعرفون هذا المصطلح الحديث: مصطلح الإعلام والاتصال بأنواعه الثلاثة: الشخصي والجمعي والجهاهيري. واستخدموا مكانه المصطلح المعروف عندهم وهو مصطلح الدعوة، والدعوة إلى شيء هي الترغيب في هذا الشيء. أو بمعنى آخر الدعاية له. ونحن لانسيء إلى الدين إذا قلنا أن العمل الذي قام به الرسول الكريم من أجل هذا الدين هو دعاية طيبة له ما دامت الدعاية في ذاتها لها معنيان على الأقل: الدعاية الطيبة أو البيضاء. والدعاية الخبيثة أو السوداء ، ونحن نعلم علم اليقين أن الرسول كان مسئولاً أمام ربه عن عمل واحد فقط هو الإعلام أو التبليغ ، قال تعالى : « إن عليك إلا البلاغ » وقال تعالى : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء » والخلاصة أننا مع القدماء في إطلاق اسم (الدعوة) على الجهود التي بذلها الرسول ، ولسنا نميل إلى تسمية هذه الجهود النبوية بغير هذا الاسم وهو (الدعوة) بمعنى الاتصال والدعاية لهذا الدين. حتى يعرفه الناس .

وقد مارس الرسول طائفة من طرق الدعوة والاتصال بالناس في سبيل نشر الدين ، ويشرح هذا البحث كيف نجح الرسول في كل ذلك نجاحاً منقطع النظير ، وكيف أن الله تعالى زوده بجميع الأخلاق التي لا بد منها للداعى إلى هذا الدين الجديد ، وربما كان من أولى الصفات التي يحتاج إليها الداعية المثالي صفة (الصدق في القول) وصفة (الصبر على العمل) . ونحن نعلم جيداً أن الجهود التي بذلها الدعاة ورجال الإعلام والاتصال بالجماهير لا تكفل بالنجاح ما لم تعتمد على قاعدة الصدق بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ؛ ولذلك كانت هذه الصفة من أولى صفات الرسل والأنبياء كما حدثنا القرآن الكريم .

وكان ﷺ مثلاً أعلى في هذه الصفة بنوع خاص ، ومن أجل هذا صدقه العرب حين جاءهم برسالة السماء ؛ بل من أجل ذلك لم يكن عبثاً ولا من قبيل الصدف أن وجدنا محمداً عليه الصلاة والسلام في بداية المرحلة العلنية من مراحل الدعوة الإسلامية يقف بين أهله وعشيرته ويبدأ الحديث معهم بقوله لهم :

هل سمعتمونى يوماً أقول كذباً ؟ قالوا : لا ، إننا لم نعرف عنك غير الصدق ، ثم سألهم : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقوننى ؟ قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم . ثم أدلى لهم بالرسالة التي بعثه الله بها على الفور .

معنى ذلك في نظر رجل الإعلام أن الاتصال بالناس لا يقوم إلا على الثقة التامة بين مصدر الرسالة من جهة ، والجمهور الذى يتلقى الرسالة من جهة ثانية .

ومعنى ذلك أيضاً أن الإعلام بمعناه السليم هو تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات الصحيحة والحقائق الثابتة التي تساعد الناس على تكوين رأى صائب في واقعة من الوقائع ، أو مشكلة من المشكلات ، فإذا نخلت هذه العملية الإعلامية من الصدق لم تصبح إعلاماً بالمعنى الصحيح ،

بل هي نوع آخر ، كأن تكون تضليلاً للجمهور ، أو مؤامرة سوداء ضد هذا الجمهور ونحو ذلك ، وقد برئت الدعوة الإسلامية من مثل هذه الصفات ، ولذا كتب لها النجاح التام ، ذلك أن محمداً كان كما قلنا - مثلاً أعلى في الصدق إلى الحد الذي جعل العرب يصدقونه في كلامه ، ولو جاء بخبر السماء .

والذي نريد أن نخلص إليه من هذا الحديث الذي سقناه إلى الآن هو أن ما قام به الرسول من الجهود لنشر الإسلام كان (إعلاماً) صرفاً بلغة العصر الحاضر ، (دعوة) صادقة بلغة المسلمين في العصور التي سبقتنا ، وحسبنا أن نعرف أنه كان من أهم الوسائل الإعلامية التي أتيت للرسول إذ ذاك وسيلة (القرآن الكريم) والقرآن الكريم (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) ، ثم في عهد الخلفاء الراشدين انقطع الوحي ، وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى فانقطع بذلك مصدر ثان من مصادر الإعلام والاتصال بالناس على أحسن صور هذا الاتصال ، وهذا المصدر الأخير هو الرسول نفسه ، ولكن القرآن الكريم والحديث بقيا بعد وفاة النبي نبراسا لجميع المسلمين منذ عصر الخلفاء الراشدين يعتمدون عليهما في هداية المسلمين وجذبهم إلى المثل الأعلى .

ثم أضيف إلى هاتين الوسيلتين من وسائل الإعلام وهما القرآن والسنة وسائل أخرى مارسها الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم من الملوك والسلاطين قد شرح البحث أمثلة منها ، غير أننا سنرى بوضوح أن تلك العصور التي أتت بعد الرسول لم تعد قادرة على الاعتماد على الإعلام وحده من ضروب الاتصال بالناس - ولكنها احتاجت إلى الاعتماد على (الدعاية) . معنى ذلك أن الخلافة في الإسلام لم تجد لها غنى عن هذه الوسيلة التي يحتاج إليها كل نظام جديد من أنظمة الحكم في أي زمان ومكان ، ومن ثم كان الفرق عظيمًا بين (الدعوة) في عهد الرسول (والدعاية) في عهد الخلفاء

والملوك والسلاطين ، غير أن الاعتماد على الدعاية وحدها لم يظهر بوضوح كما ظهرت منذ نشوء الدولة الأموية ثم العباسية ثم الفاطمية ، أو بمعنى آخر منذ تحولت الخلافة الإسلامية إلى ملك عضوض كما يقول المؤرخون السابقون .

والذى لاشك فيه أن الدعاية قوة سياسية كبيرة فى وسعها أن تقيم دولاً وأن تهدم أخرى ، وفى وسعها أن تنشر مذهباً وأن تقتل آخر ، ومن ثم كانت الدعاية هى الدعامة التى قامت عليها جميع الدول الإسلامية منذ أن انتهى العهد بدولة الخلفاء الراشدين ، وكان من أقوى العوامل التى جعلت للدعاية كل هذه القوة والأهمية انقسام المسلمين إلى فرق دينية وحرص كل واحدة منها على أن تظهر على جميع الفرق الأخرى ، فلقد كانت الدولة الأموية عثمانية الهوى تكره علماً وأولاده وأتباعه كل الكراهية ثم جاءت الدولة العباسية فكانت تتظاهر بالتشيع لآل البيت أول الأمر حتى إذا نجحت فى الوصول إلى غايتها اتخذت من (الاعتزال) مذهباً لها ، ودعت له وحاربت جميع المذاهب المخالفة ، ثم فى عهد الفاطميين كان المذهب الشيعى هو المذهب الذى اعتنقته الدولة ، ثم جاء صلاح الدين فأعاد الناس إلى المذهب السنى وهكذا . . .

والنتيجة التى نخرج بها من هذا الحديث هى أن الفرق عظيم بين الدعوة والإعلام ، والدعاية . فالدعوة هى الجهود التى يبذلها أصحاب الأفكار الجديدة أو العقائد الجديدة أو المذاهب الجديدة ومن أعظم الأمثلة عليها الدعوة التى أتى الرسول لنشرها وهى دعوة الإسلام ، والإعلام هو الجهود التى يبذلها الناس لتأييد هذه الأفكار أو العقائد أو المذاهب . . . ومن ذلك جميع الجهود التى بذلها الخلفاء الراشدون — وكلهم من صحابة النبى وحواريه — فى تثبيت هذا الدين الجديد وذلك بعد أن فرغ الرسول من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة والقيام بالدعوة على أحسن وجه . والدعاية هى الأسلوب الذى يروج لفكرة أو عقيدة أو مذهب أو يدحض كل ذلك عن طريق التأثير

في عواطف الفرد أو الجماعة واستهواها بقدر المستطاع ، ومن ذلك ما فعلته الخلافة الأموية وما تلاها من الحكومات الإسلامية على اختلافها إلى اليوم . ولقد قامت كل من الدعوة والإعلام والدعاية على فن الاتصال بالغير ، وهو أنواع ثلاثة - الاتصال الشخصي والاتصال الجمعي والاتصال بالجمهور . والعصور القديمة هي التي عرفت النوعين الأولين الشخصي والجمعي . والعصور التي نعيش فيها هي التي انفردت بالاتصال بالجمهور ، وذلك منذ اختراع الوسائل الحديثة للإعلام مثل الصحف والراديو والتلفزيون وهي الأجهزة التي تستطيع الاتصال بالجمهور التي تعد بالملايين .

معنى ذلك باختصار أن الاتصال في الإسلام مر بهذه الأطوار الثلاثة :

الأول : طور الدعوة الإسلامية ، وهو خاص بحياة النبي ﷺ وبه سميت جميع الجهود التي بذلها في سبيل هذا الدين الجديد .

الثاني : طور الإعلام وبه سميت معظم الجهود التي بذلها الخلفاء الراشدون وهم الذين كانت حياتهم في جملتها صورة من حياة الرسول ، أو على الأقل حرصوا كل الحرص أن تكون حياتهم كذلك .

الثالث ، طور الدعاية - وعليه قامت الخلافة الإسلامية والممالك والإمارات في الإسلام منذ معاوية بن أبي سفيان رأس الخلافة الأموية إلى يومنا هذا .

أجل - كان الطور الأول من أطوار الاتصال في الإسلام هو طور الدعوة ، ونريد أن نستشهد على ذلك بالقرآن الكريم نفسه - فنحن إذا تتبعنا القرآن نفسه من حيث تاريخ النزول وجدنا أن أول سورة نزلت على الرسول هي سورة (اقرأ) وهي السورة التي أعلمته صلوات الله وسلامه عليه بالرسالة ، وبأنه مبعوث من قبل الله تعالى لنشر دعوة جديدة وهي الدعوة إلى الإسلام . .

ثم تلتها في النزول سورة المدثر وفيها يقول الله تعالى ، « يا أيها المدثر »

قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر *
ولربك فاصبر .

ولا بأس من الوقوف قليلا أمام هذه السورة الكريمة لأن فيها إشارة إلى تكليف الله تعالى رسوله محمداً بنشر الدعوة وفيها إشارة أيضاً إلى الأسلحة التي لا بد له صلى الله عليه وسلم من أن يتسلح بها في القيام بهذا العمل .
ففي قوله تعالى : (قم فأنذر) أمر من الله تعالى لرسوله بأن ينذر الناس بمعنى القيام بإعلامهم وتنبيههم إلى الدعوة الجديدة ، وذلك أن الإنذار في اللغة هو الإعلام والتنبيه وليس معناه الإرهاب والتخويف .

والدليل على ذلك أن الإسلام في أول خطوة من خطواته ليس بحاجة إلى هذا المعنى الأخير ، والرسول نفسه لا يستطيع أن يفتح رسالته على هذا النحو .

ثم في قوله تعالى : (وربك فكبر) أمر من الله تعالى لرسوله أن يكبر ربه ويعظمه ويقدسه ، فهذه هي العقيدة الجديدة التي بعث بها رسوله .

ثم في قوله تعالى : (وثيابك فطهر) أمر من الله تعالى لنبيه أن يقوم بتطهير نفسه من جميع الآثام والمعاصي وأن يحررها من كل دنس ، والعرب تقول فلان طاهر الثوب ، أو الذيل كناية عن أنه شريف طاهر النفس وذلك أنه لا يلزم الإنسان في جميع أطوار حياته ملازمة تامة شيء مثل ثيابه ، فكأنها عنوان لذاته .

ثم في قوله تعالى : (والرجز فاهجر) ونرى أن الرجز في اللغة هو العذاب والمقصود هنا البعد عن الآثام والمعاصي التي تسبب للإنسان العذاب في الدنيا والآخرة ، فهي في الدنيا تملك الجسم ، وتبديد القوة والعافية وتهلك كيان الإنسان وتوهن القوى ، وفي الآخرة تعرض المرء لعذاب جهنم .

ثم في قوله تعالى : (ولا تمنن تستكثر) أمر من الله تعالى لرسوله الأمين (ألا يضعف) لأنه إذا أظهر الضعف أمام هذه الرسالة أخذ يستكثر أعبياءها ويستطيل طريقها ويظن نفسه غير قادر عليها بحال من الأحوال .

ثم في قوله تعالى لرسوله (ولربك فاصبر) أمر آخر من الله تبارك وتعالى لرسوله أن يصبر على أعباء الرسالة ويوطن نفسه على تحمل هذه الأعباء ولا سبيل له غير ذلك .

يقول الأستاذ عبد الوهاب حمودة تعليقاً على هذه السورة الكريمة
ما معناه :

إن نجاح أى دعوة من الدعوات إنما يكون بطريق الاتصال المباشر بشرط أن يتسلح الداعى بأسلحة ثلاثة :

الأول : سلاح العقل الذى يهذى صاحبه إلى الدعوة الجديدة أو العقيدة الصحيحة وهى هنا فى سورة المدثر عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام .

والثانى : سلاح النفس بمعنى تحريرها من الأخلاق السيئة والعادات الذميمة التى كان عليها العرب فى الجاهلية وقت ظهور الدعوة :

والثالث : سلاح البدن وذلك بحمايته من الآثام التى تهلك الأجسام وتهلك كيانه وتوهن من قوتها فلا يستطيع صاحبها أن يقوم برسالة أو ينشر دعوة ،

ويضاف إلى ذلك أن السورة الكريمة أشارت إلى سلاح رابع له أهميته وخطره فى هذا المجال ، وهذا السلاح الرابع والأخير هو سلاح الصبر وبدونه لا يستطيع نبي أن يؤدى رسالته ولا يقوى زعيم من الزعماء على أن ينفذ خطته .

وننظر بعد ذلك نظرة إجمالية فى الآيات القرآنية التى تحمل معنى (الدعوة) فنجد بعض هذه الآيات نزلت بمكة المكرمة حيث كان النبي ﷺ يجاهد المشركين فى ظلام ويلقى منهم من ألوان العنت والتعذيب ما تمتلىء به كتب السيرة ، ومن هذه الآيات قول الله تبارك وتعالى :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وقوله : « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لى شك منه مريب »
فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله

من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير .

والآيات المكية كلها تدعو إلى نشر العقيدة الجديدة بالطرق السلمية ،
أما الآيات المدنية فقد نزلت على الرسول الأعظم بالمدينة المنورة بعد أن
أصبح في ذروة القوة ولهجتها مغايرة للهِجَة الآيات التي نزلت عليه في مكة
المكرمة ومنها :

« وقل للذين أتوا الكتاب والأمينين أسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (سورة آل عمران آية ٢٠) :
وقوله تعالى : « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا ينزعك في الأمر ، وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم . وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون » (سورة الحج ٦٧ - ٦٨) .

وقد أتى الأستاذ أرنولد بمعظم الآيات السابقة ثم قال : (١)

ينبغي ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في مآثر المحارب المسلم - ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه وحمل القرآن الكريم في اليد الأخرى ، وإنما نلتمسها في تلك الأعمال الودية الهادئة التي قام بها الدعاة الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض وقد جاء بها القرآن الكريم مشدداً في الحض على هذه الطرق السلمية كما يدل على ذلك قوله تعالى :

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلًا * وذرفني والمكذبين أولى
النعمة وأمهلهم قليلًا » (سورة المزمل آية ١٠ - ١١) .

وقوله تعالى : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » (سورة الجاثية آية ١٤) .

(١) توماس أرنولد - الدعوة إلى الإسلام - ترجمه إبراهيم وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوى ص ٢٨ .

وقوله تعالى : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » (سورة النحل آية ٣٥) .

وقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » (سورة العنكبوت آية ٤٦) .

وقوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (سورة يونس آية ٩٩) .

كل هذه الآيات المتقدمة في الحوض على الطرق السلمية نزلت على الرسول ﷺ بمكة المكرمة ، وبالمدينة المنورة نزلت عليه آيات في هذا المعنى ومنها قوله تعالى :

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .
(سورة النور آية ٥٤)

على أن الدعوة التي بعث بها محمد - وهي دعوته للإسلام لم يقصد بها العرب وحدهم دون غيرهم ، بل كانت دعوة للناس كافة ، لا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم من الأمم .

فانظر إلى قوله تعالى في وصف القرآن الكريم :

« إن هو إلا ذكر للعالمين » . (سورة ص ، الآية ٨٧)

وقوله تبارك وتعالى : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » . (سورة الفرقان الآية ١)

وقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . (سورة سبأ الآية ٢٨)

وقوله تعالى : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » .

(سورة الأعراف الآية ١٥٨)

الفصل الأول المرحلة السريّة

تقول دائرة المعارف البريطانية في مادة (قرآن) « جاء محمد بدعوة جديدة هي دعوة الإسلام ، وكان هذا الرسول أوفر الأنبياء والشخصيات الدينية حظاً من النجاح . فقد أنجز في عشرين عاماً من حياته ما عجزت عن إنجازه قرون من جهود المصلحين اليهود والنصارى رغم السلطة الزمنية التي كانت تساند هؤلاء ، ورغم أنه كان أمام الرسول تراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والقمار ومعاقرة الخمر ، واضطهاد الضعفاء ، والحروب الكثيرة بين القبائل العربية ومئات الشرور الأخرى » .

هذا ما جاء في دائرة المعارف البريطانية نقلناه بنصه ؛ ونضيف إلى ذلك أن هذا النجاح الكبير الذي صادفه الرسول لم يتم إلا بتوفيق من الله تعالى وبوسائط إعلامية كثيرة مارسها الرسول ، وكانت من رسم القرآن الكريم ووحيه وتخطيطه في أكثر الأحيان كما اتضح لنا ذلك في الباب الأول من أبواب هذا الكتاب ، وكما سيتضح لنا كذلك في فصول الباب الثاني ، وتحدثنا كتب السيرة أن هذه الدعوة سارت في أربع مراحل بنوع خاص وهي :

- ١ - مرحلة الدعوة السرية .
- ٢ - مرحلة الدعوة العلنية .
- ٣ - مرحلة الاضطهاد الديني في مكة المكرمة .
- ٤ - مرحلة الهجرة .
- ٥ - مرحلة الاستقرار بالمدينة .

(م ٨ - الإعلام في صدر الإسلام)

وبدأ النبي حياته بالمدينة بسياسة رشيدة لا نعلم لها نظيراً في أى عصر من عصور التاريخ البشرى ، وقد بنيت هذه السياسة على أمرين :

الأول : حركة المؤاخاة بين المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، والأنصار الذين هم السكان الأصليون بالمدينة المنورة والذين استقبلوا النبي أروع استقبال كما سيأتى ذكر ذلك .

والثانى : حركة التعايش السلمى بين المسلمين واليهود المقيمين بالمدينة . وفى المدينة وبعد الاستقرار الذى أتى عقب الهجرة بدأت الغزوات أو الحروب التى دارت بين الرسول وأهل مكة ، ومن أهمها غزوة بدر ، وغزوة أحد وغزوة الأحزاب (أو الخندق) وفتح مكة وغزوة حنين ، وهى غزوات كان لا بد منها للمحافظة على الإسلام نفسه ، فلولاها لاستطاع المشركون فى مكة أن يثدوا الإسلام فى مهده .

غير أن الحديث عن هذه المراحل التى مرت بها الدعوة إنما يهم المؤرخين وكتاب السيرة بنوع خاص ، أما نحن فسننظر إلى هذه السيرة المحمدية من الزاوية الإعلامية ، أو بعبارة أخرى ننظر فى وسائل الاتصال أو الإعلام التى مارسها الرسول فى كل مرحلة من هذه المراحل ، وذلك بهدف واحد هو نشر الدعوة الإسلامية .

المرحلة السرية :

لم يؤذن لرسول الله أن يجهر بدعوته فى هذه المرحلة القصيرة وفيها لم يكن عمل القرآن إلا لإعلام الرسول نفسه بأنه مكلف من قبل الله تعالى بأداء رسالة من الله ، وذلك منذ نزل عليه ﷺ قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم » .
ومنذ ذلك الوقت علم محمد أنه مكلف بالرسالة .

ووصفت لنا كتب السيرة حالة الذعر والاضطراب التى كان يشعر بها الرسول منذ نزول هذه السورة ، وتحكى لنا كتب السيرة أيضاً كيف

رجع إلى زوجته خديجة وهو يقول لها : « زملوني دثروني » لها وبقي على هذه الحال حتى أفاق من نومه ورجع إلى حالته الطبيعية .

ثم نزل عليه قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكْبَرُ * وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ * وَالرَّجَزَ * فَاهْبِجْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

وقد سبق لنا أن شرحنا هذه السورة في فصل من فصول الباب الأول بعنوان « الاتصال المباشر » من وسائل الإعلام التي مارسها النبي ﷺ .

وإذ ذاك علم الرسول أنه مكلف من قبل الله تعالى بإعلام الناس بهذه الرسالة وتنبيههم إليها ، وكان من الأمور الطبيعية أن يكون هذا الإعلام في أول الأمر على نطاق ضيق - أعني نطاق الأسرة ونطاق الأصدقاء الخالصاء - ولذلك وجدنا أن أول من آمن بهذه الدعوة السيدة خديجة من النساء ، وعلى ابن أبي طالب من الصبيان ، وأبو بكر من الرجال .

ومهما يكن من شيء فقد كان لرسول الله في هذه المرحلة السرية ووسائل الاتصال أو الإعلام وهما :

١ - وسيلة القرآن الكريم .

٢ - وسيلة المؤمنين الأولين .

أما وسيلة القرآن الكريم فقد تحدثنا عنها ، وأما وسيلة المؤمنين الأولين فهم الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى :

« وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ » وهم دعاة الإسلام الحقيقيون في هذه المرحلة السرية من مراحل الدعوة ، ومن أشهرهم السيدة خديجة زوجة الرسول وأبو بكر الصديق الحميم وعلى بن أبي طالب ابن عم الرسول وزيد بن حارثة عتيقه ﷺ ، ووقف إلى جانب هؤلاء رجال كثيرون ، منهم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وبلال الحبشي ، وياسر (غلام السيدة خديجة) وزوجة ياسر واسمها نسيبة .

ثم كان من السابقين الأولين ، عبد الله بن مسعود وابن أبي الأرقم
الحزومي ، وكانت دار هذا الأخير - وهو ابن أبي الأرقم - مركزاً للنشاط
السري الذي كان يبذله الرسول من أجل الدعوة وذلك خلال سنوات أربع
منذ البعثة النبوية ، حتى ليتمكن أن يقال أنه في السنوات الثلاث الأولى من
هذه الفترة بلغ عدد الذين دخلوا الإسلام أربعين رجلاً وامرأة .

وفي السنة السادسة دخل الإسلام حمزة عم النبي وأخوه في الرضاع
وعمر بن الخطاب وبه قوى ساعد المسلمين كما اعترف بذلك الرسول ، وقد
بذل الجميع أقصى الجهود في سبيل نشر الدعوة الإسلامية بهذه الطريقة
السرية وكانت وسائلهم في كل ذلك (القدوة الحسنة) التي سبق أن قلنا
أنها كانت من أقوى وسائل الإعلام في الإسلام ، وضربنا عليها المثل
بأبي بكر الذي دخل معه في الإسلام هؤلاء الذين ذكرناهم عندما أشرنا إلى
عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ... إلخ .

فقد أسلموا جميعاً على يد أبي بكر الصديق ، وكانوا جميعاً من
السادة المعروفين في الجاهلية .

أما العبيد فقد اشترى أبو بكر عدداً كبيراً منهم بالأثمان الباهظة التي
طلبها سادتهم ثم أعتقهم جميعاً بعد ذلك ، ودعاهم إلى دخول الإسلام
فدخلوا طائعين مطمئنين .

كل ذلك وأهل مكة من كفار قريش لا يحسون بحركات الرسول أو
على الأقل - لا يعبأون بها ولا يقدرون نتائجها ، وبالفعل لو وقف الأمر
عند هذا الحد لكان الأمر على قريش ، ولما التفت عبدة الأصنام إلى هذا
الخطر الداهم الذي يكمن وراء هذه الدعوة السرية مهما كان عدد الرجال
المشتغلين بها ، ومهما كانت أقدار هؤلاء الرجال المنتمين إليها .

لقد كان من وراء كل رجل من أولئك الرجال الذين بادروا إلى قبول

الدعوة قصة عجيبة من القصص التي عنيت بها كتب السيرة ، ولكن البحث في الدعوة الإسلامية من الزاوية الإعلامية لا يعطينا الفرصة لإيراد هذه القصص الواقعية التي تقترن بكل شخصية من هذه الشخصيات الإسلامية القوية التي كانت من الشجاعة والجرأة بحيث تركت ما كان يعبد آباؤها من الأصنام واستهانت بهذا التراث الضخم من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والميسر ، ومئات الشرور الأخرى كما جاء في دائرة المعارف البريطانية .

* * *

الفصل الثاني المرحلة العلنية

بقيت دعوة الإسلام تسرى في النفوس بقوة القرآن وشخصية الرسول ، وكل ذلك في نطاق سرى حتى نزلت على الرسول سورة من السور المكية وفيها قوله تعالى :

« وأنذر عشيرتلك الأقربين * وانخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » (١) .

وإذ ذاك علم الرسول أن الله تعالى يأمره بتوسيع رقعة الدعوة بعض الشيء ، ففي هذه الآية الكريمة أمر من الله تعالى بأن يخرج الرسول من نطاق الدعوة السرية إلى نطاق الدعوة العلنية .

وينظر رجل الإعلام في هذه المرحلة فيجد أنه قد أضيفت إلى الوسيلتين السابقتين من وسائل الإعلام في المرحلة السرية - وهما وسيلة القرآن ووسيلة المؤمنين الأولين - وسيلتان أخريان وهما :

١ - وسيلة الخطبة النبوية .

٢ - وسيلة الاتصال المباشر بجمهير الناس ، وذلك بأن يعرض ﷺ نفسه على القبائل العربية ، ومنذ ذلك الوقت بدأت الثورة ، وبالوسيلة الأولى من وسائل الإعلام في المرحلة العلنية وهي وسيلة الخطبة النبوية ألقى النبي ﷺ البيان الأول لهذه الثورة - فقد صعد رسول الله ﷺ يوماً جبل (الصفا) ونادى بأعلى صوته : يا معشر قريش - قالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، وأقبلوا عليه يسألونه ماذا يريد ؟ فقال الرسول الأعظم : هل سمعتموني ذات يوم أقول كذباً ؟ فأجاب الحاضرون بصوت واحد :

(١) سورة الشعراء الآيتان ٢١٤ ، ٢١٥ .

لا... لم نعرف منك غير الصدق ؛ ثم سألهم الرسول : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً يسفح هذا الجبل - أكنتم تصدقونني ؟ فقال الجميع : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط .

هنا استجمع الرسول الصادق الأمين كل قوته وقال لهم :
فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد ، ثم صاح بأعلى صوته وقال :
يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني زهرة
يا بني تميم يا بني مخزوم يا بني أسد
إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وإني لأملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن تقولوا « لا إله إلا الله » .
ثم أكمل بيانه هذا بأن دعاهم إلى نبذ الوثنية ، واجتناب الفواحش والإيمان بوحدة الله وانتهاج سبيل الخير .

وذلك هو البيان الأول - كما قلنا للثورة الجديدة - بلغة العصر الذي نعيش فيه .

فيالها من دعوة خطيرة اهتزت لها أرجاء مكة ، وأشعل بها الرسول أول شعلة أضاءت ظلمات الجاهلية ، ولكنها بعثت الحق والغيظ والكمند والغيرة في نفوس القرشيين - وخاصة الزعماء منهم - وكلهم أقرباء الرسول وعشيرته ، وكان أكثرهم حقداً عليه عمه (أبو لهب) وزوجته .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت الخطبة النبوية من أقوى أسباب الدعوة الإسلامية ، ومما لا شك فيه أن هذه الخطبة الأولى أو البيان الأول للثورة قد تبعته خطب كثيرة دعت إليها الظروف الجديدة - كما دعا إليها وقع البيان الأول على نفوس القرشيين ، وقد أخذ هؤلاء يسأل بعضهم بعضاً عن هذه الدعوة الجديدة وعن الأسباب التي حملت محمداً للجهر بها من دونهم وعن الغاية التي يهدف إليها من وراء ذلك ؟ فهل يهدف إلى نوع من السيطرة عليهم في مكة المكرمة ثم فيما حوّلها من المدن الأخرى ؟

أم هل يريد أن يستكثر من الأنصار والأتباع لغرض آخر من الأغراض الدنيوية التي يعرفونها في حياتهم ؟

مما لاشك فيه أن الناس انقسموا في أمره قسمين فمنهم من استنكر نداءه وأيقن في نفسه أنه سيرجع عن هذا النداء في أقرب الأوقات وهم الأكثرية ، ومنهم من أحس لبيانه وقعاً جميلاً في أعماق نفسه ولكنه خشى أن يجاهر في قومه بهذا الشعور .

ولذلك تتابعت خطب النبي في هذه المرحلة ، وتتابع نزول الوحي الذي رسم له سبيلها وخطتها ، ومن ذلك قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

وهكذا رسمت هذه الآية الكريمة للرسول العظيم طرق الدعوة العلنية وهو في مكة المكرمة ، وهى طريق الحكمة أو استخدام العقل فى أكمل صورته ، وطريق الموعظة الحسنة أو إبداء النصيح بإخلاص وصدق ، وفى شىء كثير من إظهار الحب والمودة .

وطريق الجدل بالتى هى أحسن أو التحدث إلى القوم بالحسنى ، وذلك فى يسر وهدوء وبتقديم البراهين والأدلة . وقد سار الرسول فى دعوته على هذا النهج ، واستمال إليه قلوب العرب حتى استجاب له الكثيرون منهم .

عرض الرسول نفسه على القبائل العربية

أما الذريعة الأخرى من ذرائع الإعلام فى هذه المرحلة العلنية فهى ذريعة الاتصال الشخصى المباشر بالعرب المقصودين بهذه الدعوة . وبعبارة أخرى ، هى عرض الرسول نفسه على القبائل العربية .

وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الوسيلة من وسائل الإعلام فى صدر الإسلام وذلك فى الباب الأول ، ولاشك أنها كانت من أخطر الذرائع الإعلامية فى عصر تفتشت فيه الأمية ، وانعدمت فيه وسائل الإعلام بالمعنى الذى نفهمه فى العصور الحديثة .

ومما لاشك فيه أن الاتصال المباشر بالناس كان ميسوراً في ذاته إبان العصور القديمة كلها ، وذلك لقلة الناس من حيث العدد وإن قلت طرق المواصلات التي كان في استطاعتها أن تساعد على هذا الاتصال الشخصي .

لم يكن في مكة مطبعة تخرج كتاباً ولا صحيفة ولا مذياع ينشر أخباراً أو بيانات ، لكن كان بمكة رواة ينقلون الأشعار والأخبار من مكة إلى كل مكان ، وكان بها منادون لا يكادون يبرحون الأسواق العامة . وبالرغم من جميع هذه الصعوبات المادية ، فقد وجدنا الرسول يشق على نفسه كثيراً في ممارسة هذه الذريعة التي لا بد منها من ذرائع الإعلان والاتصال بالناس ، فكان يذهب إليهم في أماكنهم ، وكان يلتقي ببعضهم في موسم الحج ، ولذلك لقي الرسول من هذه الذريعة الأخيرة من ذرائع الإعلام ، وهي ذريعة الاتصال الشخصي ، كل عنت وإبداء ومشقة وذلك إلى الدرجة التي هي فوق طاقة البشر .

فسكر الرسول ذات يوم في الذهاب بنفسه - كما سبق أن ذكرنا ذلك - إلى ثقيف بالطائف ، وذلك ليعرض نفسه عليهم فما كان من آل ثقيف إلا أن أساءوا استقباله وعاملوه أسوأ معاملة ، وبالغوا في ذلك أقصى درجات المبالغة ،

وإلى ذلك الوقت كان يقف وراء النبي يسانده زوجته خديجة وعمه أبو طالب ، وكان العرب يخشون هاتين الشخصيتين الكبيرتين ويعملون لهما حساباً كبيراً - فلما ماتا هان محمد على العرب ، وظهر ذلك في حادث الطائف الذي مر ذكره ومع ذلك فإن ثقة النبي في ربه وفي نفسه لم تهن ولم تنزعزع .

خرج النبي إلى الطائف لعله يجد فيهم من يستجيب لدعوته وينصره على قومه وعشيرته ، ولم يكن يصحبه في رحلته إلى الطائف أحد من أصحابه ، والطائف مدينة صغيرة حصينة على بعد سبعين ميلاً من مكة تسكنها قبيلة ثقيف .

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى هذه المدينة قصد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة هذه القبيلة فعرض عليهم الإسلام - ولكن نخاب فأله -

فقد أعاروه جميعاً أذنأ صماء ، وأقام بينهم عشرة أيام يخطب الناس ويتلو عليهم رسالته ولا من مجيب .

وكان مما احتج به أهل ثقيف على الرسول أن قالوا له : أعجزت عن أن تقنع قومك برسالتك فجئت إلينا لتقنعنا بها ؟

ولما وصلت الأزمة بينه وبينهم إلى هذه الدرجة طلبوا منه أن يغادر الطائف ، وما كاد الرسول يهيم بمغادرة المدينة حتى وجد أن أشرافها وسادتها قد أغروا به سفهاءهم يسبونهم ويصيحون به وقد اصطفوا على جانبي الطريق على مسافات طويلة في داخل المدينة فلما مر من بينهم جعلوا يرشقونه بالحجارة حتى أصابت الحجارة رجله وعقبه وسال منه الدم ، وكان كلما اشتد نزيف دمه وأعياه التعب جلس يستريح بعض الشيء ، ولكنهم لم يتركوه بل كانوا يأمرونه بمتابعة السير .

إذ ذاك اتجه الرسول إلى بستان لعتبة بن ربيعة ، وجلس في ظل شجرة وتحركت نفس عتبة شفقة عليه فبعث غلامه فقطف له شيئاً من عنب ، فلما وضع النبي يده فيه قال : باسم الله ، ثم أكل . فنظر الغلام دهشاً ثم قال : هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد ، فسأله الرسول عن بلده ودينه ، فلما علم أنه نصراني من (نينوى) قال له : أمن قبيلة الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فسأله الغلام : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال محمد : ذاك أخى كان نبياً وأنا نبي ، فأكب الغلام على محمد يقبل رأسه ، ويديه وأسلم .

ثم مضى النبي في رحلته والصبية والغلمان يتبعونه بالحجارة حتى وصل إلى شجرة يستظل بظلها ، وهناك اتجه إلى ربه قائلاً :

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، إلی من تكلمني ؟ إلی بعيد يتجهمني ؟ أم إلی عدو ملكته أمری ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

بهذه النفس الصافية الطيبة وبهذا الصبر الجميل والخلق الكريم قابل
الرسول قسوة البشر ولم ييأس قط من رحمة الله ، ولا من نصره وتأيدته ؛

وهذا مثال واحد فقط على ما كان يلقاه الرسول من عنت القبائل التي
عرض نفسه عليها ، أو التي كان يمارس معها وسيلة من الوسائل الإعلامية التي
هي من حق كل إنسان في الوجود من يوم خلق آدم إلى اليوم — وهي
وسيلة الاتصال المباشر .

على أن هذا وذاك يؤدي بنا إلى الحديث عن المرحلة التالية من مراحل
الدعوة ونعني بها مرحلة الاضطهاد الديني .

* * *

الفصل الثالث مرحلة الاضطهاد الديني

لا تعرف العظمة النفسية إلا في أوقات الحزن ، ولا يمتحن الكمال الخلق بشئ ع قدر ما يمتحن بالأزمات والمتاعب .
وقد مرت بالرسول مرحلة الاضطهاد الديني بمكة المكرمة ليلبوه الله في هذه العظمة النفسية والكمال الخلق ، ومن هنا كانت هذه المرحلة أعنف المراحل التي مرت في حياته ﷺ ، ولكنه قابل هذه المرحلة العنيفة بالصبر وإن كان لشدة حرصه على إيمان القوم يظهر كل الحزن للمعاملة التي عاملوه بها ، والأقوال الجارحة التي وجهوها إليه ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » ويقول تعالى : « ولا تحزن عليهم ولا تلك في ضيق مما يمكرون » .
وقوله تعالى : « ولا يحزنك قولهم » ، إن العزة لله جميعاً .
أجل كان محمد يكافح بأسلحة كثيرة من أولها وأقواها (سلاح الإيمان) وإن أشد ما يحتاج إليه الداعية هو (الإيمان) بالدعوة التي جاء بها وحرص شديد على نجاحها وانتشارها ، ولم نسمع في التاريخ بداع يعوزه الإيمان بدعوته والحرص على الغيرة على هذه الدعوة .

* * *

عجبت قريش من أن بعض العرب استجابوا لمحمد وخرجوا بذلك على إجماع أهل مكة وخذلوا بذلك هيبة القرشيين وتركوا ما كان يعبد آباؤهم وأجدادهم وآلت قريش على نفسها منذ ذلك الوقت على أن تعطى كل ما في وسعها للقضاء على هذه الدعوة في مهدها ، وهكذا قضت سنة الله بأن يكون حملة الهداية الإنسانية معرضين دائماً لأقصى ألوان العذاب :

وذلك تصديقاً لقوله تعالى :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » .

وكانت قریش تمارس هذا الاضطهاد والتعذيب مع النبي نفسه حيناً ومع أتباعه من الفقراء والمساكين. حيناً آخر ، وفي ذات يوم كان الرسول ساجداً عند الكعبة فالتى أبو جهل على رقبتة أحشاء ناقة مذبوحة ، وتبع أبا جهل في هذه الأعمال القبيحة غيره من أهل مكة. فكانوا يلقون في طريق النبي بالقاذورات والأشواك ، وبالع بغيرهم في إيذاء النبي حتى حاولوا أن يخنقوه بردائه حتى يموت ، وكاد بالفعل أن يموت لولا أن أدركه أبو بكر الصديق .

أما أتباع الرسول من العبيد فقد عرضهم القرشيون لأقصى أنواع الإهانة والتعذيب ، ومن أولئك العبيد عبد اسمه (بلال) أمره مولاه فاستلقى على الرمل المتقد تحت الشمس المحرقة في الصحراء ثم وضعت قطع ثقيلة من الحجارة على صدره وبقي على هذه الحال حتى أصبح مغشياً عليه وهو لا يقول إلا كلمة « أحد ، أحد » ولا يزيد عليها .

وبنفس هذه الطريقة بل بأقصى منها تولى القرشيون تعذيب عبد آخر من العبيد واسمه « ياسر » فقد شددت رجلاه إلى بعيرين ، ثم سيق البعيران في اتجاهين متضادين ، ومع هذا وذاك فلم يفلح المكيون في رد هؤلاء المسلمين المستضعفين عن هذا الدين الجديد ، بل زادوا عليه ثباتاً وبه إيماناً واستمسكاً ، وإذ ذاك لم يجد القرشيون بداً من التفكير في طريقة أخرى — ليس هناك ما هو أشد منها وأذكى — وهذه الطريقة هي (مقاطعة) النبي وأصحابه. وكتبوا بذلك صحيفة وأعلنوا فيها إجماعهم على المقاطعة وفيها — أى في هذه الصحيفة التي علقوها على أستار الكعبة أنهم لا يبيعون للمسلمين ولا يبتاعون منهم شيئاً ، وأنهم لا يزوجهنهم ولا يتزوجون منهم ، وأنهم يحرمونهم من وصول الأطعمة إليهم . فأما تعليقاتهم هذه الصحيفة المشؤمة على أستار الكعبة فكان الغرض منه أن تكتسب صفة القدسية .

ومع ذلك فحتى هذه الطريقة الوحشية في المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية لم تفلح في زعزعة المسلمين عن دينهم ، وتركهم لرسولهم في هذه الفترة الحرجة من فترات حياته .

إذذاك فكرت قريش في العدول عن هذه المقاطعة وذهبت تنزع الصحيفة من الكعبة ، فإذا بها قد أكلتها الأرضة ولم يبق من ألفاظها إلا لفظ باسمك اللهم .

في تلك المرحلة العصبية من مراحل الدعوة الإسلامية لم يكن في وسع النبي والمسلمين أن يسلكوا في سبيل دعوتهم وسيلة من وسائل الإعلام المعروفة غير (الوسائل السلبية) .

وذلك أننا يجب أن ننظر إلى مواقف المسلمين الرائعة في الثبات على دينهم وعقيدتهم ، وهي العقيدة التي تغلغت في أعماق قلوبهم إلى الحد الذي أياس منهم الكفار والمشركين .

وبهذه الطريقة السلبية التي ثبت عليها النبي والمسلمون المضطهدون استطاع هؤلاء أن يكونوا أشبه شيء بناقوس كبير يهدد الكفار والمشركين ويوقظ ضمير الإنسانية في كل مكان ، ويشعر المكين بأنهم أجرموا في حق المسلمين المستضعفين وبأنهم مهما قسوا عليهم فلن يتركوا دينهم ولن يخذلوا نبيهم ، ولن يفرطوا في عقيدتهم ، وفي هذا درس لهم وإعلام كبير بالرسالة التي نزلت على رجل منهم ، وإعلان عظيم عن هذه الرسالة التي آتى بها .

وهكذا نخلت مرحلة الاضطهاد الديني من أكثر الوسائل الإيجابية فيما خلا القرآن والحديث ، ولكنها لم تخل من الوسائل السلبية التي أثبت الزمن أنها لا تقل مطلقاً عن الوسائل الإيجابية من حيث القوة .

وقريب من هذه الوسائل السلبية في العصر الحديث إضراب زعيم مني أو طائفة من العمال والنساء عن الطعام حتى يحدثوا بهذا الإضراب تنبيها قويا لمصادر السلطة كالحكومة وغيرها - وذلك حتى تستجيب هذه المصادر للمطالب التي وقع الإضراب عن الطعام بسببها .

وماذا فعل الزعيم سعد زغلول في الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ حين نفاه الإنجليز أكثر من مرة في جزيرة سيشل أو في مالطة ؟ ثم ماذا فعل الزعيم غاندى بعد ذلك حين قاوم إنجلترا القوية بجيوشها وأساطيلها بالأسلحة السلبية .

إن التاريخ حافل بالأمثلة التي تدل على هذه الطرق السلبية من طرق الإعلام ؟

وعلى مقدرتها على القيام بوظائفها الإعلامية بنفس القدرة التي للطرق الإيجابية بل ربما زادت عنها .

* . *

غير أن الرسول نفسه كان في مرحلة الاضطهاد الديني من مراحل الدعوة مستمراً في نفس الطرق التي كان يسلكها في المرحلة السابقة ، ومنها ، أى من هذه الطرق ، طريقة الاتصال الشخصي والجمعي المباشرة وأكثر ما كان ذلك في موسم الحج من كل سنة .

وقد عرفنا في الباب الأول من أبواب الكتاب كيف أنه بطريق الحج اكتسب الإسلام شعبية أخذت تكبر مع الأيام شيئاً فشيئاً ، فقد كان الناس يتحدثون في الحج بما يجرى للرسول وأصحابه ويتسامعون بأخلاقه ، وبما امتازوا به من الصبر والثبات على دينهم وما تحملوه في سبيل المحافظة على عقيدتهم ، وكانت هذه الأحاديث التي يتهامون بها تثير في أعماق نفوسهم إعجاباً عميقاً وتقديراً عظيماً للرسول وأصحابه .

وفي السنة العاشرة للبعثة النبوية التقى الرسول في موسم الحج بعدد من أهل يثرب من قبيلة الخزرج وعرض عليهم الإسلام فأسلم منهم ستة ، أغراهم بذلك أنهم مجاورون لليهود في يثرب (الاسم القديم للمدينة) وقد حدثهم اليهود عن ظهور دين جديد مذكور عندهم في التوراة ونبي جديد ذكر عندهم أيضاً ، فلما رجع الستة إلى يثرب أشعلوها حماسة لهذا الدين الجديد وملأوها حديثاً عن هذا الرسول الجديد ، وهو الرسول الذي بشرت به التوراة والإنجيل ، وكان هذا كله إرهاباً للحركة العظيمة التي قام بها المسلمون بعد ذلك ، وهي حركة الهجرة .

الفصل الرابع مرحلة الهجرة

بالغ المسكونون فى اضطهاد الرسول وأتباعه كما رأينا ، فلم يجد الرسول وأصحابه بداً من التفكير فى الهجرة ، وكانت هذه الهجرة فى ذاتها على مرحلتين :

الأولى : هجرة بعض الصحابة إلى الحبشة .

والثانية : هجرة الرسول نفسه ومعه أبو بكر إلى المدينة المنورة .

الهجرة إلى الحبشة

أشار الرسول على بعض أتباعه بالهجرة إلى بلاد الحبشة قائلا لهم : إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق فذهبوا إليها حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

واستعد أول فوج من أتباع الرسول إلى الهجرة إلى تلك البلاد ، وكان هذا الفوج يتكون من أحد عشر رجلا ، منهم أربعة اصطحبوا زوجاتهم معهم ، ومن هؤلاء الأربعة عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول . وكان ذلك فى رجب من السنة الخامسة للدعوة ، وكان جعفر بن أبى طالب أحد الذين هاجروا إلى هناك ، وله خطبة رائعة خطبها حين يلى النجاشى رد فيها على الدعاية الحبشية التى قام بها المسكونون لإقناع النجاشى ببطلان الدعوة الإسلامية ، فقد بعثت قريش بنفر منها إلى النجاشى لهذا الغرض ، وأخذوا معهم الهدايا الكثيرة التى تقربوا بها إلى رجال الدين لكى يستخدموا نفوذهم إلى الملك ويقنعوه برد المهاجرين إلى مكة قائلين للملك إن هذا الدين الجديد يتعارض على حد سواء مع الوثنية ومع النصرانية فى وقت معاً .

فما كان من النجاشي إلا أن دعا المسلمين المهاجرين إلى الرد على هـ
التهمة التي نسبت إليهم .

لنستمع الآن إلى حجج الجانبين :

أرسل القرشيون وفداهم إلى النجاشي — ومنهم عبد الله بن أبي ربيعة
وعمر بن العاص — فقال هذا الأخير للنجاشي :

إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا
في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك
فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردوهم عليهم فيهم
أعلى بهم عينا (يريد أنهم أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم .

فلما سمع النجاشي كلام عمرو بن العاص رأى من الحكمة ألا يسلم إليهم
المهاجرين حتى يسمع كلامهم وحججهم ، فأرسل إلى هؤلاء المهاجرين
واستدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم :

ما هذا الدين الذي فارقت فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولادين أحد
من هذه الملل ؟

فانتدب المهاجرون جعفر بن أبي طالب ليتحدث عنهم فقال :

« أيها الملك — كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأثي
الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ،
وكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولا منا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته
وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا
من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ،
وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن
الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن
نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، وحرم ما حرم علينا ، وأحل ما أحل لنا ، فعدا
علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، وأن
نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ،

(م ٩ — الإعلام في صدر الإسلام)

وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، وانخرناك على من سواك ،
ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظل عندك . ثم تلا عليه بعض آيات من
القرآن الكريم ، فتأثر النجاشي بهذا الحديث تأثراً عميقاً ، ثم قال للوفد
الذي حضر من مكة :

« إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة - انطلقوا
والله لا أسلمهم إليكم أبداً . »

وهكذا تغلب الإعلام الإسلامي الصحيح على الدعاية الوثنية الخبيثة
في حضرة النجاشي .

ضاق صدور المشركين بمحمد ، وبلغ بهم الضيق غاية ليست وراءها
غاية ، وأجمع رأيهم على أن يطلقوا آخر سهم من سهام جعبتهم ، فاجتمع
زعماؤهم في (دار الندوة) قريباً من الكعبة ، وكان من بينهم أبو سفيان
وأبو جهل وأبو لهب والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث ونخالد بن الوليد
والحكم بن أبي العاص وغيرهم من سادة قريش ، وأخذوا يتشاورون في
الأمر ، فقال أحدهم : أما آن لنا أن نتخلص من محمد ؟ لقد كنا نعمل
حساباً لعمه أبي طالب وقد مات ، وكنا نعمل حساباً لزوجته
خديجة ولقومها ، وقد ماتت ، ومن هنا بدأت المقترحات الكثيرة
للتخلص من محمد .

فأما أحدهم فيقترح أن يقيدوا محمداً بسلاسل وأغلال ، ويحبسوه حتى
يموت ، وأما الثاني فيقترح أن ينفي محمد من الأرض فتستريح منه قريش على
الأقل ، وأما الثالث فيقترح قتله بالسيف ، ويناقش القوم كل هذه المقترحات
فلا يقتنع العقلاء منهم بواحد منها .

وأخيراً يجمعون الرأي على أن ينتدب من كل قبيلة من القبائل واحد
يمثلها ثم يشترك جميع الممثلين لهذه القبائل في جريمة القتل ، وبذلك يتفرق
دم محمد بين القبائل العربية ، ويستريحون منه .

ووقف عقبة بن أبي معيط ممثلاً لبني عبد شمس ، ووقف النضر بن

الحارث ممثلاً لبني عبد الدار ، ووقف أمية بن خلف نائبا عن جمح ، ووقف أبو لهب نائبا عن بني هاشم ، وحضر القوم الليلة التي يقفون فيها لتنفيذ هذه الخطة وذهبوا إلى دار النبي وأحاطوا بها من كل جانب ، ولكن الله أحبط هذه المؤامرة كما هو معروف في سيرة النبي ﷺ ، وفي ذلك يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

« وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ ، أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » (١) .

وفي تلك الليلة أمر الله تعالى الرسول الكريم بالخروج من بيته ، فخرج ومعه رجل واحد من أصحابه هو أبو بكر ، وخرج الرجلان من مكة وواصلتا سيرهما إلى الغار ، ثم مضيا في طريقهما حتى اقتربا من المدينة .

واستقبل أهل المدينة الرسول وصاحبه استقبالا حسنا ، وبالغوا في الاحتفاء بهما ، وبذلك نجا الرسول من كيد قريش ، ونزل قوله تعالى :

« إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ، إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

ومنذ اللحظة الأولى من استقرار الرسول بالمدينة قام بحركة من أروع ما عرفه التاريخ البشرى ، وهي حركة التآخي بين المهاجرين والأنصار ، فقد كان المهاجرون قبل مجيئهم إلى المدينة يحيون في مكة في رغد من العيش ، ولكنهم اضطروا بعد ذلك إلى التخلي عن ثرواتهم وممتلكاتهم ، وآثروا الفرار بدينهم إلى المدينة ، ولذلك عقد الرسول بينهم وبين الأنصار من أهل المدينة الأصليين نوعاً من الأخوة التي قلنا إن التاريخ لم يعرف لها نظيراً قبل ذلك ولم يعرف لها شبيهاً ، وإلى يومنا هذا ، فقد آوى كل واحد

(١) أى ليقيدوك بالأغلال والسلاسل

من الأنصار أخاً له من المهاجرين ، وشاطره ماله وقاسمه بيته ومتاعه ، حتى أن ممتلكات الأنصارى كانت إذا ما توفاه الله لا يرثها أخوه من أبيه ، بل يرثها أخوه المهاجر ، وبقي القوم على ذلك حتى حظر القرآن هذا النوع من الإرث ، وأوصى بأن ينتقل الميراث بالطريق الطبيعي إلى ذوى الأرحام قال تعالى :

(والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، إن الله بكل شيء عليم) .

وكان الأنصار أصحاب زراعة والمهاجرون أصحاب تجارة ، فحين عرض أنصارى على أخيه المهاجر عبد الرحمن بن عوف أن يأخذ نصف ممتلكاته شكر عبد الرحمن لأخيه الأنصارى ذلك وسأله أن يدلّه على سوق المدينة ، وفي السوق سعى عبد الرحمن في اكتساب الرزق عن طريق التجارة ، وما هي إلا فترة يسيرة حتى أثرى ثراء عظيماً ، وعلى نحو مماثل انصرف سائر المهاجرين إلى هذا الميدان الذى يتفق وطبيعتهم التجارية .

ومن المهاجرين والأنصار فى المدينة انبعث عصابة المبشرين بهذا الدين . وجماعة المعلمين الدينيين الذين حملوا مشعل الديانة الإسلامية إلى شتى أنحاء الجزيرة العربية ونجحوا فى أداء مهمتهم نجاحاً منقطع النظير .

والحق أن الهجرة فى ذاتها كانت وسيلة من أبلغ وسائل الإعلام فى الإسلام ، ذلك أن مجرد خروج المسلمين من بلد كانوا فيه منذ النشأة يخلق تساؤلاً كبيراً فى المجتمع الذى فيه تزييف وتشويه لأخبار هذا الدين الجديد وذلك بفعل المشركين — وهو مجتمع مكة ،

وقد جعلت هذه الهجرة أهل مكة برغم هذا التزييف والتشويه يشعرون فى داخل نفوسهم بأنه ما لم يكن هؤلاء المهاجرون على حق لما تركوا أموالهم وأهلهم وممتلكاتهم ووطنهم الذى نشئوا فيه ، فلا بد إذن أن يكون الذى دعاهم إلى هذه التضحيات الجسيمة هو الحق والحق وحده . ثم إن هجرة المهاجرين خلقت فراغاً مادياً كبيراً فى مكة ولفت هذا الفراغ الكبير أنظار

المكيين للتغيرات التي حدثت في مجتمعهم ، ومن أهمها بطبيعة الحال ظهور هذا الدين الجديد . . ذلك ما حدث في مكة ، أما ما حدث في المدينة فأعظم وأعجب . فإن وجود عناصر مكية جديدة في المدينة لا بد أنه قد استرعى انتباه جميع من فيها ، وفي ذلك إعلان كبير من هؤلاء المهاجرين عن هذا الدين ، ثم جاءت حركة التآخي بين الأنصار والمهاجرين دليلاً مادياً على نجاح هذه الوسيلة الإعلامية الكبيرة — وهي الهجرة من مكة إلى المدينة .

ومن الجدير بالتنويه أن الله تعالى صور الهجرة نفسها في الآية الكريمة التي ذكرها «إلا تنصروه فقد نصره الله» ، إلخ بأنها انتصار للنبي ﷺ الأعزل من السلاح والعتاد على الكفار المزودين بالسلاح والعتاد ، وذلك في وقت كان فيه النبي في أخرج ساعة من ساعات حياته ، وخاصة حين وجد نفسه هو وصاحبه محبوسين في الغار ، والمشركون بخيلهم ورجلهم على باب هذا الغار ، بينهم وبين أن يقتلوهما أن يدخلوا هذا الباب .

الحق — لقد كانت الهجرة التي قام بها الرسول وأتباعه ثورة على الفساد في جميع أشكاله ، ثورة على الطغيان في الحكم والإجحاف بالحقوق. ثورة على العبودية وتحكم الأقوياء في الضعفاء ، ثورة على فجور الجاهلية ، وحياتها المبنية على الشر ، ثورة على العصبية القبلية في نهاية الأمر ، فلا وثنية ، ولا إباحية ، ولا كسروية أو قيصرية ، ولكن حب وإخاء ومساواة وعدل وحرية وأخلاق إسلامية ، وسمو بالنفس البشرية إلى أعلى الدرجات .

وباختصار شديد.. لقد كانت الهجرة في ذاتها حركة إعلامية كبيرة قل أن يكون لها نظير في التاريخ ، وحسبها ذلك لتكون في الوقت نفسه ذريعة من أكبر ذرائع الإعلام في نشأة الإسلام ، وعلى يد صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه .

الفصل الخامس مرحلة الاستقرار بالمدينة

استقر الرسول بالمدينة ، وبها بدأ - صلى الله عليه وسلم - صفحة جديدة من صفحاته المجيدة سوف لا ننظر فيها على أنها صفحة من كتاب في التاريخ ، أو كتاب في الدين ، أو كتاب في الأدب ، أو كتاب في الأخلاق ، أو كتاب في فن الحرب . فقد قال كل واحد من رجال التاريخ والدين والأدب والأخلاق والحرب كلمته في هذه الصفحة وبقيت كلمة رجل الإعلام والدعاية والاتصال بالناس ، وهو ما نحاول أن نتعرض له بإيجاز في هذا الفصل .

والحقيقة التي لا ينبغي إنكارها بحال من الأحوال أنه بقدر ما ضاقت رسائل الإعلامية الإيجابية للإعلام في فترة الاضطهاد الديني - أو في العهد الملكي المتأخر - اتسعت أمام الرسول مجالات الإعلام بالطرق الإيجابية الجديدة ، ويمكن أن نشير من هذه الطرق إلى ما يلي :

١ - طريقة الأذان لإقامة الصلاة .

٢ - إقامة العلاقات الودية بين الرسول واليهود في داخل المدينة يقصد التعايش السلمي بينهم وبين المسلمين .

٣ - إقامة العلاقات الودية كذلك بين الرسول والقبائل العربية المجاورة للمدينة وذلك تأميناً للمسلمين في داخل المدينة ، وتمهيداً لدخول الإسلام في هذه القبائل .

٤ - اتخاذ الاحتياطات الإعلامية التي لا بد منها في ظروف الحرب ، كالأرصاد والعيون التي تأتي الرسول بأخبار العدو .

٥ - بعثات الرسول إلى الملوك والأمراء ليدعوهم إلى اعتناق الإسلام وهي حركة إعلامية لا توازنها في مجال الإعلام إلا حركة الهجرة .

٦ — استقبال الرسول للوفود العربية التي وفدت عليه بالمدينة لكي تسلم على يديه وكان النبي يبعث مع كل وفد من هذه الوفود بالقراء والمعلمين الذين يفقهونهم في الدين ويفسرون لهم بعض آيات القرآن الكريم .

٧ — التهامس بين الناس في أخبار الرسول وأخبار هذا الدين الجديد وأوضح ما كان ذلك في حادث الهجرة وفي فترات الصلح بين المسلمين والمشركين كما كان الأمر في صلح (الحديبية) ، وسنشرح ذلك فيما بعد .

٨ — غزوات النبي باعتبارها إعلاناً كبيراً عن الإسلام . فقد أمسك النبي بالقرآن في إحدى يديه ، وأمسك بالسيف — كما أمره القرآن الكريم — في يده الأخرى .

٩ — سرايا النبي وبعوثة الحربية إلى تخوم الروم تأميناً لحدود المسلمين بالمدينة من جهة ، وإنذاراً لأعداء الإسلام من العرب وغيرهم بقوة هذا الدين الجديد وهيئته حتى لا يفكروا في الإغارة على حدوده .

وهذا كله فضلاً عن الخطب النبوية التي سنخصصها بفصل من فصول هذا الباب ، وفضلاً عن حركة (الإنحاء) التي بدأ بها النبي ﷺ حياته بمقره الجديد وهو المدينة المنورة ، وقد تحدثنا عنها .

* * *

وقد سبق لنا في الباب الأول من أبواب هذا الكتاب أن شرحنا ما عرفه الإسلام من وسائل الاتصال بالناس ، وأتيننا ببعض المعلومات التي تعين على فهم ما يبقى من هذه الوسائل .

وقفنا عند القرآن الكريم بوصفه أكبر هذه الوسائل على الإطلاق ، وكذلك منذ بداية الرسالة الحممدية إلى نهايتها .

ووقفنا عند الأحاديث النبوية بوصفها قوة دعائية وإعلامية ليس هناك أعظم منها في حياة الرسول ﷺ وحياة الخلفاء الراشدين ، وحياة العصور الإسلامية التي تلتها لي يومنا هذا ، والسبب في ذلك أن أبرز صفة من صفات الرسول هي قدرته على التأثير في الغير ، وقد كانت هذه الصفة تشكل أكبر خطر واجهه المشركون في مكة .

ولهذا السبب الأخير عرضنا (للاتصال الشخصي والجمعي) بوصفه من أنجح وسائل الإعلام في عهد الرسول ، وإليه يرجع الفضل الكبير .
إقناع العرب بدخول هذا الدين .

ووقفنا كذلك عند (القدوة الحسنة) بوصفها من أنجح طرق التربية والإعلام ، وهي الطريقة التي أحسنها الرسول وأصحابه واكتسبوا بها عدداً كبيراً من الأصدقاء قوى بهم الإسلام وانتشر في ربوع شبه الجزيرة .

وتحدثنا بإيجاز عن القصص غير القرآن وما كان له من عظيم الأثر في رفع الروح المعنوية عند المسلمين ولذلك سمح به عمر بن الخطاب على شيء من الحذر والتخوف ثم أذن عثمان بن عفان بدون شعور بالحذر أو التخوف ثم أصبح مادة لاغنى عنها لجميع الخلفاء والأمراء في الإسلام بعد ذلك .

وبقى أن نتحدث في الفصول التالية من فصول الباب الثاني عن هذه المجالات الجديدة التي مارسها الرسول في حقل الإعلام ، وهي المجالات العشرة المتقدمة ، وليس معنى ذلك أن الإعلام في عهد الرسول حصر نفسه في هذه المجالات ، واحتفظ لنفسه بالمجالات السابقة التي مارسها الرسول قبل عهد الاستقرار ، ولكن معناه أن هذه المجالات العشرة - مضافاً إليها مجال الخطاب والأحاديث والقدوة الحسنة وغيرها - ليست إلا أمثلة من النشاط الإعلامي على يد الرسول في عهد الاستقرار .

١

الأذان وإقامة صلاة الجمعة

كان المسلمون خلال إقامتهم بمكة يجدون صعوبة كبيرة في إقامة الصلاة على شكل جماعة ، فلما تمت الهجرة إلى المدينة أصبحوا أحراراً في إقامة صلاة الجماعة ، وجلس الرسول وأصحابه يدرسون مختلف السبل التي يستطيعون بها إعلام المسلمين بمواقيت الصلاة ، وهي خمس صلوات في اليوم والليلة ، وذلك عدا صلاة الجمعة وصلاة العيدين .

وفي الليلة السابقة لاجتماع النبي وأصحابه كان عمر بن الخطاب يرى فيما يرى النائم أن رجلاً يردد قوله بصوت مرتفع : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، إلى آخر صيغة الأذان المعروفة ، وكان صحابي آخر قد رأى هذه الرؤيا ، فلم يسمع الرسول ﷺ إلا الرضا بهذه الطريقة التي يعلن بها عن إقامة الصلاة ليقوم بها المسلمون فرادى أو جماعات .

وعلى هذه الصورة أذن (بلال) للصلاة من يوم الجمعة بالمدينة المنورة .

وهكذا أصبح الأذان وإقامة الصلاة أكبر إعلان للإسلام ، وإذا كان فن الإعلان في ذاته قائماً قبل كل شيء على (التكرار) فما بالك بهذا الإعلان الإسلامي ، وهو يذكر الناس بهذا الدين خمس مرات في اليوم واليلة ، وفي كل مرة منها يسمع المسلمون ويسمع غيرهم هذا النداء العظيم .

الله أكبر . الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله ، حتى على الصلاة . حتى على الفلاح . الله أكبر . الله أكبر ، لا إله إلا الله .

إنه إعلان كبير للإسلام لفت أنظار الناس جميعاً في المدينة ، ومنها انتشر في بقية أجزاء شبه الجزيرة .

لقد قلنا فيما سبق أنه كان من وسائل الإعلام القديمة وسيلة (المنادى) وبالإسلام أضيفت إليها وسيلة من نوعها هي وسيلة (المؤذن) . وهو الذي ينادى على الناس لإقامة الصلاة في مواقيتها . ولذا كانت هذه الوسيلة الأخيرة من خير ماوفق إليه محمد وأصحابه في الإعلان عن الإسلام ، والإعلام بأن الصلاة ركن من أركانه .

٢

إقامة العلاقات الودية مع اليهود

وقد سبق لنا أن ربطنا هذا النوع من العلاقات بما يسميه رجل الإعلام في العصر الذي نعيش فيه (بالعلاقات العامة) لأن الغاية من هذين النوعين واحدة ، وهى التعريف بشئ جديد يحرص رجل العلاقات أن يثبتته في ذهن الطرف الآخر .

وننظر في سيرة الرسول ﷺ - فنجد أنه قد مارس هذا النوع من أنواع الإعلام وبذل فيه أكبر جهد ممكن .
نظر الرسول فإذا (المدينة) التى استقر بها تسكنها ثلاث عشائر يهودية كبيرة وهى :

١ - بنو النضير .

٢ - بنو قريظة .

٣ - بنو قينقاع .

وأما بقية سكان المدينة فكانت تتألف من قبيلتين هما :

١ - قبيلة الأوس .

٢ - قبيلة الخزرج .

وكانت الكثرة من هاتين القبيلتين قد دخلت في الإسلام .

نظر الرسول في هذا السكبان العربى الذى تألفت منه المدينة ، وفي الأجزاء التى يتألف منها هذا السكبان ، وإذا ذاك فكر أول ما فكر في عقد (ميثاق) بين المسلمين واليهود وعرضه عليهم ، وكان هذا الميثاق يتألف من البنود الآتية :

١ - أن يتعايش المسلمون واليهود في داخل المدينة وكأنهم أمة واحدة وهذا معبر عنه في العصر الحديث بكلمة (التعايش السلمى) .

٢ - أن يلازم كل من الفريقين دينه وألا يتدخل في دين الآخر .

٣ — يجب على كل من الفريقين في حالة نشوب الحرب مع فريق ثالث أن يبادر لنصرة الآخر ، ولكن بشرط أن يكون الفريق المعتدى عليه مظلوماً وأن يكون الفريق المعتدى هو الظالم .

٤ — في حالة الهجوم على المدينة نفسها يجب على الفريقين أن يتعاونوا في الدفاع عنها معاً .

٥ — على الفريقين أن يتشاورا في الصالح إذا رغبوا فيه .

٦ — ينظر الفريقان إلى المدينة على أنها بلد حرام لا يحل فيه سفك الدماء .

٧ — في حالة النزاع بين الفريقين يكون الرسول هو الحكم الأخير .

إن العمل على إنشاء مثل هذه العلاقات الودية يعتبر عملاً سياسياً واجتماعياً وإعلامياً في وقت واحد . وهو في نظرنا عمل إعلامي من الدرجة الأولى ذلك أنه يهدف إلى التعايش السلمي على أحسن وجه ، وبه ينظر التاريخ إلى الرسول على أنه رجل ممتاز في جميع هذه الميادين التي أشرنا إليها .

ولو صدقت نية اليهود تجاه (الميثاق) ولو درسوه دراسة بريئة من الحقد والهوى لأراحوا أنفسهم وأراحوا المسلمين معهم من عناء وعيث كبيرين ولعلموا علم اليقين أن هذا الدين الجديد دين سلام ووفاق ، وليس دين خصام وشقاق ، وأن التعايش السلمي في ذاته من أسمى غايات هذا الدين . ومن أوجب واجباته ، ولكن التاريخ أثبت أن اليهود بيتوا منذ اللحظة الأولى لتصوص هذا الميثاق سوء النية واشتركوا جميعاً في إشعال نار الفتنة ، وشكلوا في المدينة خطراً داخلياً لا يمكن النجاة منه إلا بأمر واحد فقط هو القضاء عليهم واستئصالهم وإطفاء هذه الفتنة ، وذلك ما وجد الرسول نفسه مضطراً إلى سلوكه معهم ، كما سيتضح ذلك فيما بعد .

٣

العلاقات الودية

مع القبائل المجاورة

نظر الرسول وأصحابه كذلك فإذا هم محاطون بأعداء من كل جانب :
(أما من الداخل) فهناك عدوان خطيران هما اليهود من جانب ،
(عبد الله بن أبي) رأس المنافقين بالمدينة من جانب آخر .

(وأما من الخارج) فهناك قريش من جهة ، وهناك القبائل المجاور
للمدينة من جهة ثانية ، وبذلك أصبح الرسول مهدداً بخطر من عظيمين هما :
المهجوم عليه من خارج ، وخيانة اليهود له من الداخل ، وكلا الخطرين وشيك
الوقوع في كل لحظة .

وهذه الظروف هي التي دعت الرسول إلى إقامة علاقات ودية مع القبائل
العربية المجاورة للمدينة على نحو ما أقام هذه العلاقات بينه وبين يهود المدينة ،
ولذلك أخذ الرسول عهداً ومواثيق على بعض هذه القبائل المجاورة ، من
ذلك العهد الذي أخذه على (بنى حمزة) ، وقد نص هذا العهد على أن
أرواحهم وممتلكاتهم ستكون في أمان تام ، وإذا هاجمهم عدو سارع المسلمون
لنصرتهم حتى يرجع العدو أدراجه .

ومرة أخرى نقول إنه عمل سياسي وإعلامي في وقت معا ، فبدون هذه
العهد ما كانت العرب لتعرف شيئاً له قيمته الإعلامية عن الرسول ولا عن
الدين ، ولا عن الغاية التي من أجلها ظهر هذا الرسول بهذا الدين ، فهو لم
يظهر في العرب ليسفك دماءهم ويشتت رجالهم ويحدث الشقاق بين أعضائه
العشيرة الواحدة كما زعمت قريش ، وكما قالت بذلك الدعاية السيئة التي نشرها
القرشيون حول الرسول ولكن الله بعثه لغايات كريمة ، وأهداف سلمية
وإصلاح لهذه الدنيا بعد أن فسدت واستحال صلاحها إلا عن هذا الطريق.

الاحتياطات الاعلامية والحرب

أمر الرسول من قبيل ربه بالحرب ، ولذلك حمل الرسول وأصحابه القرآن في يد والسيف في يد ، وفي أثناء الحروب تعرض الرسول لطائفة كثيرة من المحن امتحنه الله بها ، والساعات الحرجة والمواقف الممتازة التي اعرف التاريخ قدره بها ، وقد كان من أخطر الأعداء الذين حاربوه صلى الله عليه وسلم عدوان كبيران هما اليهود من جانب وقريش من جانب آخر :

أما اليهود فقد كان الرسول قادراً عليهم ، يقظاً كل اليقظة لأدنى حركة من حركاتهم ، متفطناً لمؤامراتهم وتدابيرهم ، أما قريش فكانت هي الداهية الدهياء والعقبة الكأداء والمشكلة التي كادت تستعصي عن الحل ، لأنها كانت مصرة على اقتلاع جذور الإسلام بكل الطرق التي تملكها ، وزادت إصراراً على ذلك منذ نصح الرسول ﷺ في الهجرة من مكة إلى المدينة .

من أجل ذلك كان لابد من وقوع الحرب بينها وبين الرسول : قريش تقوم دائماً بالهجوم ، والرسول يقوم دائماً بالدفاع ، ونزل قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » . وقوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . وعلى هذه القاعدة القرآنية - وهي قاعدة الدفاع وعدم الاعتداء - دخل الرسول ضد قريش ، واتخذ لنفسه بعض الاحتياطات الإعلامية منها :

أولاً - حاول بطرق غير استفزازية أن يفهم قريشاً ويعلمها بهذه الحقيقة وهي أن المسلمين لا غنى لهم عن الحج ، وأن تجارة قريش تصبح في خطر كبير إذا حاولت قريش أن تصدهم عن أداء هذه الفريضة . ثانياً - تنظيم سرايا استعلامية تأتبه بمعلومات عن تحركات العدو . ومنها - على سبيل المثال - سرية بقيادة عبد الله بن جحش ، وقد دفع الرسول إليه كتاباً وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيرته ، ثم يمضي

لما أمر الرسول به ، ولا يستكره من أصحابه أحداً ، فلما فتح عبد الله الكتاب - كما أمره الرسول - وجدده يقول : إذا نظرت في كتابي هذا فلتمض حتى تنزل (نخلة) فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم .

معنى هذا أن مهمة عبد الله بن جحش كانت مجرد إجراء وقائي ، وإعلامي خشية أن يأخذ العدو المسلمين على حين غرة .

غير أن عبد الله بن جحش ما كاد يصل إلى (نخلة) حتى خالف أمر الرسول وهجم على غير لقريش في طريق عودتهم من الشام وقتل أو احداً منهم ، ويعتبر هذا الحادث - بصرف النظر عما فيه من المخالفة لأمر النبي - من الحوادث العادية بين العرب ، لولا أن قريشاً كانت تظماً إلى الدم وتلهف على الحرب ، وتتهزأ منه الأسباب لنشوب الحرب ، فكان ذلك من الأسباب التي مهدت (لغزوة بدر) .

ثالثاً - اعتماد الرسول على حملة الأخبار وهم الذين نسميهم في العصر الذي نعيش فيه (مندوبي الأخبار) أو (المراسلين الحربيين) .

وفي صحيح مسلم (١) في الكلام عن غزوة الخندق (أن بعض الصحابة قال : رأيتنا مع رسول الله ليلة الأحزاب « أو الخندق » وقد أخذتنا ريح شديد وقررة ، فقال رسول الله : ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة ؟ فسكتنا ولم يجب منا أحد ، ثم قال : ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة ؟ فسكتنا ولم يجب منا أحد . ثم قال ﷺ : قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم ولا تدعهم على (٢) .

قال حذيفة : فلم أجده بداً إذ دعاني رسول الله باسمي أن أقوم ، فلما وليت من عند رسول الله شعرت كأنما أمشي في حمام . (يريد أن يقول

(١) الجزء ١٢ في الكلام عن غزوة الخندق :

(٢) يعني ولا تسبب لهم ذعراً فيهمجوا على بل حاول أن تأتيني بأخبارهم دون أن

تشرهم بشئ .

أنه لم يشعر ببرد تلك الليلة كما كان يشعر به قبل خروجه من عند رسول الله بل خافاه الله من ذلك ببركه طاعته للنبي (، ومضيت في طريقى حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يصلى ظهره بالنار ، (وذلك من شدة البرد) ، فوضعت سهماً في كبد القوس وأردت أن أرميه به : فتذكرت قول رسول الله ولا تدعهم على ، ولو رميته لأصبته ، ورجعت وأنا أمشى في مثل الحمام ، فلما أتيت رسول الله أخبرته بخبر القوم وفرغت وقررت (أى عاد إلى الشعور بشدة البر) فألبسني رسول الله من فضل عبايته التي كان يصلى بها ، فلم أزل نائماً حتى أصبحت » .

رابعاً — وأخرى من الوسائل التي عمد إليها الرسول في مجاهدة قريش في أثناء حربه معها وسيلة (الدعاية) أو خداع العدو :

ورد في كتاب (صورة من حياة الرسول) (١) قوله : وكان ما صنع الله لرسول الله وللمؤمنين أن أتى (نعيم بن مسعود الأشجعي) إلى النبي ﷺ معلناً إسلامه قائلاً له :

« يا رسول الله إني قد أسلمت . ولم يعلم قومي بإسلامي ، فمرني بما شئت » فقال رسول الله ﷺ : « إنما أنت رجل واحد من غطفان ، فلو خرجت فخذل ما استطعت كان أحب إلينا من بقائك معنا فاخرج فإن الحرب خدعة » .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة (وهم عشائر اليهود في المدينة كما ذكرنا) ، وكان نعيم يناديهم في الجاهلية فقال لهم :

« يا بني قريظة — لقد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم » . قالوا : قل فلست عندنا بهم .

فقال لهم : إن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهروهم عليه ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، واخلوا بينكم وبين الرجل (يريد النبي) ، ولا طاقة لكم

(بابن قريظة) ، به ، فلا تقاتلوا مع القوم (يريد مع قريش) حتى
نأخذوا منهم رهناً من أشrafهم .

ثم خرج نعيم بن مسعود حتى أتى قريشاً فقال لهم :

« لقد عرفتم ودى لكم معشر قريش وفراقى محمداً ، وقد بلغنى أمر أرى
من الحق أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكمثوا على » .

قالوا : نفعل ذلك .

قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما كان من أخذناهم محمداً ،
أرسلوا إليه ، إنا قد ندمنا على ما فعلنا . . إلخ . .

ثم أتى غطفان وقال مثل ذلك .

فلما كانت ليلة السبت — وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله
واللهمومنين — أرسل أبو سفيان إلى بنى قريظة في المدينة (عكرمة بن أبي
جهل في نفر من قريش وغطفان) يقول لهم : إنا لسنا بدار مقام ، فقد هلك
الحف والحافر ، فاستعدوا صبيحة غد للقتال حتى نناجز محمداً » .

فأرسل إليهم بنو قريظة بالمدينة يقولون : « إن اليوم السبت ، وهو
لا نعمل فيه شيئاً ، وقد علمتم ما قيل فيمن تعدى منا في السبت . ومع
ذلك فلا نقبل الحكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ،
فلما نخشى أن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم ،
وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه » .

فلما رجع الرسل بذلك قالوا :

« صدق والله نعيم بن مسعود » وردوا إليهم يقولون : « والله لانهطكم
هذا أبداً . فانخرجوا معنا إن شئتم ، وإلا فلا عهد بيننا وبينكم » .

فقال بنو قريظة :

« صدق والله نعيم بن مسعود » .

ونخذل الله بينهم واختلفت كلمتهم .

ترى معنى أيها القارئ لهذا النص الأخير كيف أن رسول الله ﷺ عمد إلى الدعاية التي لا بد منها في وقت الحروب ، وهي الدعاية التي تهدف إلى إحداث التفرقة بين صفوف الأعداء ، وهي المقصود بقوله ﷺ لنعيم بن مسعود « فخذل عنا ما استطعت » أي أحدث بينهم تخديلاً وشعوراً بالهزيمة حتى لا يثق بعضهم في بعض . وبذلك يتفرقون وتضعف قواهم وينصرنا الله عليهم . وهذا ما فعله نعيم بن مسعود حين مشى بين قريش وخطفان ويهود المدينة المنتمين إلى قبيلة بني قريظة ، وكان بين هذه القبائل الثلاث تحالف قوى ضد النبي . وقد تنبه النبي إلى تمزيق هذا الحلف بالدعاية الحربية ونجح في بلوغ هذه الغاية بتوفيق من الله تعالى وبذكاء نعيم ابن مسعود .

جاء في كتاب (تيسير الوصول في أحاديث الرسول) تأليف الشيباني ما نصه :

« عن أسماء بنت زيد رضي الله عنه قالت : قال رسول الله ﷺ الكذب كله على ابن آدم حرام إلا في ثلاث خصال : رجل كذب في الحرب فإن الحرب خدعة » أخرجه الترمذي وأخرجه مسلم في إحدى رواياته .

ثم إن من معاني الحديث النبوي : « خذل عنا ما استطعت » معنى يؤمن به نوابغ الحرب في العصور الحديثة ، وهذا المعنى الأخير هو وجوب نشر روح الهزيمة في معسكرات العدو ، والنظر إلى هذا العمل على أنه من أدوات النصر على هذا العدو .

يقول التاريخ : إن الإنجليز في الحرب العالمية الأولى كانوا يسخرون الصحافة لحرب من هذا النوع ، وكان الصحفي الإنجليزى نوثكيليف هو المنظم الحقيقي لهذه الدعاية وكان أسلوب هذا الصحفي يقوم على نشر روح الهزيمة في داخل ألمانيا معتمداً في ذلك على القاعدة التي تقول :

(م ١٠ - الإعلام في صدر الإسلام)

« إن روح الهزيمة إنما تبدأ أولاً في الجبهة الداخلية للعدو : (١) »

* * *



بقى أن نسأل أنفسنا هذا السؤال :

ألم نقل في التمهيد لهذا الباب أن الجهود التي بذلها الرسول في سبيل نشر الدين لا يصح أن يطلق عليها غير اسم واحد فقط هو (الدعوة) ؟ وأما الدعاية فهي الاسم الذي أطلق على جميع الجهود التي بذلها الخلفاء المسلمون منذ معاوية بن أبي سفيان إلى الآن ؟

بلى - قلنا ذلك : ونحن مصرون على ما قلناه .

أما هذه الواقعة التي وقعت للرسول مع نعيم بن مسعود فإنها لا تهدم هذا الحكم الذي حكمنا به على جهود الرسول ، وتغير الاسم الذي أطلقناه على هذه الجهود ، وهو (الدعوة) . وذلك لأسباب منها :

أولاً : إن هذه الواقعة فريدة من أنواعها في حياة الرسول ، ولم يقع من نوعها الشيء الكثير .

ثانياً : إن هذه الحيلة استخدمت في ظروف الحرب ، والحرب في كل مكان وزمان إنما تقوم على الحيلة والمكيده والمكر والخديعة ، وما ينبغي أن تخلو حياة الرسول من كل ذلك عند الضرورة وإلا استهان به الأعداء وتغفلوه - صلى الله عليه وسلم - وأكلوه لقمة سائغة .

ثالثاً : إن الرسول واحد أمام أعداء كثيرين وأنه أقل من أحدهم عدداً وعدة فلا بد له أن يحمي نفسه بكل الوسائل الممكنة ، ومنها وسيلة المكيده .

(١) عبد الطيف حمزة ، كتاب : الإعلام والدعاية ، الطبعة الأولى ص ١٦١ .



بعثات الرسول إلى الأمراء والملوك

حدثنا كتب السيرة أن الرسول عاد من صلح (الحديبية) فدعا المسلمين إلى اجتماع عام أوضح لهم فيه أن الإسلام جاء رحمة للناس كافة، وأن العرب ليسوا هم المقصودين وحدهم بهذا الدين، وأن الوقت قد حان لحمل الرسالة الإسلامية إلى جهات أخرى في داخل بلاد العرب وفي خارجها، وأنه يجب البدء بالملوك والأمراء المجاورين لهم ومنهم يومئذ : قيصر الروم، وكسرى فارس، ونجاشي الحبشة، والمقوقس، وعزيز مصر، وأمير البحرين وصاحب دمشق، وأمراء اليمن، وهذا كله فضلا عن أمراء العرب الذين لم يدخلوا بعد في هذا الدين، ومنهم الأمير شرحبيل وغيره.

واستقر رأى النبي ﷺ على أن يبعث إلى كل واحد من هؤلاء بوفد من قبله ﷺ ومع الوفد رسالة خاصة يدعوه فيها إلى عبادة الله وحده وإلى الإيمان الذي جاء به محمد .

وقيل إنه للأسف الشديد لم يحتفظ التاريخ بكل هذه الرسائل النبوية ، وذلك فيما عدا الرسالة التي وصلت إلى المقوقس ، والرسالة التي وصلت إلى هرقل ورسائل أخرى قليلة . فقد ذكر التاريخ أن المقوقس أحسن استقبال الوفد الذي حمل إليه الرسالة وأنه حفظ هذه الرسالة نفسها في صندوق ثمين وبعث مع الوفد الذي عاد إلى الرسول بجملة من الهدايا ومنها بغلة وجاريتان ، تزوج الرسول بواحدة منهما . وهي مارية القبطية ، وأهدى الأخرى - واسمها شيرين - إلى شاعره حسان بن ثابت .
وأما الرسالة نفسها فقد جاء فيها .

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ،

أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وبعث الكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة فتوجه إلى مصر فوجد المقوقس بالإسكندرية فذهب إليه فوجده في مجلس مشرف على البحر ، فركب سفينته إليه ، وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه ، فلما رآه أمر باحضاره بين يديه ، فلما جىء به إليه ووقف بين يديه ، ونظر في الكتاب ففضه وقرأه ، وقال لحاطب : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه ، فقال له حاطب : وما منع عيسى أن يدعو على من خالفه أن يسلط عليهم ؟ فاستعاد منه الكلام مرتين ، ثم سكث فقال له حاطب : إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر بغيرك بك ، قال : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه ، فقال حاطب : ندعوك إلى دين الله وهو الإسلام الكافي به الله فدع ما سواه ، إن هذا النبي « صلى الله عليه وسلم » دعا الناس فكان أشدهم عليه قريشاً وأعداهم له يهوداً وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم من أمته ، فالحق عليهم أن يتبعوه ، وأنت ممن أدرك هذا النبي ، ولسنا نهاك عن دينك ، ولكننا نأمرك به ، فقال المقوقس ، إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الجاهل الكاذب ، ووجدت معه آلة النبوة : بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر . وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حق من عاج ودفعه لجارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى النبي :

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك (أما بعد) فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعون إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين هما مـكان من القبط عظيم . . . وكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام (١) .

ولم يزد على هذا ، ولم يسلم .

مندوبو الرسول إلى الملوك والأمراء :

بعث الرسول ﷺ رسالا من أصحابه وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام :

- ١ - فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم .
- ٢ - وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس .
- ٣ - وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة .
- ٤ - وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية .
- ٥ - وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعبد ابنى الجندى ملكي عمان :
- ٦ - وبعث سليط بن عمرو إلى (ثمامة بن أثال وهوازة بن علي) على الحنفين ملكي اليمامة .
- ٧ - وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين .
- ٨ - وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني - ملك تخوم الشام (٢) .

* * *

(١) المنتخب من السنة . مجلد ط ٢ . القاهرة سنة ١٩٥٢ ص ٢٦٩ وما بعدها .

(٢) سيرة النبي لابن هشام ج ٤ ص ٢٧٨ مطبعة حجازي بالقاهرة سنة ١٩٣٨ تحقيق

محيى الدين عبد الحميد .

قام الرسول بهذه الحركة الإعلامية الواسعة النطاق ، وأوفد البعثات إلى جميع الجهات بعد أن نزلت الآية الكريمة : « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . يقول مولانا محمد علي ، تعليقاً على حركة البعثات النبوية (١) :

إن الظروف التي أحاطت بتوجيه هذه الرسائل النبوية للملوك والأمراء لتستحق شيئاً من التأمل والاعتبار ، فلو أن الرسول وجه هذه الرسائل بعد إخضاع بلاد العرب برمتها لنفوذه ، إذن لكان في إمكان الباحث أن يعتبرها عملاً أوحى به الطموح إلى التوسع في الملك ، فقد كان المسلمون إلى ذلك الحين أضعف من أن يشقوا طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وكان المشركون لا يزالون هم أصحاب السلطة الحقيقية حتى لقد فرضوا شروط الصلح (يريد صاحب الحديبية) على النبي ﷺ .

فصحيح إذن أن الرسول لم يكن يهدف من وراء هذه الحركة الإعلامية إلى التوسع في النفوذ أو إلى جـاه أو سلطان أو نحو ذلك ، إنما كان الرسول يحرص من خلال هذه الحركة أن يفهم المسلمون أن الإسلام لم يقصد به العرب وحدهم ، ولكن يقصد به الناس كافة .

ولنا تعليق آخر من الناحية الإعلامية عدا تعليق مولانا محمد علي الذي أوردناه الآن على حركات البعثات النبوية ، ونلخص تعليقنا فيما يلي : نفهم من دوائر المعارف الإنجليزية والأمريكية أن الدبلوماسية ذاتها فن حضري بحث - بمعنى أنه لم يعرف إلا في العصور الحديثة - وفي العصر الذي نعيش فيه بنوع خاص .

ولعل أقصى ما ذهب إليه المؤرخون المحدثون هو أن الدبلوماسية لم تعرفها البشرية قبل القرن الثالث عشر الميلادي ، وهم يقولون إن هذا الفن إنما بدأ في (الفاتيكان) على يد أحد البابوات منذ أخذ البابا يبعث بالوفود إلى

(١) مولانا محمد علي : حياة محمد ورسالته - الترجمة العربية لخير المصطفى ص ١٩٧ - ١٩٨

الملوك والأمراء لأغراض دينية وأخرى سياسية (١)

ولكن نظرة واحدة إلى الحركة التي قام بها الرسول صلوات الله وسلامه عليه قبل ذلك بتسعة قرون من الزمان يدلنا على أن هذا الرسول هو أول من مارس هذا الفن الذي يقولون عنه إنه حضري بحت - ونعني به فن الدبلوماسية ، وليس أدل على ذلك من أنه قام بتنظيم حركة البعثات إلى الملوك والأمراء ، فمنهم من رحب بهذه الدعوة كما فعل المقوقس بنوع خاص ، ومنهم من رفض هذه الدعوة ، وأساء الرد على صاحب الرسالة ، كما فعل كسرى .

وهكذا أثبت التاريخ أن محمداً أول من زاول (الاتصال الشخصي المباشر) من وسائل الإعلام القديمة والحديثة - وذلك عن طريق الوفاة وطريق الرسالة ، ومما لاشك فيه أن العرب في الإسلام كانوا أقدر على ممارسة هذه الوسيلة من وسائل الإعلام منهم في الجاهلية لا شيء إلا لاختلاف القيم التي كانت تحكمهم في الجاهلية . ولقد سبق أن تحدثنا عن هذه القضية عند الكلام عن القرآن الكريم باعتباره أكبر الوسائل الإعلامية في صدر الإسلام ، وقد رأينا أن القيم التي كانت تحكم المجتمع العربي في الجاهلية كانت مبنية في أكثرها على العنف والشر ، بينما كانت القيم التي حكمت العرب في الإسلام تبنى على التقوى والإيمان ، وفي ظل هذه القيم الأخيرة نجح الفن الذي مارسه الرسول ﷺ وهو فن (الدبلوماسية) .

* * *

٦

استقبال الرسول للوفود

مما لاشك فيه أن حركة الاستقبالات - كحركة البعثات - تعتبر نوعاً من (العلاقات العامة) ، ولكننا حرصنا على أن نخص كلا من هاتين

(١) راجع كتاب (أضواء على الدبلوماسية) للأستاذ أحمد عبد الحميد .

الحركتين بكلمة مستقلة بذاتها ، وذلك لأهميتها في تاريخ الدعوة الإسلامية ،
ولأنها من أكبر مظاهر النشاط الاعلامي لرسول الله ﷺ ، وبدون ذلك
نكون قد قصرنا في التنويه بهذا النشاط .

في أواخر السنة التاسعة للهجرة ، وطول السنة العاشرة تدفقت على
المدينة وفود تمثل مختلف القبائل والعشائر المعروفة في شبه جزيرة العرب
ولذلك سمي العام العاشر للهجرة (بعام الوفود) ، وإليك أسماء بعض هذه
الوفود على سبيل المثال .

١ - وفد ثقيف .

٢ - وفد بني تميم .

٣ - وفد تغلب .

٤ - وفد نجران من الوفود النصرانية أيضاً .

وكان عدد الوفود سبعين رجلاً ، وزعماءهم عبد المسيح وعبد الحارث :

٥ - وفد بجيلة من القبائل اليمنية التي كانت تملك هيكل اسمه (الخليفة)

وكان في اليمن يعتبر بمثابة (الكعبة) في مكة ، وقد هدم المسلمون هذا
الهيكل بأمر من النبي ﷺ .

٦ - وفود أخرى من اليمن وعمان واليمامة والبحرين (وأميرها إذ ذاك
هو المنذر) .

٧ - وفد وائل بن حجر الكندي والأشعث بن قيس ، وهما زعيما

حضر موت جاعوا في أعداد كبيرة ، وكانوا يرتدون الملابس الحريرية ، فلما
سألهم الرسول : هل تحبون أن تعتنقوا الاسلام ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ،
فقال لهم : اخلعوا هذه الملابس الحريرية ، ففعلوا ولبسوا غيرها .

وقد قيل إنه في عام الوفود هذا نزلت سورة النصر وفيها يقول الله تعالى :

« إذا جاء نصر الله والفتح » ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا .

فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا .

وقيل كذلك إن هذه السورة نزلت في حجة الوداع ، وكانت آخر ما نزل من القرآن الكريم على رسول الله ﷺ .
ولكننى أميل إلى رأى الأول ، لأن هذه السورة إنما تشير إلى حادث الوفود ، وتعتبر حركتهم نصراً من الله وفتحاً .
وهكذا عم الاسلام جميع أرجاء الجزيرة العربية باستثناء بعض الجاليات القليلة لليهود والنصارى .

* * *

ومع كل وفد من الوفود السابقة كان الرسول يبعث بواحد من أصحابه لكي يصحبهم في عودتهم إلى القبائل التي أتوا منها ؛ وهذا ما سميناه في الباب الأول من أبواب الكتاب (بحركة « القراء ») المتفقهين في الدين الذين صحبوا هذه الوفود لكي يعلموا القبائل التي أتوا منها ويفقهوهم في الدين ويحييهم إلى كل ما يسألونه من الأسئلة في موضوعات هذا الدين وأركانه وفرائضه ونحو ذلك ، ولكي يفسروا لهم بعض آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ، وبذلك يزداد أفراد هذه القبائل العربية علماً بالدين وعلماً بأوضاعه وأحكامه ، ومن ثم كان العمل الذي قام به القراء عملاً دينياً وإعلامياً في وقت معاً .

وقد نجحت هذه التجربة الاعلامية أول ما نجحت على يد المعلم الأول لهذه الأمة ونعنى به محمداً ﷺ ، وذلك عندما التقى في موسم الحج بثمانية عشر رجلاً من الخزرج — وعرض عليهم الاسلام ، فأسلموا ، فبعث معهم بأحد أصحابه ، وهو هنا (مصعب بن عمير) ليهديهم ويرشدتهم ويعلمهم القرآن الكريم والسنة النبوية ، فذهب معهم مصعب لهذه الغاية ، وكان ذلك في السنة العاشرة للبعثة ، والرسول يومئذ لم يزل موجوداً بمكة ، ولم يؤذن له بالهجرة منها إلى المدينة .

وكانت الوفود إذا أقبلت على الرسول أقبل معها خطباؤها وشعراؤها فتكلموا وتناشدوا ، وكان خطباء المسلمين وشعراؤهم يردون على خطباء

الوفود وشعرائهم ، وقد شهد التاريخ بأن خطباء المسلمين المستقبلين لهذه الوفود كانوا أبلغ في كل مرة من خطباء الوفود ، ولا غرابة في ذلك فقد كان خطباء المسلمين المجاورين للرسول والصحابة إنما يستمدون معانيهم من القرآن الكريم ومن السنة ومن معاشر الرسول نفسه ومعاشر الصحابة معه ، كما كان خطباء المسلمين ممثلين بالعواطف الدينية الجياشة ، والمشاعر الإسلامية النبيلة بالقدر الذي يكفي للوصول بخطبهم إلى درجة كبيرة من درجات البلاغة والتأثير في نفوس العرب .

وهذا الذي قيل في الخطباء المسلمين قيل مثله في شعرائهم ، وإن كان الخطباء - كما سبق أن أوضحنا ذلك - أبلغ في صدر الإسلام من الشعراء للأسباب التي سبق أن أشرنا إليها في موضعها من هذا الكتاب .

* * *



حركة الهمس وأثرها في نشر الدعوة

يعتبر التهامس بين الناس في كل عصر من العصور عاملاً قوياً من العوامل التي تؤثر في (الرأي العام) ولذلك لم يغفل عنه حاكم من الحكام في الأزمنة القديمة والحديثة على السواء ، وقد عرف عن بعض الخلفاء العباسيين أنه كان ينشر العجائز في بيوت الخاصة والعامة لكي يأتوه بالأخبار والأحاديث التي تدور فيها ، ومنها يفهم الخليفة رضا الناس عنه أو سخطهم عليه .

ومما لاشك فيه أن سيرة الرسول ، وعظمته الخلقية ، وكمالته النفسية ، وغير ذلك من الصفات التي امتاز بها البشر ، وهي الصفات التي عبر عنها القرآن الكريم مخاطباً الرسول بقوله تعالى : « وإنك لعلی خلق عظیم » ، نقول : لاشك أن هذه السيرة النبوية العطرة ، والمثل الأعلى في الأخلاق

والمعاملات ، والعبادات كانت مشار دهشة كبيرة من جميع العرب في مكة والمدينة وفي غيرهما من أرجاء شبه الجزيرة العربية .

كان الناس يتحدثون عن هذه الصفات التي اكتملت للنبي إما جهاراً حين لا يخافون سطوة أحد ، وإما إسراراً أو عن طريق الهمس - حين يخافون شيئاً من ذلك ، وكان هذا التحدث أو التهامس في ذاته عاملاً قوياً من عوامل انتشار الإسلام ، وقد وجدنا مصداق ذلك في حادثين بنوع خاص هما :

١ - حادث الهجرة .

٢ - صلح الحديبية .

فأما في الهجرة فقد سبق أن أشرنا إلى حركة التهامس التي حدثت في مكة واقرنت بحادث الهجرة ، فقد عجب المشركون يومئذ من أن المسلمين بدءوا يتركون أموالهم وأولادهم وممتلكاتهم وحياتهم الماضية الحافلة بين أهلهم وعشيرتهم في مكة ويهاجرون إلى المدينة وأخذوا يتساءلون بينهم وبين أنفسهم : ما الغاية من كل ذلك ؟ وأجابوا على أنفسهم بإجابة واحدة : وهي أن الأمر العظيم الذي ضحوا من أجله بكل ذلك - وهو الإسلام - لابد أن يكون خليقاً بهذه الحركة ، ولابد أن يكون محمد صادقاً في دعوته ، شرحنا ذلك في موضعه من الكتاب ، ولا نحتاج إلى إعادة القول .

صلح الحديبية :

وأما صلح الحديبية فقد كان فرصة أخرى لهذا التهامس الذي كان له أبعد الأثر في نشر العقيدة الإسلامية .

* * *

بذلت قريش كل ما في وسعها للقضاء على الإسلام . وذلك في معركة (بدر) ، ثم معركة (أحد) ثم في معركة (الخندق) أو الأحزاب ، ولكنها لم تفلح ، ومنذ ذلك الوقت يئست قريش كل اليأس من الهجوم على المدينة ، ونخيل للمسلمين إذ ذاك أن قريشاً - ومعها قبائل البدو الموالية لها - لن تعترضهم

في ذهابهم للحج بعد اليوم؛ وبعد عام من معركة الأحزاب فكر رسول الله ﷺ في الخروج للحج. فخرج ومعه ألف وأربعمائة رجل من المسلمين أمرهم الرسول أن يضعوا السيوف في أعمادها، لأنهم إنما خرجوا للحج لا للحرب، فلما اقتربوا من مكة وجدوا قريشاً تستعد لقتالهم، وتنوى أن تعترض طريقهم فلما علم الرسول بذلك بعث إلى قريش يقترح عليها عقد صلح بين الفريقين إلى أجل غير مسمى، فرفضت قريش هذا العرض، ثم بعث الرسول إلى قريش بمبعوث آخر من قبله فأساءت معاملته، وعقرت ناقته، وأخيراً بعث الرسول فيهم بعثان بن عفان فاحتجزوه عندهم وسرت شائعة بأن قريشاً قتلت عثمان، وتأزم الموقف كل التأزم، فالمسلمون عزل من السلاح وعددهم قليل بالقياس إلى الأعداء، والعدو مصمم على انتهاز الفرصة فإذا يفعل الرسول في تلك اللحظة الحرجة؟ لقد دعا أصحابه ليبايعوه من جديد، فبايعوه جميعاً تحت الشجرة، وسميت هذه البيعة في التاريخ (بيعة الرضوان)، وبها عاهدوا الرسول على القتال معه حتى آخر رجل.

علمت قريش بهذه البيعة، وعرفت أنها تعبر عن أقصى ما يمكن التعبير به عن ارتفاع القوة المعنوية، وأدركت أن هذه القوة كافية لأن تغني المسلمين عن كثرة العدد والعدة، فخافت على نفسها من نتائج ذلك، وعدلت عن فكرة الحرب ودخلت في مفاوضات جديدة مع الرسول بقصد الصلح لمدة عشر سنوات، وتم هذا الصلح، وكانت أهم بنوده ما يلي:

- ١ - يرجع المسلمون عامهم هذا، فلا يؤدون فريضة الحج.
- ٣ - يجوز للمسلمين أن يفتدوا في العام القادم على مكة بشرط ألا يلبثوا فيها أكثر من ثلاثة أيام.
- ٣ - لا يحق للمسلمين أن يصطحبوا مسلماً يقيم في مكة، ولا يحق لهم أن يعترضوا سبيل امرئ منهم قد يرغب في التخلف في مكة.

٤ - من أحب من العرب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ،
ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . الخ .

وقرأ المسلمون شروط هذا الصلح فأحدث في نفوسهم ثورة ، ولكنهم
تكلفوا الهدوء انتظاراً لرأى النبي ، ثم عجز عمر بن الخطاب عن ضبط
نفسه بعد ذلك فسأل الرسول : أليست برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا
بالمسلمين ؟ قال : بلى . ثم قال : أنا عبد الله ورسوله ﷺ . فإن أخالف
أمره . ولن يضيعني . ثم سأله عمر : ألم تقل لنا إننا سوف نؤدى فريضة
الحج ؟ قال الرسول الأعظم : أنا لم أقل إننا سنؤدى فريضة الحج
هذا العام .

وفي طريق عودة الرسول وأصحابه إلى المدينة نزلت الآية الكريمة :
« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم
نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

وتلا الرسول هذه الآية على من معه من المسلمين فانقلب حزنهم سروراً
وقامهم اطمئناناً ، وعلموا أن للرسول حكمة في قبول هذا الصلح .

ويقول مولانا محمد علي تعليقاً على هذه الحادثة ^(١) « لقد أثبتت الأيام
أن صلح الحديبية كان نصراً حقيقياً للإسلام ، يدل ذلك على أن الرسول
حين وفد على مكة بعد عام ونصف عام رافقه عشرة آلاف من أصحابه
بدلاً من ألف وأربعمائة — وهو العدد الذي كان معه زمن الصلح ، فكيف
تعلل هذا الازدياد العظيم في عدد المسلمين .

الواقع أن حالة الحرب التي سادت حتى ذلك الحين بين المسلمين
والمشركين كانت قد أقامت بينهما برزخاً عريضاً يصعب اجتيازه ، وكان
الحقد العام على المسلمين قد حال بين المشركين وبين امتزاجهم بالمسلمين .
فإذا بصلح الحديبية يعقد بين الفريقين للمرة الأولى منذ انبثاق الإسلام جسراً

(١) مولانا محمد علي « حياة محمد ورسالاته » الترجمة العربية لمنير
بعلبكي ص ١٨٧ .

على ذلك البرزخ العريض ، وقد أتاح ذلك للمشركين فرصة التفكير الهادىء فى فضائل الإسلام الفطرية وعظمة الرسول الحقيقية ، ومنذ ذلك الوقت أدرك المشركون أن الرسول لم يبعثه الله لى يقطع صلة الرحم ، ولا ليشير الشقاق والعداوة والبغضاء بين العرب كما زعمت قريش .

وتناقل الناس فى مكة وفى القبائل العربية المخاورة كل هذه الأحاديث ، وتهامسوا فيما بينهم حول عظمة الرسول ، وخطورة الرسالة الإلهية التى بعث بها هذا الرسول ، وكان لهذا التهامس الهادىء الجميل أثره الواضح الجلى فى نجاح الدعوة الإسلامية وزيادة عدد المسلمين حتى ذهب إلى الحج بعد عام ونصف مع الرسول قريب من عشرة أمثال العدد الذى كان معه فى صلح الحديبية ، وهذا كله ما عبرت عنه الآية الشريفة التى أشرنا إليها « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » إلخ .

* * *

تحدثنا إلى الآن عن الوسائل الإعلامية التى مارسها الرسول فى مرحلة الاستقرار ، ولم يبق من الوسائل غير واحدة هى (غزوات النبي ﷺ وسراياه) ونريد أن نخص هذه الأخيرة بفصل مستقل هو الفصل الآتى :
لسنا نريد أن نتحدث عن غزوات الرسول من الناحية الحربية ولا من الناحية الدينية ، ولكننا سنتحدث عن هذه الغزوات من الناحية الإعلامية .
إن نظرة واحدة إلى هذه الغزوات تدلنا على جملة من الحقائق الخطيرة :

أولها ، أن المسلمين فى كل غزوة من هذه الغزوات لم يكونوا هم المعتدين ، وإنما كان المشركون هم الذين يعتدون عليهم ، وكان على المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم :

الثانية ، أن المشركين كانوا فى كل غزوة من هذه الغزوات أكثر عدداً وأقوى سلاحاً وأعظم استعداداً للحرب من المسلمين ، ولكن المسلمين كانوا يحاربون بإيمانهم وعقيدتهم ، ومن أجل ذلك كانت روحهم المعنوية أعلى بكثير من روح المشركين .

الثالثة ، أن الرسول لم يكن ينبغي من وراء الغزوات إلى توسع في الملك أو السلطان ونحو ذلك ، إنما كان يهدف إلى شيء واحد فقط ، هو تبليغ الدعوة ونشر الإسلام ، فليس بينه وبين أعداء هذا الدين إلا أن يقولوا ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن قالوها فقد عصموا منه دماءهم ، وتمتعوا بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلمون .

الرابعة : أن النبي ﷺ كان يحارب في هذه الغزوات بأخلاقه كما كان يحارب بسيفه ورمحه .

ولنا بعد ذلك أن نقف وقفة قصيرة عند كل غزوة من غزوات النبي ﷺ لننظر إليها هذه النظرة الإعلامية التي تؤيد ما نقوله .

قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، وعلى أساس من هذه القاعدة القرآنية كان اشتباك الرسول مع المشركين وكان على الرسول قبل اشتباكه معهم أن يقوم بطائفة من الإجراءات الوقائية والإعلامية التي لا بد منها ،

الفصل السادس بعض الغزوات النبوية من الزاوية الإعلامية

غزوة بدر :

ومن هذه الإجراءات فيما يتصل بغزوة بدر تلك الحركة التي أوعز بها الرسول ﷺ عن طريق (سعد بن معاذ الأشجبي) وهو من الأنصار . فقد أفهم قريشاً في موسم الحج أن تجارتها ستصبح في خطر كبير إذا هي منعت المسلمين من تأدية فريضة الحج كما سبق ذكر ذلك ، وكان هذا التحذير كافياً في الحقيقة لردع قريش عن التفكير في الحرب .

لقد كان المسلمون إذ ذاك أضعف من أن يقوموا بأي عمل حربي ضد قريش ، وكان الرسول ﷺ يشعر بمسئوليته عن سلامة المسلمين ، وبنوع خاص لأن عددهم إذ ذاك ما زال قليلاً بالنسبة للمشركين .

مهما يكن من شيء فقد اشتبك الفريقان في معركة بدر وكان عدد المسلمين لا يزيد عن ثلثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً في جملتهم الغلمان ، وكلهم مسلحون تسليحاً رديئاً على حين كان جيش العدو مؤلفاً من ألف مقاتل مزودين بالسلاح الكامل ، وكان المسلمون يشعرون إذ ذاك بالخوف والضيق والقلق والخرج ، ومع هذا وذاك لم يكن أمامهم إلا طريق واحد فقط هو طريق الدفاع عن النفس ، ولم ينتظروا في داخل المدينة حتى يدهمهم العدو بل عزموا على الخروج في هذه الحالة السيئة من السلاح ، وابتعدوا عن المدينة حتى وصلوا إلى بدر ودارت المعركة ، وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان — حدثت ظاهرة رائعة من ظواهر العون الإلهي ، فقد قتل في المعركة معظم زعماء قريش ، وكان أبو جهل واحداً من الذين لقوا حتفهم في ذلك الوقت وبلغت جملة القتلى من قريش في المعركة سبعين ، وأسر المسلمون منهم سبعين آخرين ، أما شهداء المسلمين فلم يزيدوا على أربعة

عشر ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

لفتت هذه المعركة أنظار العرب في كل شبر من الجزيرة العربية من أولها إلى آخرها ، فقد عجبوا كيف أن جيشاً ليس له حظ من عدد أو سلاح يغلب جيشاً يزيد على ثلاثة أضعافه من حيث العدد والسلاح ويضم قدامى المحاربين من أبطال قريش ، ومعنى ذلك أن وجوه الضعف كلها قد اجتمعت في ناحية المسلمين وأن وجوه القوة كلها قد اجتمعت في ناحية المشركين ، وبرغم ذلك انتصر المسلمون على المشركين .

أليس في ذلك إعلام كبير عن هذا الدين الجديد ودعاية إلهية واسعة النطاق لرسول هذا الدين ، وإيذان للمشركين بأنهم لن يستطيعوا التغلب على هذا الدين وعلى رسوله الكريم بالطرق التي يعرفونها كالغدر والقتل والنهب والتهديد والوعيد !

غزوة أحد :

وفي غزوة أحد وقد تم تجهيز المشركين لها في عام كامل ، وكان جيشهم يتألف من ثلاثة آلاف مقاتل فيهم مائتا فارس ومنهم كذلك سبعمائة بطل من خيرة أبطال قريش عدا الأبطال الكبار الذين ماتوا في معركة بدر ، وزاد أبو سفيان - الزعيم الأول لقريش في ذلك الوقت - شيئاً جديداً على هذه الحملة ، وهو أن أجبر النساء على الخروج لمرافقة الجيش أملاً في أن يزدن في حماسته ويلهين مشاعره بالأناشيد الحربية والأغاني الحماسية ، وسارت الحملة صوب المدينة حتى عسكرت على ثلاثة أميال منها عند جبل أحد .

أما عدد المسلمين إذ ذاك فلم يزد عن ألف مقاتل فيهم مائة رجل مسلح وفارسان اثنان ليس غير .

ولم يكذ عبد الله بن أبي - وكان قد أسلم نفاقاً ولم يسلم عن صدق - لم يكذ هذا الرجل يرى جموع العدو حتى انسحب من جيش المسلمين

(م ١١ - الإعلام في صدر الإسلام)

بفرقة البالغ عددها ثلثمائة . وبقي من الجيش الاسلامي سبعمائة لا قوة لهم
إذ ذلك غير قوة العقيدة التي هي عندهم كل شيء .

وتقدم رسول الله وأصحابه للقتال واختار الرسول موقعاً ممتازاً في
الميدان حيث جعل صخور (أحد) وراء المسلمين تحمي ظهورهم وأخذ
يصف أصحابه هناك فشغلوا جزءاً كبيراً من سفح الجبل . ولكن كان في
ناحية من نواحي الجبل شعب يسمح للعدو بأن ينقض منه على المسلمين
إذا غفلوا عنه . ففطن إليه الرسول ووضع على فيه خمسين من الرماة
المسلمين لحمايته ، وأمرهم ألا يبرحوا أماكنهم تحت أي ظرف .

وبدأت الموقعة بحركة إعلانية كبيرة من جانب المشركين حيث تقدم
النسوة يضررن بالدخوف وعلى رأسهن هند زوجة أبي سفيان وهن ينشدن
جملة من الأناشيد منها على سبيل المثال :

إن تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق .

فراق غير وامق ... إلخ .

وبدأ القتال بداية ناجحة بالقياس إلى المسلمين واستطاع حمزة عم
الرسول أن يقتل حامل لواء المشركين وأوقع أمثال حمزة الاضطراب في
صفوف قريش ، وبقي الحال على ذلك حتى استشهد حمزة نفسه ، قتله
مولى زنجي استأجرته هند زوجة أبي سفيان لهذا الغرض . وتقهقر المشركون ،
ولكن ما كاد الرماة المسلمون الذين يحرسون الشعب يرون ذلك حتى
غادروا أماكنهم مخالفين بذلك أمر الرسول ، ونظر خالد بن الوليد (الذي
كان إلى ذلك الحين قائداً من قواد قريش) إلى هذه الغلطة التي ارتكبها
الرماة المسلمون وهجم من نقطة الضعف بمائتي فارس وأحدث اضطراباً
في صفوف المسلمين المنتصرين إلى ذلك الحين . وحين رأى المشركون
الهاربون ذلك التحول المفاجيء في سير الحرب لحقوا بخالد بن الوليد

وحاصروا المسلمين ، وأدرك النبي خطورة الموقف الذي وقفه المسلمون .
وكان يسمعه إذ ذاك أن ينجو بنفسه ويضمن سلامته باللجوء إلى مكان أمين
يحتسى به ويترك أصحابه للقدر . ولكنه لم يفعل ذلك بل وقف في مكانه
وحوله عدد قليل من أصحابه وناذى بأعلى صوته (هلموا إلى أنا رسول
الله) . فسمعه المسلمون وشقوا صفوف العدو حتى أدركوا النبي ودافعوا
عن حياته ، وصرعوا واحداً بعد واحد في سبيل الدفاع عنه .

أما الرسول نفسه فشج في وجهه وانشقت شفته ودخلت حلقتان من
مغفره في وجنته . كل ذلك وهو لا يزيد على أن يقول : اللهم اغفر لقومي
فإنهم لا يعلمون .

وهكذا عاد المشركون إلى مكة دؤن أن يظفروا بأية غنيمة من الغنائم
ودون أن يكون في أيديهم أسير واحد ، بل عادوا إلى مكة وكان الجيش
الإسلامي نفسه لم يزل مسيطراً على الموقف كله ، وعاد المشركون إلى مكة
بعد أن عجزوا حتى عن احتلال المدينة برغم أنها تركت يومئذ بدون قوة
دفاعية ، بل عاد المشركون إلى مكة ، وقد سمعوا في الطريق بأن النبي يطاردهم
بجيشه ، ولم يجرؤ أبو سفيان على العودة بأصحابه إلى مواقع المسلمين
المطاردين له ..

وهكذا كانت نتيجة الواقعة أن المسلمين منوا بنحسائر فادحة ولكنهم
لم ينهزموا للمشركين بصورة من الصور . وهكذا أصبحت معركة أحد
حديث القوم في مكة ، وبها عرف المشركون حقائق كثيرة عن الرسول
وعن الإسلام ، وبها أيقنت قريش أن هناك سرّاً يخفى عليها ، وأن هذا
السر يكمن في هذا الرسول وفي هذا الدين الجديد ، ولذلك فكرت في
محاولة أخيرة تقضي بها على الرسول وعلى الدين ، وهذه المحاولة الأخيرة
تتمثل في :

غزوة الأحزاب « أو غزوة الخندق » :

ففي السنة الخامسة للهجرة تضافرت قريش واليهود والقبائل البدوية المعادية للرسول على توجيه الضربة الأخيرة إلى الإسلام ، وتآلف لهؤلاء جيش يتراوح عدده - في تقدير المؤرخين - بين عشرة آلاف وأربعة وعشرين ألف مقاتل ، ولجأت القبائل اليهودية المقيمة داخل المدينة إلى الخيانة في آخر لحظة ، وتشاور الرسول مع أصحابه في هذا الخطر الداهم ، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق عميق يحيط بالمدينة من جميع جوانبها ، وبدأ الرسول في هذا العمل بنفسه .

وأقبل المشركون بمجموعهم ، ووصف القرآن الكريم حالة المسلمين في تلك اللحظة الرهيبة بقوله : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) .

واستمر حصار المشركين للمدينة نحواً من شهر ربط المسلمون في أثناائه الحجارة على بطونهم من الجوع ، وكان الرسول قدوتهم في كل ذلك . ثم شاعت إرادة الله أن تهب ريح عاتية اقتلعت خيام المشركين وكفأت قدورهم واضطربت لها صفوفهم ، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة (يأياها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً) .

ورأى المشركون ذلك فدب اليأس إلى قلوبهم وأيقنوا أن يداً خفية تحبط أعمالهم وتزلزل أقدامهم ، وهذه اليد الخفية هي يد الله الذي بشر به محمد ، أليس في هذه الحادثة وحدها ما يعلن إعلاناً قوياً عن هذا الدين الجديد ، ويعتبر نصراً عظيماً للرسول الكريم ؟

ونجا المسلمون من هذه الكارثة بطريقة عجيبة ، وحينما تأكدوا من رحيل المشركين بمجموعهم إلى مكة رجعوا إلى اليهود الذين خانوهم بالمدينة وألقوا

الحصار على قبيلة يهودية هي قبيلة بنى قريظة فاستسلموا بعد مقاومة قصيرة. واختار بنو قريظة بأنفسهم (سعد بن معاذ) — وكان قبل إسلامه حليناً لهم — لكي يحدد العقوبة التي يستحقونها على خيانتهم ونقض ميثاق الرسول أكثر من مرة ، فاختار سعد لهم العقوبة التي نص عليها (العهد القديم) ^(١) وهي عقوبة القتل ! .

وهكذا حكم سعد — حسب الديانة اليهودية — بقتل اذكور بنى قريظة وعددهم ثلثمائة وبسبى نسايتهم وأطفالهم ومصادرة أملاكهم وأموالهم .

أما القبيلتان اليهوديتان الأخريان وهما (بنو النضير) و « بنو قينقاع » فقد حكم الرسول عليهما بالنفي خارج المدينة جزاء لهما على خيانة المسلمين في أخرج الأوقات التي مرت بهم .

فتح مكة :

أثبت صلح الحديبية كما أسلفنا — أنه عامل من عوامل نشر الدين الجديد وأن هذا الدين ينمو في جو السلم أكثر مما ينمو في جو الحرب . فاغتازت لذلك قريش وفكرت في نقض الصلح ، ومن ثم استعد الرسول لفتح مكة وتمت إرادة الله أن يتحقق هذا الفتح العظيم بدون دم .

وتم الفتح في العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة ودخل الرسول مكة في عشرة آلاف من أصحابه ، واستسلم المكيون من غير مقاومة في مقدمتهم أبو سفيان وقد وقف بين يدي الرسول ، فعفا الرسول عنه ، وكان سلوك الرسول هذا المسلك مع أقوى أعداء الإسلام — وهو أبو سفيان — مثلاً طيباً من الأمثال التي تحدث بها المسلمون وغير المسلمين ، وكان في الوقت نفسه إعلاناً كبيراً عن عظمة الإسلام ، وكم للرسول مع أعدائه من المواقف المشابهة لهذا الموقف ، ومعنى ذلك أن سيرة الرسول في ذاتها كانت من أقوى وسائل الدعاية له ولدينه الخفيف ، ثم أعلن الرسول للمكيين « أن

(١) سفر التثنية ١٣/١٤/٢٠ .

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن » .

ودخل الرسول مكة وأخذ يحطم الأصنام القابعة حولها ، وكلما هدم منها واحداً تلا الآية الكريمة « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » ، ثم وصل الرسول إلى مقام إبراهيم ف صلى ركعتين ، وإذا ذاك فتحت أبواب الحرم ودخله الرسول وصلى بالناس كذلك ، ثم ألقى خطبة عبر فيها عن وحدانية الله وعن الأخوة في الإسلام ، ثم وجه الخطاب إلى زعماء قريش وكانوا واقفين بين يديه وقوف الجناة المذنبين : وقال لهم : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ فرد الجميع : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال الرسول الأعظم : اذهبوا فأنتم الطلقاء !

معركة حنين :

لعل العبرة الإسلامية لهذه المعركة الأخيرة تنحصر في أن الله تعالى أراد أن يعلم المسلمين درساً لن ينسوه أبداً ، أراد أن يعلمهم أن كل انتصار من الانتصارات التي حصلوا عليها إنما كان ثمرة شيء واحد فقط وهو العون الإلهي . فقد انتصر المسلمون على أعدائهم وكان عددهم لا يزيد على ثلث عدد الأعداء أحياناً أو ربع هذا العدد أحياناً وذلك فضلاً عن سوء السلاح عند المسلمين وتفوقه عند المشركين .

وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

« لقد نصركم الله في موطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين » .

ومضى أقل من شهر على فتح مكة ، وبلغ الرسول أن قبيلة هوازن المقيمة شرق مكة استعدت لهجوم عنيف على الإسلام لتكون المحاولة الأخيرة من جانب هذه القبيلة لهدم هذا الدين ، فأخذ الرسول يستعد لذلك وتألف جيش من المسلمين وصل عدده في هذه المرة إلى اثني عشر ألف مقاتل ،

وقصد الرسول بهذا الجيش الكبير إلى وادي حنين ، وكان المسلمون في أثناء ذلك يشعرون بالزهو لكثرة عددهم وقوة سلاحهم ودخل العجب قلوبهم وخالط الغرور نفوسهم ، ومع ذلك فقد انهال عليهم الأعداء برماحهم ونبالهم وأدخلوا الخلل في صفوفهم ، فولوا على أدبارهم ، وبقي الرسول وحده في الميدان لم يتزعزع ولم يستشعر الضعف الذي شعر به أصحابه ، ثم أخذ يصيح بأعلى صوته :

أنا النبي لا كذب .

أنا ابن عبد المطلب .

وكرر هذا النداء مرات كثيرة وتبعه همه العباس فأخذ ينادى بأعلى صوته :
يامعشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يامعشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، وما كادت هذه النداءات تصل إلى آذان المسلمين الهاربين من المعركة حتى رجعوا إليها بقوة معنوية جديدة ونزلوا عن جيادهم وإبلهم وخاضوا صفوف الأعداء بشجاعة نادرة وانقضوا عليهم انقضاضاً مسعوراً حتى وصلوا إلى مكان الرسول وهناك حاربوا الأعداء حتى سقط حامل رايتهم وحتى تركوا نساءهم وأطفالهم واستولى المسلمون على غنائم كثيرة منها أربعة وعشرون ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وأسر المسلمون فوق ذلك ستة آلاف من المشركين ،

وهكذا انقلبت الهزيمة الشنيعة إلى نصر مشرف ، ومارس الرسول بعد ذلك أخلاقه الطيبة وحلمه الواسع وعفوه عند المقدرة ، وأرضى المهاجرين والأنصار وعفا عن كثير من الأثرى ، وكان الرسول إنما كان يحارب بالأخلاق كما يحارب بالسيوف والرماح ، وتلك ناحية لا يغفل عنها المؤرخ ولا رجل الدين كما لا يغفل عنها رجل الإعلام والدعاية .

بعوث النبي وسراياه إلى حدود الروم وغايتها الاعلامية :

وذلك تأميناً للحدود الإسلامية وتخويفاً للأعداء من هيبة الإسلام وإعلاماً لهم بذلك حتى لا يفكروا في الإغارة على حدوده ، ومن أمثلة هذه البعوث « غزوة تبوك » التي وصلت إلى حدود الروم ، ومن الأمثلة عليها كذلك « بعثة أسامة بن زيد » وهي البعثة التي انتقل فيها الرسول الرحيم إلى الرفيق الأعلى قبل أن ينجزها ، وأنجزها من بعده أبو بكر الصديق الخليفة الأول للإسلام .

هكذا كان يشعر النبي دائماً بأن عليه واجبين كبيرين هما :

١ — تأمين الدين الإسلامي في الداخل .

٢ — وحمايته من الخارج .

ومن أجل ذلك كان لا يشتبك مع العرب إلا دفاعاً عن النفس وعن الدين ، وفي الوقت نفسه كانت هذه البعوث الحربية التي تصل إلى حدود شبه الجزيرة العربية من ناحية الدولة الرومانية تعتبر بعوثاً استطلاعية ، وكانت تستعين في هذا الاستطلاع بالقبائل العربية الموالية للنبي ﷺ ، ومن هذه البعوث النبوية جاءت « غزوة تبوك » التي بلغت تخوم الروم ، وعادت من تلك الحدود سالمة غانمة .

وبهذه الطريقة الأخيرة علمت الروم — كما علمت القبائل العربية الموالية لهم في الطريق — أن المسلمين قادرين دائماً على حماية حدودهم ، وقادرون كذلك على البطش بعدوهم إذا حدثته نفسه بالاستخفاف بهم أو التقليل من شأنهم وشأن الإسلام .

* * *

بقيت كلمة في الخطب النبوية باعتبارها من أقوى الوسائل الإعلامية الإسلامية ؛ وكلمة أخرى في القصيدة الشعرية وكيف شاركت هذه الوسيلة الأخيرة في الدفاع عن الدين وما اقترن به من القيم والمفاهيم ، وهذا وذاك ما نتحدث عنه في الفصلين التاليين :

الفصل السابع الخطبة النبوية

منذ أقدم العصور والخطبة من حيث هي تعتبر أقوى وسائل الإعلام والدعاية والاتصال بالناس للتأثير في مشاعرهم ولإقناعهم بالأفكار الجديدة والعقائد الجديدة ، وبقي شأن الخطابة كذلك في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام وفي الخلافة الأموية وما تلاها من حكومات ، بل بقي شأنها كذلك في كل ثورة حدثت على وجه البسيطة ، وذلك في العصور القديمة والوسطى والحديثة ، وسيبقى لها هذا الشأن حتى تبدل الأرض غير الأرض .

من أجل ذلك عني بها النقاد في أثينا وكتب فيها أرسطو كتابه الشهير (الخطابة) وعني بها المسلمون وحظيت بعناية كبيرة من جانب (الجاحظ) في القرن الثالث الهجري ، وبقيت الخطابة موضع الاهتمام العظيم من جانب الدارسين والباحثين في مجال الأدب والنقد إلى اليوم .

وأما في مجال الإعلام فقد نظر العلماء الباحثون في (علم الاتصال) فوجدوا أن الاتصال في ذاته أنواع ثلاثة وهي :

- الأول — الاتصال الشخصي .
- الثاني — الاتصال الجمعي .
- الثالث — الاتصال بالجمهور .

وقد تحدثنا في الفصول السابقة عن النوع الأول ، ورأينا كيف مارسه الرسول عليه الصلاة والسلام في سبيل نشر الدعوة ، وكيف كان هذا النوع من الاتصال من أنجح السبل للوصول إلى هذا الهدف .

أما النوع الثاني وهو الاتصال الجمعي — فهو المقصود بالخطابة والمؤتمر والندوات والأماكن التي يتجمع فيها الناس يستمعون فيها إلى محادث واحد أو عدد من المتحدثين ، وإن كانت الخطبة أبرز ظواهر الاتصال الجمعي

بلا نزاع ، وعليها — أى على الخطبة — اعتمد الرسول اعتمادا كبيرا فى نشر الدعوة وفى شرح تعاليم الدين وغير ذلك .

أما الاتصال بالجماهير — وهو النوع الثالث والأخير — فهو من بدع العصور الأخيرة ومنها العصر الذى نعيش فيه ، ونحن نرى أن هذا العصر أصبح يعتمد فى الإعلام بالدرجة الأولى على الأجهزة الجديدة والمخترعات الحديثة مثل الصحف والكتب والسينما ووكالات الأنباء والراديو والتليفزيون ونحو ذلك ، والواقع أنه بدون هذه الأجهزة الجديدة لا يتيسر للقادة وأصحاب رأى فى عصرنا هذا أن يتصلوا بالجماهير ، ونقول الجماهير ونعنى بها الأعداد الضخمة من الناس فى كل دولة من الدول الحديثة ، وهى الأعداد التى تعد بالآلاف والملايين الكثيرة ، ثم هى الأعداد التى يستحيل جمعها فى مكان واحد لتستمع إلى متحدث واحد كما كان هذا من الأمور الميسورة فى العصور القديمة والبيئات القديمة .

معنى ذلك باختصار أن الاتصال بالجماهير وهو التسمية التى تطلق على الإعلام والاتصال فى العصور الحديثة أصبحت تعتمد على وسائل صناعية بحتة فى هذا المجال ، وإن كانت لا تستطيع الاستغناء استغناء تاماً عن الوسائل الفطرية القديمة ومنها الخطابة أو القصيدة ، أو الندوة أو المعرض وغير ذلك .

* * *

وخلاصة القول أننا حين نتحدث عن الخطبة النبوية إنما نتحدث عن قوة من قوى الإعلام فى عصر الرسول تأتى فى الدرجة الثانية مباشرة بعد القرآن الكريم والحديث الشريف .

فما المجالات العامة للخطب التي أثرت عن النبي ؟

إن نظرة سريعة في هذه الخطب تدلنا على أنها اشتملت على المجالات التالية :

أولاً : الكلام في مجال الدين من حيث أركانه وعباداته ومعاملاته ، وقد استغرق ذلك معظم حياة النبي ﷺ منذ البعثة إلى نهايتها .

ثانياً : الكلام في مجال الجهاد ، وقد شرحنا ذلك في بعض فصول الباب الأول ومنها فصل بعنوان : الأحاديث النبوية قوة دعائية .

ثالثاً : الكلام في مجال الأخلاق . وهو من أطول المجالات التي تكلم فيها الرسول . ذلك أنه - كما سبق القول في الفصل الذي عنوانه : القرآن أكبر وسائل الإعلام في عهد الإسلام - كان مسئولاً عن بناء مجتمع جديد له مفاهيم جديدة وقيم جديدة ، ومن ثم اشتمل هذا المجال على بيان الصفات التي يحمدها الإسلام والصفات التي نهى عنها .

ويطول بنا القول لو أردنا أن نشرح هذين الجانبين ، وفيما أوردناه من الكلام في مجال الأخلاق الجديدة التي صورها القرآن ما يغني عن المضي في ذلك .

رابعاً : الثناء على الخالق سبحانه وتعالى بما هو أهله من الصفات ، وتصويره تعالى في أذهان المسلمين بالصورة التي رسمها القرآن .

خامساً : الثناء على أصحابه رضوان الله عليهم - وبنوع خاص - أبوبكر وعمر وعثمان وعلي ، وحث المسلمين جميعاً على إكرامهم والرجوع إليهم في كل ما أشكل عليهم من الأمر .

سادساً : أوصاف الجنة والنار كما جاءت كذلك في القرآن . هذه أشهر المجالات التي سبغت فيها خطب رسول الله ﷺ ونريد أن نختار منها مجالين فقط على سبيل المثال وهما :

١ - مجال الأخلاق .

٢ — مجال الثناء على أصحابه رضوان الله عليهم

وسنأتي، بمثل واحد فقط لكل واحد من هذين المجالين ، رغبة منا في الإيجاز ، وتدليلاً في الوقت نفسه على الجانب الإعلامي أو الدعائي الذي قامت به الخطبة النبوية خير قيام .

مجال الأخلاق

دعا رسول الله ﷺ إلى مكارم الأخلاق كما أوصى بها الكتاب الكريم وكما اقتضته ظروف الثورة الجديدة التي هي الإسلام ، فأمر بجملة أشياء منها :

محاسبة النفس ، وحسن المعاملة ، وحسن الجوار ، والشعور التام بالمسئولية الاجتماعية ، والتكافل الاجتماعي ، كما يدل عليها الحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) ، كما أمر المسلمين جميعاً بالعمل للآخرة وعدم إهمال الدنيا : (اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) ، كما أمر الرسول أيضاً بنصيحة الحاكم . ونهى رسول الله عن أشياء منها : الغيبة والنميمة وأكل مال اليتيم (وقتل النفس إلا بالحق) ، كما نهى عن الفخر وعن الظلم وعن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وعن الغش وعن إيذاء المرأة والضعيف ، وعن الإضرار بالجار .

غير أن أهم الصفات التي دعا إليها الرسول وحذر من نقيضها — صفة الصدق ، وصفة الإخلاص .

(١) خطبته في معنى الإخلاص

عن علقمة بن وقاص أنه سمع عمر بن الخطاب ، وهو يخطب الناس فقال :

(١) محمد خليل الخطيب : اتخاف الأنام بخطب رسول الإسلام ص ٧٠ .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها . فقال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لكي يقال : جرى . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى وقال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقى في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به إلى ربه فعرفه نعمه فعرفها ، قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت لك ، قال : كذبت ، ولكن فعلت ليقال : جواد . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى في النار » (رواه مسلم والترمذي والنسائي)

النبي يشني على أصحابه (١)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « صعد رسول الله ﷺ المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : مالي أراكم تختلفون في أصحابي أما علمتم أن حب آل بيتي وحب أصحابي فرضه الله تعالى على أمتي إلى يوم القيامة ؟ ثم قال . أين أبو بكر ؟ قال : هأنذا يا رسول الله . قال . ادن مني . فضمه إلى صدره ، وقبل بين عينيه ، ورأينا دموع رسول الله ﷺ تجري على خده ، ثم أخذه بيده وقال بأعلى صوته معاشر المسلمين هذا أبو بكر الصديق .

(١) المصدر السابق ص ٣٠٣ .

هذا شيخ المهاجرين والأنصار ، هذا هو صاحبني في الغار ، صدقتني حين كذبتني الناس ، وآواني حين طردوني ، واشتريني لي بلالا من ماله ، فعلى مبعضه لعنة الله ولعنة اللاعنين . والله منه برىء . فمن أحب أن يبرأ من الله ومنى فليتبرأ من أبي بكر الصديق ، وليبلغ الشاهد منكم الغائب .

ثم قال ﷺ : أين عمر بن الخطاب ؟ فوثب إليه عمر وقال : هأنذا يا رسول الله فقال : ادن مني . فدنا فضمه إلى صدره وقبل بين عينيه ورأينا دموع رسول الله ﷺ تجري على خده ثم أخذ بيده وقال بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، هذا عمر بن الخطاب شيخ المهاجرين والأنصار ، هذا الذي أمرني الله أن أتخذه ظهيراً ومشيراً . هذا الذي يقول الحق وإن كان مرأى ، هذا الذي لا يخاف في الله لومة لائم . هذا الذي يفرق الشيطان من شخصه ، هو سراج أهل الجنة فعلى مبعضه لعنة الله ولعنة اللاعنين ، والله منه برىء . ثم قال : أين عثمان بن عفان ؟ فوثب عثمان وقال : هأنذا يا رسول الله ، فقال : ادن مني فدنا منه وضمه إلى صدره ، وقبل بين عينيه ، ورأينا دموعه تجري على خده . ثم أخذ بيده ، وقال : يا معشر المسلمين : هذا عثمان بن عفان . هذا شيخ المهاجرين والأنصار . هذا هو الذي أمرني الله أن أتخذه سنداً ونختاً على ابنتي ، ولو كان عندي ثالثة لزوجتها إياه ، هذا الذي استحييت منه ملائكة السماء . فعلى مبعضه لعنة الله ولعنة اللاعنين ثم قال : أين علي بن أبي طالب ؟ فوثب إليه وقال : هأنذا يا رسول الله ؟ قال : ادن مني . فدنا منه ، وضمه إلى صدره ، وقبل بين عينيه ودموعه تجري على خده ، ثم أخذ بيده . وقال بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، هذا شيخ المهاجرين والأنصار ، هذا أخى وابن عمي ونختي ، وهذا لحمي ودمي وشعري ، هذا أبو الحسن والحسين ، سيدى شباب أهل الجنة ، هذا مفرج الكرب عني . هذا أسد الله وسيفه في أرضه على أعدائه فعلى مبعضه لعنة الله ولعنة اللاعنين ، والله منه برىء وأنا منه برىء ، فمن أحب أن يبرأ من الله ومنى فليتبرأ من علي بن أبي طالب ،

وليبغ الشاهد منكم الغائب ، ثم قال : اجلس يا أبا الحسن ، فقد عرف لك ذلك .

(أخرجه أبو سهل في شرف النبوة . الرياض النضرة ، ج ٢٩ ، ٥٣ ، إن الله اختار أصحابي) .

* * *

حسبنا هذان المثالان السابقان من خطب رسول الله ﷺ ، وفي الخطبة الثانية لون من ألوان الدعاية الطيبة قام بها الرسول ليعلم الرضا عن هؤلاء الأربعة الكبار من أصحابه وهم الذين تولوا الخلافة من بعده كما هو معروف في التاريخ .

غير أننا لا نستطيع أن نترك فصل (الخطبة النبوية) دون الوقوف قليلا عند أشهر خطب من خطب الرسول ، وهي الخطبة التي ألقاها في :

حجة الوداع

وفيهما يقول ﷺ . . .

(أما بعد) أيها الناس .

اسمعوا مني أبين لكم ، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . . .

أيها الناس . . .

إن دماءكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ! ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبداً به ربا عمي العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير (السدانة) و (السقاية)^(١) .

(١) أي خدمة الكعبة وسقاية الناس بها .

أيها الناس . . .

إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .
ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس . .

إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . . فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً .

ألا — هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس :

إنمسا المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله وسنتى (١) .

ألا — هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس .

إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربي فضل على عجمي ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى .

ألا — بلغت ؟ اللهم فاشهد .

(١) وفي رواية : كتاب الله وعترته أهل بيته .

قال السامعون : نعم .

قال رسول الله ﷺ : فليبلغ الشاهد منكم الغائب :

أرأيت لهذه الخطبة الجلييلة كيف كانت بياناً صريحاً للعرب وتطبيقاً دقيقاً لمبادئ القرآن ، وإعلاماً قوياً بالمبادئ التي بنى عليها الإسلام :

إن أول شيء أوصى به رسول الله ﷺ أن ينسى المسلمون ديونهم التي كانت لهم في الجاهلية ، وأن ينسوا كذلك دماءهم وثأرهم لهذه الدماء التي أسفكت الجاهلية وأن يتركوا ربا الأموال التي أقرضوها في الجاهلية وأن يبدأ بربا العباس عمه ودم عامر بن عبد المطلب .

ثم دعا النبي ﷺ كذلك إلى نبذ التفاخر بمآثر الجاهلية ، واستثنى منها مفخرتين فقط هم السدانة أي : خدمة الكعبة ، والسقاية وهي سقى الحجاج في الكعبة .

ثم دعا الناس إلى حسن معاملته المرأة ، وأوضح لهم حق الرجل عليها ، وحقها عليه . وقال للعرب : « اتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً » ثم أوصى ﷺ قومه بمحافظه كل منهم على مال أخيه وعلى دمه ، فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ولا يحل لامرئ قتل أخيه إلا بالحق .

ثم قال لهم : لقد تركت فيكم شيئين إن حافظتم عليهما وأخذتم بهما لن تضلوا أبداً . هذان الشيئان هما كتاب الله وسنة رسوله ،

وأخيراً دعاهم إلى نبذ التفرقة العنصرية أو غير العنصرية ، وكان كلامه ﷺ في هذه النصيحة الأخيرة أوضح من ضوء الشمس . فقالها للمسلمين كلمة صريحة وحازمة .

« ليس لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى » ، وكم كان رسول الله بليغاً كل البلاغة ومبيناً أفصح إبانة حين كان ينظم كل فقرات خطابه بهذه العبارة :

ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

لقد عرف التاريخ خطباء كثيرين من اليونان والعرب كانوا يستخدمون هذه الطريقة من طرق الخطابة وهي أنهم يهتمون كل فقرة من فقرات كلامهم بجملة معينة يكررونها ويلحون في تكرارها حتى تفصل بين فقرة وأخرى أو معنى ومعنى ، وتنقل السامع إلى الفقرة التالية أو الفكرة التي تأتي بعد ذلك وهكذا . . . ولكن التاريخ قد يعجز عن الإتيان بمثل هذه العبارة التي كان يختم بها محمد جزءاً من أجزاء خطبته وهي قوله . . . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

إنها عبارة لها من قوة الإعلام وتنبيه الأذهان ، وتسجيل الشهادة على كل من حضر هذه الخطبة ما لا يمكن أن يكون لعبارة أخرى في موضع كهذا في موقف كهذا من رسول كريم كهذا الرسول .

سادساً: أعني سادس المجالات التي اتسعت لخطب النبي - مجال استقبال الوفود التي تأتي لتعلن إسلامها بين يديه ، أو يأتي بعضها بعد إسلامها لكي تستزيد من علمها وتزداد به هداية ، وكان المؤمنون الأوائل من الصحابة يشاركون في هذه الفرص ويردون على خطباء الوفود إذا أذن لهم الرسول بذلك .

قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ . فقال : أيكم يعرف قس بن ساعدة الإيادي ؟ فقالوا : كلنا يارسول الله نعرفه ، قال : فما فعل ؟ قالوا : هلك ، قال : ما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس ، ويقول :

أيها الناس :

اسمعوا وعلوا

من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت : إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً ، مهاده موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحر يفور ، أقسم قس بالله قسماً حقاً . . . لئن كان في الأرض

رضا ليكونن بعده سخط . إن لله ديننا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه . مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا ؟

ثم قال رسول الله ﷺ : أفياكم من يروى شعره ؟

فأنشده بعضهم :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إليك ولا من الباقيين غابر
أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر

سابعاً : وكثيراً ما تكون خطب الرسول على شكل وصايا لجماعات من المسلمين فى المدينة أو لبعض الوفود التى تفد إليه فيها ، ومن الأمثلة على ذلك وصيته لوفد الأزدي .

روى علقمة بن يزيد الأزدي عن جده قال :

وفدت سبع أسبعة من قومي على رسول الله ﷺ ، فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه ما رأى من سميتنا وزينتنا فقال : ما أنتم ؟ قلنا : مؤمنون ، فتبسم رسول الله ، وقال : إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟ قلنا : خمس عشرة خصلة ، منها خمس أمرتنا سلك أن نؤمن بها ، وخمس أمرتنا أن نعمل بها ، وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية ، فنحن عليها إلا أن نكره منها شيئاً ، فقال رسول الله : ما الخمس التى أمرتكم بها رسلى ؟ قلنا : أمرتنا سلك أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، قال : ما الخمس التى أمرتكم أن تعملوا بها ؟ قلنا : أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله وأن نقيم الصلاة ونؤدى الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلاً ، قال وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية قلنا : الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء

والصدق في الحرب عند اللقاء، وترك الشتمة بالأعداء، فقال رسول الله ﷺ :
حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ، ثم قال : وأنا أزيدكم
خمساً فتم لكم عشرون خصله : إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا مالا تكلون ،
ولا تبنوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه زائلون . واتقوا
الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون . وارغبوا فيما عليه تقدمون ،
وفيه تخلدون .

فتفرقوا وقد حفظوا وصيته عليه الصلاة والسلام .. وعملوا بها (١) .

* * *

أتينا بهذه الوصايا الأخيرة لتكون نموذجاً من خطب الرسول ﷺ على
هذه الصورة ، ولكي تكون مثلاً حياً من طريقة الرسول في تعليم الدين ،
وهي مثل ما يقوم كما رأيت على الحوار اللطيف بين الأستاذ والتلميذ ،
كما يقوم كذلك على مسابقة عقول السامعين ، وإضافة المعلومات الجديدة
على أساس من المعلومات القديمة - فعل المعلم البار والمربي الماهر
والمحدث اللبق .

(١) الأنوار المحمدية للنبهاني ص ١٩٢ .

الفصل الثامن الدعاية الشعرية في عهد الرسول

رأينا من قبل كيف أن أهم وسائل الإعلام في عهد الرسول وسيلة الكلمة المسموعة والكلمة المكتوبة ، أما الكلمة المسموعة فتمثلت في خطب النبي وخطب الصحابة وفي القصائد الشعرية ، وأما الكلمة المكتوبة فكانت لها صورة واحدة لم تكن تعدوها إلى غيرها في حياة الرسول والصحابة ، ونعني بها صور الرسائل التي بعث بها النبي إلى الملوك ورؤساء القبائل المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وفي الرسائل التي وردت عن النبي والصحابة في غير هذا الغرض .

ولكن السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا الآن هو : ما منزلة الشعر بين الوسائل الإعلامية التي تعتمد على الكلمة المسموعة ؟ أو بمعنى آخر : أيهما كان أقوى تأثيراً في الجموع العربية وأدعى إلى نجاح الرسالة الحمديّة ؟ الخطابة أم الشعر ؟ .

مما لا شك فيه أن الخطب — ونخص بالذكر منها خطب صاحب الدعوة — كانت أقوى في باب الإعلام والدعاية من جميع الوسائل الأخرى التي انطوت تحت عنوان : « الكلمة المسموعة » ومن السهل علينا أن نلاحظ قبل كل شيء أن العرب على عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين وإلى أواخر الدولة الأميرية كانوا أهل خطابة أكثر منهم أهل كتابة ، ذلك أن الخطابة ملائمة للبداوة والكتابة وليدة الحضارة وأكثر ملاءمة لها من الخطابة ، ولذلك لم يعرف المسلمون الكتابة الفنية بالمعنى الصحيح إلا بعد دخول الأمم الأجنبية في الإسلام ، ومنها دولة الفرس بنوع خاص ؛ وهذا هو السبب في أن الخطابة بقيت أولى وسائل الإعلام ، والتأثير عند العرب طول العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين وجزء كبير من العهد الأموي ،

ثم هذا هو السبب في أن العرب في عهد بني أمية كانوا ينظرون إلى الخطيب نظرة أعلى من نظرتهم إلى الكاتب .

أما الشاعر فكان في المنزلة التي تلي منزلة الخطيب، ومن هنا كان النبي وخلفاؤه من بعده أشد حرصاً على الخطيب منهم على الشاعر ، ولولا أن التقاليد العربية القديمة أعطت الشاعر أهمية عظيمة لكان من الجائز أن يهمله النبي والخلفاء الراشدون من بعده ، ولكنهم احتفظوا به وبشعره لأن شعره كان يترك أثره في نفوس العرب الذين تعودوا سماعه منذ العصر الجاهلي .

ولإليك هذين الخبرين : أحدهما عن شاعر والآخر عن خطيب :
فأما خبر الشاعر فهو هنا : (الأسود بن شريح) وقد جاء إلى النبي ينشده بعض المدايح واستحسنه مرتين ، إذ دخل عليهما عمر ، والشاعر لا يعرفه ، فصاح قائلاً : واثكلاه - من هذا الذي أسكت له عند النبي ؟ فقال النبي : هذا عمر ، هذا رجل لا يحب الباطل .

يؤخذ من هذا الخبر أن الشعر كان ينظر إليه منذ ظهور الإسلام على أنه باطل ، وذلك مصداق لما جاء في القرآن الكريم : « والشعراء يتبعهم الغاؤون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون مالا يفعلون * إلا الدين آمنوا » .. إلخ .

معنى ذلك أن الشعر كان في زمن النبي والخلفاء الراشدين يعتبر وسيلة إعلامية من الدرجة الثانية بعد الخطبة .

وأما خبر الخطيب فهو هنا (سهل بن عمرو) وقد أسر في بدر فأشار عمر على النبي بكسر ثنيتيه السفليتين ليصبح عاجزاً عن الكلام ، وكان مشقوق الشفة السفلى ، فأبى النبي ذلك وقال : « عسى أن يقوم قياماً لانذمه » فما زال عمر حتى رآه في حروب الردة أيام أبي بكر يقطع بلسانه كما يقطع السيف ، فحمد له ذلك المقام وصدقت فيه نبوءة رسول الله ﷺ ،

ووضحت حجته في الحرص على هذا الخطيب الذي قد ينتفع به في يوم من الأيام .

* * *

والخلاصة حتى الآن أن النبي ﷺ - وهو داعية الإسلام - لم يكن شاعراً « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » وإنما كان خطيباً ومحدثاً ، ومن ثم كانت خطبه وأحاديثه من أكبر وسائل الإعلام والدعاية للإسلام وذلك بعد القرآن ، ومع هذا وذاك فإن محمداً لم يتجاهل الشعرو لم يرد الشعراء وهو يعلم جيداً أن هؤلاء مكانة كبيرة في نفوس العرب منذ الجاهلية . ولذلك سمع الرسول شعراً في مدحه ومدح الدين الذي جاء من أجله كما سمع الرسول شعراً في ذم قريش وهو منهم وهم منه . وكان كبير الشعراء الذين هجوا قريشاً أمام الرسول (حسان بن ثابت) ، وقد أعرب له الرسول عن تعجبه من أنه يهجو قريشاً وهم أهله وعشيرته ، فأجابه حسان : أنا أعلم ذلك يا رسول الله ، ولكني أستلك منهم كما تسلك الشعرة من العجين . فسكت الرسول العظيم .

* * *

ولنا بعد ذلك أن نستعرض طائفة قليلة من الأشعار التي قالها حسان ابن ثابت في مدح النبي ﷺ (١) .

نبي أتانا بعد يأس وفرة	من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً	يلوح كما لاح الصقيل المهند
وأندرنا ناراً وبشر جنّة	وعلمنا الإسلام فالله نحمد
وأنت إله الحق ربّي وخالق	بذلك ما عمرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا	سواك إلهاً أنت أعلى وأجود
لك الخلق والنعماء والأمر كله	فإياك نستهدى وإياك نعبد

(١) سمط للآلئ ص ٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ ص ٩٦ .

لأن ثواب الله كل موحد جنان من الفردوس فيها يخلد
 ألا ترى معي أن شعر حسان في هذه الأبيات يوشك أن يكون نظماً
 لبعض آيات القرآن الكريم التي تذكر أن محمداً بعثه الله بعد فترة من الرسل ،
 وأنه بعث والناس يعبدون الأصنام بدلاً من عبادة الله تعالى ، وأن الله
 أرسله إلى الخلق هادياً وبشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً ، وأنه بشر بالجنة
 وأنذر بالنار ، وما بعد الحياة الدنيا شيء غيرهما وأن الله تعالى أعلى مما يعبد الناس
 غيره من الحجارة وغيرها ، وأن الأمر كله لله ، له الخلق وله الحمد وهو
 وحده رب النعم التي ينعم بها الناس ، وأن الجنة هي المكان الذي وعد به
 كل مؤمن بالله تعالى ومقر بوحدانيته .

وكل هذه المعاني إسلامية بحتة وليس للعرب عهد بها قبل ظهور الدين
 الجديد — وانظر إلى شاعر آخر — وهو كعب بن زهير — كيف مدح
 الرسول ﷺ بقصيدة عظيمة أعجب الرسول نفسه بها فخالع بردته على
 قائلها تكريماً له ، وفيها يقول (١) :

إن الرسول لنور يستضاء به	مهند من سيوف الله مسلول
في عصابة من قریش قال قائلهم	ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف (٢)	عند اللقاء ولا ميل معازيل
شم العرانيين أبطال لبوسهم	من نسج داود في الهيكل اسراييل
لا يفرحون إذ نالت سهامهم	قوماً ، وليسوا مجاذيماً إذا نيلوا

* * *

على أن الشعراء المحيطين بالنبي كان عليهم أن يقوموا بواجب آخر —
 فضلاً عن مدح الرسول — وهذا الواجب — في نظرهم — هو هجاء أعداء
 الإسلام من المشركين في مكة واليهود في خيبر وغيرها من المراكز اليهودية

(١) كتاب جمهرة أشعار العرب . طبعة بولاق سنة ١٣٠٥ هـ ص ١٥٠ .

(٢) أنكاس جمع نكس بكسر النون وهو الجبان والكشف بضم الشين الذين

ينكشفون للعدو .

ومن قول حسان في هجاء خيبر على سبيل المثال (١) :

لو كنت من هاشم أو من بنى أسد أو عبد شمس وأصحاب اللوا الصيد
أو من بنى نوفل أو ولد مطلب لله درك لم تهتم بتهديد
أو كنت من زهرة الأبطال قد علموا أو من بنى خلف الزهر الأماجد
يالآل تيم ألا تنهى سفهكمو قبل (اللقاء) (٢) بأمثال الجلاميد
وقال يهجو أبا لهب (٣) :

أبا لهب أبا—غ بأن محمداً سيعلو بما أدى وإن كنت راغما
وإن كنت قد كذبتة ونخلته وحيداً وطاوعت الهجين الضراغما
ولو كنت حراً في أرومة هاشم وفي سرها منهم منحت المظالما
سمت هاشم للمكرمات وللعلا

وغودرت في كاب (٤) من اللؤم جائماً

وقال حسان يهجو أبا سفيان (٥) .

لقد علم الأقوام أن ابن هاشم
هو الغصن ذو الأفنان لا الواجد الوغد
ومالك فيهم محتد يعرفونه فدونك لصق مثلما لصق القرد
وأبغ أبا سفيان عنى رسالة فمالك من إصدار عزم ولاورد
وإن سناء المجد من آل هاشم بنو عبد مخزوم ووالدك العبد
وما ولدت أفناء زهرة منكمو كريماً ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعباس ولا كابن أمه ولكن هجين ليس يورى له زند
وكننت دعياً نيظ في آل هاشم كما نيظ خاف الراكب القدح الفرد

(٢) في الأصل الفئات .

(١) ديوان حسان ص ٨٤ .

(٤) هكذا في الأصل .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ص ٨ .

(٥) الديوان ص ٩١ .

وأفحش حسان في هجاء أبي سفيان حتى قال فيه (١) :

غضضت بفرع من أبيك ونخاله وغضت بنو النجار بالسكر الرطب
فلست بخير من أبيك ونخاله ولست بخير من مفاضلة الكلب
ولست بذي دين ولا ذى أمانة ولست ببحر من لوى ولا كعب

* * *

ثم كان على الشعراء الملازمين للنبي ﷺ واجب ثالث وهو تهيشة الرسول بيوم النصر وثناء القتلى من ذويه وأصحابه في ميدان الحرب :

قال حسان في يوم بدر يرثى قتلى المسلمين في هذه المعركة (٢) :

ألا يا قوم هل لما حم دافع
وهل ما مضى من صالح العيش راجع
تذكرت عصراً قد مضى فتهافت
بنات الحشا واهل منى المدامع

صبابة وجد ذكرتنى أحبة وقتلى مضوا منهم نقيع ورافع
وسعد فأضحى في الجنان وأوحشت منازلهم والأرض منهم بلاقع
وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم عذاب المنايا والسيوف اللوامع
دعا فأجابوه بحق وكلهم مطيع له في كل أمر وسامع
فما بدلوا حتى توافوا جماعة ولا يقطع الآجال إلا المصارع
لأنهم يرجون منه شفاعته إذا لم يكن إلا النبيين شافع
وذلك يا خير العباد بلاؤنا ومشهدنا في الله والموت نافع
لنا القدم الأولى إليك ونخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع
ونعلم أن الملك لله وحده وأن قضاء الله لا بد واقع

* * *

(١) الديوان ص ٦٢ .

(٢) الديوان ص ٥٨ .

وقال حسان يوم فتح مكة من قصيدة أولها :
عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها نخلاء
ومنها :

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
ولا فاصبروا لجلاد يوم يعين الله فيه من يشاء
وقال الله قد يسرت جندا هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد قتال أو سباب أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء
وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به وقوى صدقه فقلتم : ما نجيب وما نشاء
وجبريل أمين الله فينا وروح القدس ليس له كفاء
ومنها :

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذلكجزاء
أتهجوه ولست له بكفاء فشركما تلخيركما الفداء
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء

* * *

وأخيراً كان من عمل الشعراء الملتفين حول النبي ﷺ أنهم يردون على
الشعراء الذين كانوا يهجونهم ﷺ تقرباً للمشركين ، ومن هؤلاء شاعر
يقال له (ابن الزبيري) وقد ظل يهجو النبي حتى أسلم فانقلب شاعراً من
شعرائه وأنصاره بعد أن كان من أعدائه وخصومه ، وقد رد عليه حسان
ابن ثابت في قصائد كثيرة منها على سبيل المثال (١) .

لا طت قريش حياض الحجد فافترطت سهم فأصبح منه حوضها صفرا

وأوردوا وحياض المجد طامية فدل حوضهم الوراد فانهدرا

ومنها :

يا آل سهم فإني قد نصحت لكم لأبعثن على الأحياء من قبرا
ألا ترون بأنى قد ظلمت إذا كان (الزبعرى) لنعلى (ثابت) خطرا
كم من كريم يعرض الكلب مزره ثم يفر إذا ألقيته حجرا
لولا النبى وقول الحق مغضبة لما تركت لكم أنثى ولا ذكرا

* * *

وهكذا كان الشعر يقوم فى خدمة النبى ﷺ بكل هذه الواجبات التى ألقاها على كاهله ظهور الإسلام .

ولكننا نعود فنقول إن الرسول — فيما يظهر — كان لا يعول كثيرا على هذه الوسيلة الإعلامية أو هذا الشكل من أشكال الدعاية ، وذلك أن الشعر مهما عظم شأنه فى تلك الفترة لا يمكن أن يقاس من هذه النواحي بالقرآن الكريم أو بالحديث الشريف أو بخطب الرسول ﷺ أو بالقدوة الحسنة التى أمتاز بها المصطفى ﷺ وأصحابه الكرام .

ومما لا شك فيه أن الأفضلية كانت لهذه الوسائل الإعلامية التى أشرنا إليها ووقفنا عند كل واحدة منها ، وكانت كلها مقدمة على وسيلة الشعر الإسلامى الذى لأن أسلوبه بظهور هذا الدين ولم يصلح فى جزالة الشعر الجاهلى ومثانة نسجه وقوة بنائه ، ذلك أن الشعراء فى الإسلام لانت عريكتهم ورقت عواطفهم وامتألت نفوسهم بالمعانى الجديدة والمفاهيم الجديدة والقيم الجديدة وهى القيم التى من شأنها أن تخلق من العربى فى الإسلام رجلا بعيداً عن العنف وعن الحمق وعن البطش وعن الظلم ، والشعر عند العرب فى الجاهلية كان يبنى على الشر فى أكثره ، وذلك بغض النظر عن بعض الحكم التى وردت فى المعلقة التى كانت تعبيراً عن تجاربهم فى الحياة .

ولنا أن نأخذ الدليل على ذلك من حسان بن ثابت شاعر النبى ﷺ :

فقد انقسم النقاد القدماء حول حسان قسمين :

القسم الأول : وهو الأقل — يحكم له حكماً مطلقاً ويقول إنه من أجود الشعراء في الجاهلية والإسلام .

القسم الثاني : وهو الأكثرية من النقاد ومعهم حسان بن ثابت نفسه — يوازن بين جودة شعره في الجاهلية وسقوطه في الإسلام .

ومن أشهر رجال القسم الأخير الأصمعي ، وقد أثرت عنه ثلاث روايات :

الرواية الأولى وتقول : إن الشعر نكد ، يقوى في الشر ، فإذا دخل في الخير ضعف ، وهذا حسان كان من فحول الشعراء في الجاهلية — فلما جاء الإسلام سقط شعره^(١) .

والرواية الثانية تقول : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر . ثم قطع متنه في الإسلام لحال النبي ﷺ^(٢) .

والرواية الثالثة تقول : طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان « أي ضعف » . ألا ترى حسان بن ثابت كان قد علا في الجاهلية فلما دخل شعره في باب الخير : من مرأى النبي ﷺ وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما لان شعره . وطريق الشعر هو طريق الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابعة في صفات الديار والرحال والهجاء والتشبيب بالنساء والخمر والحيل والحرب والافتخار ، فإذا أدخلته في باب الخير لان^(٣) .

وقيل لحسان بن ثابت نفسه ، لان شعرك وهرم يا أبا الحسام .

فأجاب عن ذلك بقوله :

يا ابن أخي إن الإسلام يحجز عن الكذب فلا يبيح الشعر جيداً^(٤) .

(١) أسد الغابة ج ٢ ، ٤ . (٢) الشعر والشعراء ص ١٧١ .

(٣) الموشح ص ٦٢ .

رأيت هذه الرويات الثلاث في كتاب (حسان بن ثابت شاعر الرسول) للدكتور سيد حنفى حسنين - الحلقة رقم ٣٠ من سلسلة أعلام العرب ص ٤٣ .

(٤) أسد الغابة ج ٢ ، ٤ .

الباب الثالث الدعاية والإعلام في عهد الخلفاء الراشدين

تخصيصة

نريد أن نلقى على أنفسنا هذا السؤال :

ماذا كان عليه الحكم الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ؟ مادام شكل الإعلام ونظام الاتصال بالناس مبنياً في كل زمان ومكان على شكل الحكومة القائمة ؟

أجل - لكل نوع من أنواع الحكومات في العالم نظام إعلامي يتفق معه ويوائم ، وهذا قول صحيح بالقياس إلى الحكومات القديمة والحديثة على السواء ، والإعلام أو الاتصال بالناس هو الوسيلة الوحيدة لإيجاد التفاهم بين الحاكم والمحكوم منذ أقدم العصور ، وحاجة الحاكم إلى هذا الاتصال من حاجة المحكوم إليه .

غير أن شكل الحكومة في عهد الخلفاء الراشدين كان يخالف شكل الحكومة عند الخلفاء الأمويين فالعباسيين وسائر الحكومات الإسلامية التي ظهرت بعد ذلك إلى اليوم ، وبناء على ذلك وجب أن يكون للإعلام أو الاتصال في حكومة الخلفاء الراشدين صورة مخالفة للإعلام أو الاتصال في عهود الحكومات الإسلامية التي أتت بعد ذلك .

وحسبنا أن نلفت النظر أولاً إلى الطريقة التي اختار بها المسلمون أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علياً - رضي الله عنهم ، وهي طريقة مبنية على الانتخاب الحر في أكثره ، أما الخلافة الأموية فالعباسية وما جاءت بعدها من الحكومات الإسلامية فقد بنيت على الوراثة ، وفرق كبير بين الانتخاب والوراثة - وهذا معنى ما قاله المؤرخون الإسلاميون القدماء من أن الخلافة الإسلامية بعد علي بن أبي طالب تحولت إلى ملك عضوض كالملك الذي شهده الفرس أو الروم ، ومن إليهم .

وقد نستطيع أن ننظر نظرة سريعة إلى أنواع الحكومات عبر التاريخ ، وخاصة في البلاد الأوروبية ذاتها ، فنجد منها الحكومات الآتية :

(م ١٣ - الإعلام في صدر الإسلام)

الحكومة الديمقراطية :

ولهذه الديمقراطية أشكال مختلفة ، ولكن من المحقق أن الشبه بعيد بين هذه الأشكال جميعها من جهة ، وشكل الديمقراطية في حكومة الخلفاء الراشدين من جهة أخرى ، ذلك أن الديمقراطية الإسلامية على أيدي الخلفاء الراشدين كانت تتمثل في مظهر واحد فقط ، هو مظهر «أهل الحل والعقد» وهو أشبه بمجلس يتألف من كبار الصحابة ويستعين به الخليفة في تسيير أمور المسلمين ، ولا يكاد الخليفة يقطع في أمر من هذه الأمور حتى يرجع إلى أولئك الصحابة . أما عامة المسلمين فلم يكن لهم رأى معمول به ، ولا يمنع ذلك واحداً من أولئك العامة — رجلاً كان أو امرأة — أن ينتقد الخليفة في بعض تصرفاته أو يعترض عليه في بعض أحكامه . فإذا وافق هذا الاعتراض كلام الله أو كلام رسوله لم يسمع الخليفة إلا النزول عن رأيه والاعتراف لهذا الرجل أو المرأة بأنه أو بأنها على حق ، ومن هنا جاء قول عمر في بعض مواقفه : أخطأ عمر وأصابت امرأة .

ومنها الحكومة الأوتوقراطية :

وهي حكومة الفرد المستبد ، ومن المؤكد أنها أبعد أشكال الحكومات عن حكومة الخلفاء الراشدين ، وهل كان واحد من أصحاب النبي ﷺ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي يستبد برأيه بهذا المعنى ؟ لقد مدحهم النبي في حياته وأثنى عليهم جميعاً ودعا لهم جميعاً وبشرهم جميعاً بالجنة ، وما ذلك إلا لأن كل واحد منهم كان صورة من النبي نفسه في جميع تصرفاته ؛ وحركاته وسكناته ، وكان كأنما يفكر بعقل النبي وينظر بعين النبي ويسمع بأذنه ، ويحس بقلبه ، ويبطش بيده إذا لزم الأمر ، ولم يمنع ذلك من أن يستقل كل واحد منهم بشخصيته التي تظهر في سيرته . وسنعرض لجانب واحد من جوانبها فقط ، هو الجانب الإعلامي .

ومنها الحكومة الشيوقراطية :

وهي حكومة ترفع الحكام على أساس الدين إلى مرتبة فوق مراتب البشر ، ثم هي الحكومة التي تجعل لرجال الدين منزلة فوق منزلة المحكومين الذين ليست لهم هذه الصفة .

ولسنا بحاجة إلى التدليل على أن هذه الصورة من صور الحكم لوجود لها في حكومات الخلفاء الراشدين ، وذلك بالرغم من أن هؤلاء الخلفاء كما بينا كانوا لا يتطعون في أمر من أمور المسلمين حتى يردوه إلى كبار رجال الدين ، وهم صحابة رسول الله ﷺ .

ومنها الحكومة الأوليغاركية :

وهي حكومة الصفوة أو الأقلية من الأشراف والسادة . وقد جاء الإسلام فساوى بين الناس ، وأنكر مثل هذه التفرقة . كما جاء في الأثر عن رسول الله ﷺ - قوله :

« اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » .

لم تكن حكومة الخلفاء الراشدين واحدة من هذه الحكومات التي أشرنا إليها ، وإنما كانت طرازاً خاصاً لم يعرفه الشرق ولا الغرب .

كانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم الديمقراطية بالمعنى الذي شرحناه وهو حكم الرعية بشرط أن يستعين الخليفة في حكمها (بأهل الحل والعقد) من هذه الرعية .

وكانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم المساواة ، وذلك بين الحاكم والمحكوم ، وبين المسلم وأخيه المسلم ، وفي ذلك يقول الرسول في حجة الوداع (ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى) . (كلكم لآدم وآدم من تراب) .

وكانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم معنى الحرية ، فلكل فرد في المجتمع الإسلامي حرية كاملة في أن يوجه النقد للخليفة وذلك كما قلنا : صعد عمر بن الخطاب المنبر يوماً وقال للناس : إن أخطأت فقوموني ،

فانبرى له أحد الحاضرين وقال : والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه محمد سيوفنا ، فما كان جواب عمر إلا أن قال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من إذا أخطأت قومي بسيفه » .

وكانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم معنى العدل ، ولانعلم حكومة في تاريخ العالم كانت تلتزم بالعدل بالقدر الذي ظهر في حكم الخلفاء الراشدين .. وأخبار عمر بن الخطاب في هذا المجال أشهر من أن يشير إليها البحث ، لانكاد نستثنى من هذا الحكم إلا الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) رضى الله عنه ، فقد كان عثمان يفهم العدل بصورة تخالف ما كان عليه أبو بكر وعمر . وربما من أجل ذلك قامت (الفتنة الكبرى) التي اشتهر أمرها في التاريخ الإسلامى ، وسنقف عندها في الكلام عن الإعلام في زمن عثمان .

ترى ما الذى جعل لحكومة الخلفاء الراشدين شكلاً مخالفاً لجميع الحكومات الحديثة في الإسلام ؟

إن الذى جعل لها ذلك هو الحقيقة القائلة بأن القصد الأول للخلفاء الراشدين هو المحافظة التامة على تراث النبى بالصورة التي تركه بها ، أو بأن الشأن الأول للخلفاء الراشدين كان للعقيدة الإسلامية كما تركها النبى بعد فراغه من أداء الرسالة .

وهذه الحقيقة السابقة هي التي نستطيع أن نفسر على أساسها جميع الأعمال التي صدرت عن الخلفاء الراشدين ، ومنها أعمال القضاء ، وأعمال السياسة ، وأعمال التربية والتعليم ، ومنها — بطبيعة الحال — أعمال التوسع في الفتح .

فهل كانت الفتوحات الإسلامية بعد وفاة الرسول مجرد الغلبة والسلطان أو لإشباع شهوات الغزو والقتال وغريزة الصراع ؟ كلا ثم كلا . وننظر في سيرة الخلفاء الراشدين، فترى أنهم كانوا مقيدين كل التقييد يسيرة الرسول ، فما دام الرسول لم يكن يهدف من غزواته إلى الجاه

والسلطان ، وإنما كان يهدف إلى أمرين هما : نشر الدعوة الإسلامية وحماية هذه الدعوة في داخل المدينة وفي خارجها ، فكذلك كان الخلفاء الراشدون لا يهدفون وراء الفتوحات إلا إلى هذين الغرضين ولا شيء غير ذلك .

وإذا كان الأمر كذلك فما نظام الإعلام ، أو ما هي وسائل الاتصال التي كان يدرسها الخلفاء الراشدون بناء على هذه الحقيقة التي شرحناها ؟ وإلى أي حد نجحت هذه الوسائل في إيجاد التفاهم بين الحاكم والمحكوم في عهد أولئك الخلفاء بوجه عام ؟

مما لا شك فيه أن حكومات الخلفاء الراشدين ترسمت طريق الرسول في أكثر المجالات الإعلامية التي ظهر فيها نشاطه ﷺ ، ثم زادت عليها مجالات أخرى دعت إليها الظروف المحيطة بكل واحد من أولئك الأربعة ، وسيشرح هذا الباب بعض هذه المجالات وما أحاط بها من ظروف .

من أجل ذلك اقتدى الخلفاء الراشدون بالرسول في التركيز على الوسائل الإعلامية الآتية :

- أولاً — وسيلة القرآن .
- ثانياً — وسيلة الحديث .
- ثالثاً — وسيلة الخطابة .
- رابعاً — وسيلة الحج والعمرة لله .
- خامساً — وسيلة القدوة الحسنة .
- سادساً — وسيلة الفتوح .

غير أنه في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان بالذات وجد أنه ابتعد عن السياسة الإعلامية التي سنها الشيخان من قبل «أبو بكر وعمر» . واعتذر عن ذلك بأنه يرى مصلحة المسلمين تتحقق بطريقة أو أخرى غير طريقة الشيخين ، ومن ثم طفق عثمان يخصص أقرباءه بالولاية على الأقاليم ، ويخصص الباقين منهم بكثير من الهدايا التي يأخذها من بيت المال . وكان يسمى هذا المال (مال الله) ، واعتبرض الصحابة على ذلك وقالوا إنه (مال المسلمين) والفرق بين المعنيين عظيم .

من أجل هذه الظروف - ونعني بها ظروف المعارضة التي أدت إلى الثورة - ظهرت الحاجة ماسة إلى (الدعاية) ، ولكن هذه الدعاية لم تكن من جانب عثمان لتبرير مواقفه التي سخط عليها كبار الصحابة ، وإنما كانت من جانب الصحابة وأبناء الصحابة ، وقد انتشروا في مصر والشام وقاموا فيهما وفي غيرهما من الأقطار بهذه الدعاية الخطيرة ، وهي الدعاية التي قتلت عثمان بن عفان ، وهي وحدها المسؤولة عن قتله .

ولكن هذه الدعاية - كما سنشرح ذلك في موضعه من الكتاب -
لأمرين لا ثالث لهما :

أولهما - السياسة الإعلامية الرشيدة التي سار عليها الشيخان أبوبكر وعمر وهي السياسة المبنية على اتباع رسول الله ﷺ لا يحيدان عنه قيد أنملة .

وثانيهما - انفرد عثمان بمخالفة هذه السياسة الإعلامية الرشيدة إلى الدرجة التي ظنها كبار الصحابة خروجاً على سنة رسول الله ، ولم يكن للصحابة كل الحق في ذلك لولا أن صورة الحكم التي يمثلها الشيخان كانت لم تزل ماثلة في أذهانهم ، ولولا أن بعضهم كانوا من صحابة رسول الله ، ينظرون بعينه ويسمعون بأذنه ويشاركونه بأفكارهم وأموالهم وجهودهم التي بذلوها معه في سبيل الإسلام .

هكذا كادت حركة (الإعلام) في عهد الخلفاء الراشدين تكون صورة دقيقة من حركة (الدعوة) على يد الرسول ، مع فارق واحد لا بد أن نذكره . وهو الفارق الذي لا بد من وجوده بين النبي والحواري ، أو بين الأستاذ والتلميذ ، أو بين المتبوع والتابع .

ومع فارق آخر لا بد أن نذكره أيضاً وهو أن عثمان بن عفان كان يفهم الحكم والعدل بصورة تخالف صورتها عند أبي بكر وعمر ، ولذلك لم يكن من السهل على المؤرخ أن يصف عثمان بالخروج على سنة الرسول وابتداع سنة أخرى بعيدة عن سنته ﷺ .

الفصل الأول الإعلام في عهد أبي بكر

كانت أولى الحركات الإعلامية التي أدت إلى انتخاب الخليفة الأول
أبي بكر رضى الله عنه تتمثل فيما عرف في التاريخ باسم :

يوم السقيفة

فقد انعقد في ذلك اليوم ما يشبه المؤتمر السياسى الكبير . الغرض منه
هو اختيار خليفة لرسول الله ﷺ بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ،
وحضر المؤتمر كثيرون من زعماء المهاجرين والأنصار ، ولم يكده يتخلف
زعيم منهم عن الحضور ، حتى (سعد بن عباد) زعيم الخزرج – وكان
مريضاً في ذلك اليوم – فحمله قومه إلى مكان الاجتماع ليعطى كلمته فيه .

انتشر في المدينة نبأ وفاة الرسول ، فبادر الأنصار إلى التجمع في (سقيفة
بني ساعدة) ، وطفقوا يتحدثون في أمر الخلافة دون أن يشركوا معهم
أحداً من المهاجرين ، وكادت الفتنة تندلع نارها لهذا الخبر ، ولكن لم
يقدر لهذه الفتنة أن يتجاوز لها باب السقيفة .

فأما أبو بكر وعمر – وهما شيخا المهاجرين – فما كادا يعلمان بهذا
الاجتماع الذى أسرع به الأنصار حتى بادرا بالذهاب إليه ، وهناك التقيا
بزعماء الأوس والخزرج ، وإذ ذاك اتخذ المؤتمر لنفسه صورة متكاملة تجمع
زعماء الفريقين ، وأتيحت الفرصة لكل زعيم منهم أن يلقي كلمته .

فتكلم زعيم الأنصار سعد بن عباد بين حقهم في الخلافة فقال :
يا معشر الأنصار . لكم سابقة في الدين ، وأفضلية في الإسلام ليست
للقبيلة من العرب ، إن محمداً عليه الصلاة والسلام لبث بضع عشرة سنة في
قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن من قومه

إلا رجال قليل ، وما كانوا يقدرّون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزّوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضياعاً به حتى إذا كان متى أراد الله بكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد على عدوه من غيركم حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً أو كرهاً ، وأعطى البعيد المقاد صاغراً داخراً ، حتى أثمن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيا فكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض ؛ وبكم قرير العين ، استبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دون الناس هـ

ثم خطب أبو بكر يوضح حق المهاجرين في الخلافة وكان عمر يريد الكلام ، فقال أبو بكر : على رسلك . ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادة في العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان) . فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في النية وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم — فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله .

وفي رواية أخرى أن أبا بكر قال بعد ذلك :

إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسه عليهم الخزرج ، وإن تولته الخزرج نفسه عليهم الأوس ، وإن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش . منا الأمراء ومنكم الوزراء .

ثم تقدم عمر بن الخطاب للكلام فقال :

(إن العرب تمتنع أن تولى أمرها إلا لمن كانت النبوة فيهم ، وولى أمرهم منهم) . وكأن عمر بذلك أيد صاحبه أبا بكر في الرأي الذى .

جهربه ، وكأنهما كانا يتفقان فيما بينهما عليه قبل أن يأتيا لحضور يوم سقيفة
بنى ساعدة .

ثم جاء دور أبي عبيدة ، وهو أحد زعماء المهاجرين أيضاً ، فقال :
« يا معشر الأنصار كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من
يبدل وغير » .

وتوالى المتحدثون واحداً بعد الآخر بعد ذلك وإذا بالمجتمعين يسمعون
أبا بكر مرة ثانية ينادى بأعلى صوته قائلاً :
يا قوم : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا ،
وهنا انبرى عمر وقال : هذا أبو بكر إن شئتم فبايعوه .
ثم انبرى أبو عبيدة وقال مثل ذلك .

ثم سمع المجتمعون عمر يقول للمرة الثانية :

لا والله يا أبا بكر ، لانتولى هذا الأمر عنك فإنك أفضل المهاجرين ،
وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في
الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين^(١) ، فمن هذا الذي ينبغي له أن
يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك .

وسمع القوم - وفيهم أبو بكر : مقالة عمر : ومع ذلك تقدم أبو بكر
إلى عمر وقال له :

(١) كان النبي صلى الله عليه وسلم طريق الفراش أيام المرض التي سبقت الوفاة ، فأمر
زوجته السيدة عائشة بنت أبي بكر أن تبعث إلى أبيها من يقول له إن رسول الله يأمر أن
قوم الناس في الصلاة ، فترددت السيدة عائشة في أول الأمر حتى لا تنتهم بأنها تهمل الأمر
لأبيها ليكون الخليفة بعد رسول الله ولكن الرسول ألح عليها في ذلك ، فلم تجد بداً من
تبليغ الرسالة إليه فجاء مسجد الرسول وأم الناس في الصلاة .

ابسط يدك أبايعك يا عمر .

فقال عمر : أنت أفضل مني .

فقال أبو بكر : وأنت أقوى مني .

فقال عمر : إن قوتي لك مع فضلك ، ولا ينبغي لأحد بعد رسول الله ﷺ أن يكون فوقك ، إنك صاحب الغار مع رسول الله . وثاني اثنين ، وقد أمرك رسول الله ﷺ حين اشتكى فضيلت بالناس ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر .

ثم وثب عمر فأخذ بيد أبي بكر وبايعه ، فوثب الجميع من عليه الصحابة يتسابقون إلى البيعة .

ثم بايعه زعيم الأوس (بشير بن سعد) وهو يقول :

« كرهت أن أنازع قومًا في حق جعله الله لهم » .

ورأى الخزرج الحاضرون هذه الحركة فلم يبق لهم عزم وراء ذلك .
فزاحموا على البيعة حتى أوشكوا أن يطئوا زعيمهم المريض (سعد بن عباد) وماتت الفتنة في مهدها وكفى الله المؤمنين القتال .

حركة إعلامية كبيرة حضرها الزعماء الثلاثة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة في الساعة الصحيحة، وظهروا أمام الناس بالمظهر الملائم ، فلا تنافس بينهم على الخلافة ، ولا تهافت منهم على الإمارة ، ولا جفاء منهم لأحد من الأنصار ، ولا تنكر منهم لما لهؤلاء من فضل على الإسلام ، ولا إخفاء منهم للحقيقة التي لا يمارى فيها أحد ، وهي الحقيقة التي افتتح بها أبو بكر قائلا :

« إن العرب لا تدين لغير هذا الحى من قریش » ، ولا شك أن الفضل

في نجاح هذه الحركة الإعلامية الكبيرة إنما يرجع لهؤلاء الثلاثة الكبار الذين علموا باجتماع الأوس والخزرج للتشاور في أمر الخلافة فلم يبطئوا ولم يتهاونوا في المبادرة إليهم والاشتراك معهم في هذا الاجتماع ولو قد أبطئوا في ذلك لضاعت عليهم الفرصة واندلعت نيران الفتنة ، ولا يعلم إلا الله ماذا كانت عواقبها .

أما خلافة أبي بكر — رضى الله عنه — فلم تدم أكثر من ثلاث سنوات كانت كلها بركة على الإسلام فقد اصطدم أبو بكر في أول خلافته بحادث بالغ الخطورة ؛ وهذا الحادث هو (حركة الردة) ونعني بها ارتداد الكثيرين من العرب عن الإسلام ، وبذلك تعرض هذا الدين لأكبر كارثة يمكن أن تمر بعد وفاة الرسول ، وإذا ذلك لم يجد أبو بكر بداً من محاربة المرتدين وإنقاذ الدين من هذه الكارثة التي كادت تودي به .

ونستعرض حياة الخليفة الأول في مدة توليه الأمور فنجد أنه قام فيها بأعمال أربعة هـ

١ — محاربة المرتدين .

٢ — بعثة أسامة بن زيد .

٣ — بعثه إلى العراق والشام .

٤ — محاولة جمع القرآن .

وسننظر في هذه الأعمال الأربعة المجيدة — كما وعدنا القراء — لا من الزاوية التاريخية ولكن من الزاوية الإعلامية .

حركة الردة

كانت هذه الحركة من الخطورة الخطيرة على الخليفة أبي بكر وعلى النظام القائم بحيث وجدنا عمر بن الخطاب يشفق منها على حياة أبي بكر ، نعم — وجدنا عمر — وهو رجل معروف بشدته وقوة شكيمته — ينصح أبا بكر — وهو رجل معروف برقته ورأفته ولين عريكته — ويقول له :

« الزم بيتك ومسجدك ، فإنه لا طاقة لك بقتال العرب »

ولكن أبا بكر خالف رأى عمر في ذلك ، ونظر إلى حركة الردة على أنها ثغرة في الدين ، وإخلال بالأمانة التي تركها الرسول ﷺ ، وفساد لأمر المسلمين ، وخطر عظيم على المجتمع الإسلامى كله ، وإذا كان رجل

كأبي بكر لا يغار على الدين ، ويضرب المثل الأعلى في الغيرة عليه وعلى المسلمين فمن ذا الذى يغار عليه بعده ؟

جاء المرتدون إلى أبي بكر يزعمون له أنهم مسلمون يقبأون العمل بأركان الدين ولكنهم يرفضون منها ركناً واحداً فقط ، هو الزكاة ، فلم يقبل منهم أبو بكر ذلك ، وقال لهم يومئذ كلمته المشهورة : « والله لو منعتموني عقلاً كنتم تؤذونه لرسول الله لقاتلتكم دونه » .

وأبو بكر الصديق بهذا العمل الجليل والموقف العظيم يعتبر البانى الثانى للدعوة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ . فقد ظهرت هذه الدعوة على يد أبى بكر ، وفى موقفه هذا ، وكأنها تبين من جديد بعد إذ عرضها المرتدون لكل هذا الخطر .

وتماذى المرتدون فى غرورهم ، وطفقوا يرددون بينهم قول قائلهم :

أطعنا رسول الله ما دام بيننا فبالعباد الله ما لأبى بكر ؟

ولكن أبا بكر لم يبال بهم ، ولم يتأثر بدعائهم وأقوالهم ، ونظر إلى حركتهم على أنها امتحان له ولقدرته على تسيير الأمور ، وامتحان الدعوة الإسلامية ذاتها ، ولقدرتهم على البقاء بين العرب المسلمين ، وكيف لا تكون الردة امتحاناً للإسلام بهذا المعنى ؟ وقد كشفت عن زيغ الزائغين ، وريب المرتابين . وبفضل أبى بكر وتغلبه على هذه الحركة الخبيثة عاد الإسلام قوياً كما كان فى عهد الرسول ﷺ .

وقف أبو بكر من هذه الحركة موقف العزم والشدة وذلك على خلاف طبيعته التى تميل — كما قلنا — إلى اللين والرفق والرحمة ، وكان فى ذلك مخالفاً لمشورة عمر الذى أشار عليه بالسكوت عن هذه الحركة ، وكان عمر يقول لصاحبه : يا خليفة رسول الله ، تألف الناس وارفق بهم ، كيف تقاتلهم ، وقد قال رسول الله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإن قالوها عصموا منى دماءهم ونفوسهم إلا بحقها » .

فكان أبو بكر يجيب على ذلك بقوله :

« والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

ثم صاح لصاحبه قائلاً :

« يا بن الخطاب ، رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ؟ أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام ؟ إنه انقطع الوحي ، وتم الدين .. أو ينقص وأنا حي ؟ »

ثم جاءت الحوادث كلها شاهدة على صدق أبي بكر فيما رآه ، وعزم عليه من محاربة أهل الردة ، وعرف ذلك عمرو وعلم أنه أخطأ في نصيحته لأبي بكر واعترف لصاحبه بهذا الخطأ وقبل رأسه وأدرك حكمته .

إن الخليفة الأول بهذا العمل الأمثل قد أعطى المسلمين كلهم ، والمرتدين منهم بنوع خاص - أعظم درس تعلموا منه أن الدين كل لا يتجزأ ، وأن العقيدة يجب أن تكون محترمة من أتباعها من جميع جوانبها ، وأن التهاون في جانب واحد من هذه الجوانب لابد أن يؤدي إلى التهاون فيها جميعاً ، وأن القوة ليست في يد الباطل كما يتمثل في فريق المرتدين عن الدين ، ولكنها في جانب الحق الذي يتمثل في فريق المسلمين المستمسكين بهذا الدين .

ذلك إذن هو الوجه الإعلامي لهذه الحادثة الأولى من الحوادث التي وقعت في خلافة أبي بكر ، وقد سلك أبو بكر فيها مسلكاً يدل على القاعدة التي بنى عليها الإعلام الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ، وهذه القاعدة هي : « بذل الطاعة للرسول بكل دقة وإخلاص وأمانة » .

وهل كان الرسول يقبل من بعض العرب المسلمين أن يكتفوا بالركن الأول من أركان الإسلام ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ هل كان الرسول يكتفي بهذا الركن الأول من أركان الإسلام عن أحد الأركان الأخرى كالصلاة - أو الزكاة أو الصيام أو الحج .. كلا ثم كلا ،

حسبنا ذلك حديثاً عن العمل الأول من الأعمال التي قام بها الخليفة الأول

وهو مقاومة حركة الردة - لننتقل منه إلى العمل الثانى من أعماله رضى الله تعالى عنه وهو : بعثة أسامة بن زيد .

بعثة أسامة بن زيد

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته قد أعد جيشاً بقيادة أسامة ابن زيد وأمره أن يستعد للخروج من المدينة والوصول إلى تخوم الروم وذلك لتخويفهم من الإغارة على حدود المسلمين ، ولم يكن للنبي قصد وراء ذلك .

فلما ولى أبو بكر أمر الخلافة عزم على الإبقاء هذا الجيش ، وعلى تنفيذ المهمة التى مات عنها الرسول ، ولم يهتز إذ ذاك بالاضطرابات التى أعقبت هذا الحادث العظيم وهو وفاة الرسول ، ولم يأخذه الشغب الذى عم الجزيرة العربية بعد هذا الحادث ، وثبت أبو بكر على موقفه من هذا الجيش كما ثبت على موقفه من حركة الردة ، وخوفه المسلمون عواقب هذا الثبات على موقفه ، وأنذروه بالخطر على المدينة وعلى الجيش نفسه فى تلك الظروف ولكن أبا بكر قال لهم جميعاً :

« والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ، ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة » :

وجهاز أبو بكر هذه البعثة العسكرية ، وخرج ماشياً على قدمه معها وأسامة راكب إلى جانبه ، وخاطبه المسلمون فى ذلك فقال :

« ما على أن أخبر قدمى ساعة فى سبيل الله » .

وقال لأسامة : « اصنع ما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تقصر فى شيء من أمره » .

وشاع فى الجزيرة العربية أمر تلك البعثة العسكرية ، وكانت لا تمر بقبيل من الناس يفكرون فى الارتداد عن الإسلام إلا استشعروا الخوف

والهبة وآثروا السكوت والهدوء وقال بعضهم لبعض ، لولم يكن المسلمون على قوة حتمية لما خرج من عندهم هؤلاء ؟؟ .

وعاد جيش أسامة من تخوم الروم بأسلاب وغنائم كثيرة : ولم ينقض عليه وعلى بعثته أكثر من شهرين ، ولم يقتل من جيش المسلمين أحد ، وإن جيشاً يذهب إلى تخوم الروم ثم يعود غير مسحوق من الأعداء كيف تهزأ به قبائل العرب الهائمة في الصحراء ؟ وكيف تخفى دلائل ذلك على حملة الأخبار والقادرين منهم على استنباط مواطن القوة والضعف في كل من المسلمين والمرتدين على السواء .

يخيل إلى الباحث أن الغرض الأساسي لهذه البعثة منذ أن فكر فيها الرسول ومنذ أن صمم عليها أبو بكر كان هو الحرب النفسية قبل كل شيء ، فلقد أراد الرسول كما أراد خليفته أبو بكر أن يبقى الرعب في نفوس الموالين للروم ، وفي نفوس القبائل العربية التي لم تزل ترى لها من القوة والمنعة والعزة ما يجعلها تتربص الدوائر بهذا الدين الجديد ، وتعلو بنفسها عن الخضوع لأحكامه .

أجل - كانت بعثة أسامة بعثة تأديبية قصد بها ردغ القبائل التي مر بها في الطريق من الحجاز إلى الشام ، كما قصد بها تأمين هذا الطريق وتوطيد هيبة الإسلام ، وكان هذا كاه من أبي بكر إعلاماً للقبائل العربية أن هناك حكومة قوية أخذت للأمر عدته وفي استطاعتها أن تؤدب المرتدين ، وأن تقف العيث بالدين ، وأن تقضي على هذا الخطر الجسيم .

والآن لننتقل إلى العمل الثالث من الأعمال المحيطة التي قام بها الخليفة الأول وهذا العمل هو :

البعوث إلى العراق والشام

كما تنبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أنه مسئول عن أمرين في وقت واحد هما :

١ — تأمين الإسلام في الداخل .

٢ — تأمين الاسلام في الخارج .

فكذلك تنبه خليفته الأول لهذين الأمرين معاً : وتم له الأمر الأول عن طريق حروب الردة ونجاحه في تأديب المارقين حتى رجعوا إلى حظيرة الدين .

وتم له الأمر الثاني عن طريق البعوث التي بعث بها إلى العراق والشام ، ليس ذلك بقصد التوسع في الفتح ، أو الجاه والسلطة ، ولكن لهدف واحد فقط هو الهدف الذي كان يقصد إليه رسول الله ﷺ وهو نشر هذا الدين وتثبيت قواعد المسلمين .

وبذلك التزم أبو بكر سياسة رسول الله ﷺ الخارجية وسياسته الداخلية وسياسته الاعلامية وهي السياسة التي سار عليها رسول الله في بعثة (تبوك) ثم في بعثة (أسامة بن زيد) فقد بعث النبي ﷺ بهاتين البعثتين ، وأعد بنفسه هذين الجيشين — لا للتعدي على بلاد الغير ، ولكن لدفع الأذى ، وحماية الطريق : ولنشر الدين .

ففي غزوة تبوك على عهد رسول الله ﷺ عاد الجيش الإسلامي بعد أن انصرف جيش الروم عن الحدود ولم يعد إليه في تلك السنة ، وقد كانت دولة الروم ترسل البعوث من حين إلى حين إلى تخوم الجزيرة العربية ، وكان على المسلمين أن يقابلوا هذا العمل بمثله دائماً ولولا ذلك لعاشت القبائل العربية التي دخلت الاسلام في فزع دائم وخوف لا ينقطع .

وعلى ذلك فقد كانت للبعوث الحربية في عهد رسول الله ﷺ ثم في عهد الخلفاء الراشدين أهداف إعلامية لا بد منها ، وتنحصر هذه الأهداف في تخويف دولة الروم وتخويف القبائل الموالية من جهة ؛ ثم المسلمين الذين يجب أن يعلموا أن للإسلام قوة تستطيع أن تضرب قوة الدولة الرومانية .

وعلى هذا النحو سار أبو بكر مع التخوم الفارسية ، ولنفس هذه

الغاية فرض على نفسه غزو فارس ، فقد كانت القبائل الموالية لفارس توالى غاراتها على أراضي المسلمين ، وكان على المسلمين أن يدفعوا هذه الغارات بمنتهى القوة ، وكان القائد الاسلامى لهذه الأعمال الحربية الأخيرة هو (المشنى بن حارثة الشيبانى) ، ثم ما لبثت هذه الغارات والرد عليها أن انقلبت إلى حرب ضروس دارت بين العرب والفارس ، وكان القائد الاسلامى فى هذه الحرب هو (خالد بن الوليد) الذى بعث به أبو بكر لنجدة المشنى بن حارثة . وأمره إذ ذاك أن يتألف أهل فارس ويتودد إلى الإمارة العربية الموالية لها — وهى إمارة الحيرة ، وفعل خالد بن الوليد كل ذلك .

ويكل هذه البعوث التى ملأت خلافة أبي بكر علمت العرب أن الاسلام لا يموت بموت صاحب الرسالة والقائم بالدعوة ، ونغنى به محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأن هذا الدين متين يقوم على مبادئ قوية أولها مبدأ التوحيد. وأن هذا الدين فوق متانته قد تربى عليه رجال قادرين على صيانته من كل سوء ما داموا يسيرون على هذه القاعدة ، وهى الطاعة لله ورسوله .

معنى ذلك كله أن لهذه المعلومات السابقة وجهين متكاملين :
الوجه التاريخى والوجه الإعلامى — ونحن حين نتعرض لبعض الشئ للوجه الأول لا نريد بذلك إلا للتعرض للوجه الآخر .

* * *

وننتقل إلى العمل الرابع والأخير من أعمال أبي بكر ، وهو :

جمع القرآن الكريم

والقرآن الكريم هو دستور المسلمين ، وبه يتقيد الخليفة المسلم ، وعليه تسير الأمة الإسلامية فى كل عصر من عصورها ، ومن ثم كان العمل على جمع القرآن الكريم من أعظم الأعمال الإعلامية التى يقوم بها الخليفة الأول أبو بكر وما فى ذلك شك .

ثم إن القرآن فى ذاته — كما سبق أن أوضحنا ذلك فى الباب الأول

(م ١٤ — الإعلام فى صدر الإسلام)

من أبواب هذا الكتاب - هو أقوى وسائل الإعلام في الإسلام وهو أضخم هذه الوسائل وأضمنها وأثبتها وأصدقها ، وبعده أو بعدها تأتي الوسائل الإعلامية الأخرى ، ابتداء من الحديث الشريف أو السنة النبوية إلى الغزوات والبعوث الإسلامية التي بدأها النبي ﷺ واستمر فيها الخلفاء الراشدون من بعده .

ومن هنا كانت حركة جمع القرآن الكريم حركة إعلامية قوية التأثير في حياة المسلمين ، وكان لابد لها أن تتم على يد الخليفة الأول . وكان على هذا الخليفة أن يضرب المثل الأعلى والقدوة الحسنة في هذا المشروع العظيم بحيث لو أهمله - رضى الله عنه - لكان القرآن نفسه عرضة للضياع والتحريف .

وقد مات من مات من حفظ القرآن الكريم ، وذلك في حرب الردة ، فأشار عمر بن الخطاب على أبي بكر أن يجمع القرآن الكريم ، فأنشراح صدر أبي بكر لهذه الفكرة الطيبة ولم تنزه خلافته القصيرة المدى إلا والقرآن الكريم مجموع من الصدور ومكتوب على نحو سليم ، لم يضع منه حرف ، ولم تسقط منه سورة ، ولم ينله شيء من التحريف أو التغيير أو التبديل ، وصدق الله تعالى إذ يقول :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

(والخلاصة) أنه إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صاحب (الدعوة) الأولى ، وقد سلك من الطرق الإعلامية ما يتفق وهذه الصفة ، فإن أبا بكر هو صاحب (الدعوة) الثانية - إن صح هذا التعبير - وقد سلك في خلافته القصيرة المدى من الطرق الإعلامية ما يتفق وهذه الصفة .

وجدير بالتنويه أن نلاحظ أن أبا بكر كانت له حاسة إعلامية دقيقة لا سبيل إلى إنكارها .

وبهذه الحاسة حضر في الوقت المناسب (يوم السقيفة) واشترك مع زعماء المهاجرين والأنصار في هذه المعركة .

وبهذه الحاسة أدرك خطورة الموقف الذى خلفته حركة الردة ،
وانفرد بالرأى الذى لم يوافق فيه أحد ، وهو تصميمه على مكافحة
هذه الحركة .

ثم بهذه الحاسة وضع لنفسه قاعدة سياسية وإعلامية لم يجد عنها ،
وهى السياسة التى قامت على إطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم
واحتمدائه فى كل حركاته وسكناته ، والقيام بجميع الأعمال التى تضمن
صيانة العقيدة الجديدة ، لا يحيد عنها كذلك .

ولو أن أبا بكر تخلف عن هذه المعركة الانتخابية يوم السقيفة ،
ولو أنه ظهر للناس يومذاك بأنه من طلاب الملك أو الجاه أو الدنيا ،
ولو أنه استمع إلى مشورة أصحابه فى الإغضاء عن حركة الردة ،
ولو أنه قصر فى البعوث العسكرية ، ولو أنه أهمل جمع القرآن
الكريم لأصبحت خلافته فارغة من الأعمال التى يعضد بها الإسلام ،
والإسلام وحده .

فلهذه الحاسة الإعلامية وللعقيدة الإسلامية التى تميز بها أبو بكر
الصديق رضى الله تعالى عنه عن المسلمين كافة يرجع الفضل فى بقاء الدين
وحفظ تراث رسول الله ﷺ .

الفصل الثاني الإعلام في عهد الخليفة الثاني الفاروق عمر بن الخطاب

إذا كان التاريخ قد نظر إلى أبي بكر على أنه الباني للدعوة الإعلامية بعد رسول الله ﷺ وهو بانيها الأول ، فإن التاريخ قد نظر إلى عمر بن الخطاب على أنه المؤسس الأول للدولة الإسلامية ، لأن الإسلام قبله لم تنشأ له دولة بالمعنى الصحيح « لهذه الكلمة » وقد استحق عمر بن الخطاب هذه الصفة لاعتبارات منها :

أولاً : أنه أول من دون الدواوين ، ومن ذلك أنه أنشأ ديوان القضاء ، وديوان الإحصاء ، وديوان الخراج ، وديوان البريد ، وديوان بيت المال ، وديوان الثغور .

ولم يكتف عمر بذلك حتى رأيناه ينشئ داراً لسك النقود ، وداراً للحبس يعاقب فيها المذنبين ، وداراً تسمى « بيت الدقيق » ، وهو ما يقابل عندنا في الوقت الحاضر « الأوقاف الخيرية » وعمله إغاثة الجياع الذين لا يجدون طعاماً لهم « ومن الأوقاف الخيرية » التي تتبع هذا البيت أرض بنخبر اختارها عمر في عهد الرسول ﷺ ، وقد أشار عليه يومئذ بحبسها وحفظها من أن تباع أو توهب أو تورث ، ولكن تصبح موقوفة على مصالح الفقراء من المسلمين .

ومن أجل ذلك نظر التاريخ إلى عمر بن الخطاب على أنه أول مؤسس للدولة الإسلامية — كما قلنا — وذلك فضلاً عن كونه المؤسس الثالث للدعوة الإسلامية بعد النبي ﷺ وبعد أبي بكر الصديق الخليفة الأول .

ثم من أجل ذلك قال رسول الله ﷺ كلمته المشهورة في عمر بن

الخطاب : لم أر عبقرياً يفري فريه (١) ، والكلمة جزء من رؤيا رآها رسول الله ﷺ نفسه .

قال عليه الصلاة والسلام :

رأيت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب (أى بئر) . فجاء أبوبكر فنزع ذنوباً (بفتح الذال أى دلوا) . وذنوبين نزعاً ضعيفاً ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً (٢) — ولم أر عبقرياً يفري فريه ، (أى ينزع قبله) حتى روى الناس وضربوا بعطن (٣) .

الحق — لقد كانت هذه الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ خير معبر عن الجهود التي بذلها الشيخان من بعده ، فأما أولهما — وهو أبو بكر — فقد كانت خلافته قصيرة العمر لم تدم أكثر من ثلاث سنوات أنفقها كلها في محاربة أهل الردة ، والدفاع عن الحدود الإسلامية . وأما الثاني — فإنه قام ببناء الدولة الإسلامية . وكان ذلك بتدوين الدواوين من جهة ، وبالفتوح الكثيرة من جهة ثانية .

ولم يكن الباعث على هذه الفتوح العمرية رغبة في السلطان والصوبحان ، أو شهوة إلى التوسع والغلبة ، وإنما كان الباعث إليها هو نفس الدافع الذي دفع رسول الله ﷺ والخليفة الأول ، ونعني به تأمين حدود الإسلام من عدويه الكبارين : الروم من جهة ، والفرس من جهة ثانية .

وبوازع من هذه البواعث ، وبتقدير من عمر بن الخطاب لهذه المسئولية أقدم على فتح مصر ، وفتح بلاد المقدس ، وفتح فارس — وجاء هذا الفتح الأخير على كره منه ، لالشيء إلا أنه يكره الحرب لأنها حرب ، ويبغض الدم لأنه دم ، وفي ذلك يقول عمر : « إن رجلاً واحداً من

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية عمر .

(٢) الغرب (بسكون الراء) : المليء — ومن معانيه كثرة المال وحسن المال ، وجريان الفرس بسرعة (القاموس المحيط) .

(٣) العطن (لفتح العين والطاء) مربوط الإبل حول الماء .

المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار » ومعنى ذلك أنه يضمن برجل واحد من المسلمين أن يموت في الحرب .
ومن أقواله كذلك :

«وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار فلا يصلون إلينا ولا نصل إليهم » وليست هناك ألفاظ يعبر بها قائد من القواد عن كراهيته لسفك الدماء أقوى وأبين من هذه الألفاظ التي نطق بها عمر .

عمر والسياسة الإعلامية

سبق أن أكدنا هذا المعنى وقلنا إننا حين نسأل عن نظام الحكم في أمة من الأمم فقد سألنا في الوقت نفسه عن نظام الإعلام في هذه الأمة، ذلك أن نظام الإعلام في جميع الظروف والأحوال مرتبط أشد الارتباط بنظام الحكم وظروف الحاكم ، وإذا كان نظام الحكومة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين قائماً على العقيدة التي تأمر بطاعة الله ورسوله فإن نظام الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين ينبغي أن يبنى كذلك على نفس العقيدة .

من أجل ذلك لم يكن غريباً أن يبدأ عمر بن الخطاب خلافته بكلمة يعلن فيها عن منهجه في الحكم يقول فيها :

أيها الناس : أطيعوني ما أطعت فيكم الله ورسوله . فإن عصيتهما فلا طاعة لي عليكم » .

وعلى هذا الأساس يصح أن ننظر في أعمال عمر بن الخطاب فنرى أن سياسته الإعلامية تظهر بوضوح فيما يلي :

أولا - في الفتوح :

وقد فرغنا من الكلام عن هذه الناحية وقلنا إن عمر بن الخطاب كان فيها مقيداً بسياسة النبي ﷺ وأبي بكر الصديق، ولم يكن ينظر وراء ذلك .

ثانياً - سياسة عمر مع كبار الصحابة :

وهم كبار رجال الدين والعقيدة ، وهم أفهم الناس لجوهر الإسلام ولأهدافه القريبة والبعيدة ، وكلمة واحدة يقولها أحدهم تحدث أثراً قوياً في نفوس المسلمين الخاصة منهم والعامة ، وعمل طيب يصدر من أحدهم يصبح مثلاً أعلى يحتذى به ، وقدوة حسنة للمسلمين جميعاً .

من أجل ذلك وضع عمر لنفسه سياسة خطة حكيمية في معاملة كبار الصحابة ، وتتلخص هذه الخطة في الاحتفاظ بهم جميعاً إلى جانبه في المدينة وجعل عمر من كبار الصحابة شيئاً يشبه « مجلس الشورى » يرجع إليهم في كل أمر من أموره ، ويستمع إلى آرائهم في كل مشكلة من مشكلاته ، ويعرض عليهم كل تصرف من تصرفاته ، فإذا كان هذا التصرف موافقاً للدين والرسول والعقيدة مضى فيه ، وإلا عدل عنه عدولاً تاماً .

وكان من خطة عمر ألا يأذن لأحد من هؤلاء الصحابة بترك المدينة والسفر إلى الأمصار والأقاليم والإقامة فيها ، وكان عمر بن الخطاب يفعل ذلك خوفاً عليهم من شرور هذه الأمصار ، وفتنة الجاه والمال ، وهي فتنة لا بد أن يتعرضوا لها بحكم المناصب الكبيرة التي يلونها ، والخضوع الذي يظهره الناس لهم من الناحيتين الدينية والسياسية ، والصحابة بشر ، وقد تحدثهم نفوسهم البشرية بأمور تفسد عليهم دينهم ، وتقلل عندهم من سلطان العقيدة ، وتحدث خللاً في سياسة عمر .

والحق - لقد كان عمر رشيداً في هذه السياسة التي رسمها لكبار الصحابة ، وسيأتي الحديث عن الخليفة الثالث - عثمان بن عفان رضي الله عنه - وسنجد أنه خرج على هذه السياسة ، وأنه سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأمصار .

فجنى من وراء ذلك ضررين كبيرين :

أولهما - حرمانه من مشورة الصحابة .

وثانيهما - حدوث الفتنة الكبرى على النحو الذى سنشرحه فيما بعد .

قال عمر لابن عباس وهو رجل من كبار الصحابة :

إني رأيت رسول الله ﷺ يستعمل الناس وتركمم والله ما أدرى
أصرفكم عن العمل ؟ أو رفعكم عنه ؟ وأنتم أهل ذلك ، أم نخشى رسول
الله أن تعاونوا لمكانكم منه ، فليرجع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب .
ومما قاله عمر أيضاً :

« إن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما فى أنفسهم ، إلا
أن فى قريش من يضمم الفرقة ويروم خلع الربة ، أما وابن الخطاب حى
فلا ، إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشارهم فى البلاد » .

لا ريب أن هذه السياسة التى اختطها عمر لنفسه تجاه كبار الصحابة
لأكبر دليل على « الحاسة الإعلامية » الدقيقة التى انفرد بها هذا الخليفة وهى
الحاسة التى قلنا إن الخليفة الثالث عثمان بن عفان كان يفتقدها فى نفسه ،
ولو وجدت عنده لتغير وجه التاريخ الإسلامى فى زمنه ، ولما حدثت الفتنة
الكبرى - كما سنشرح ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى .

ثانياً - العسس :

لم يكن التاريخ البشرى يعرف رجلاً بلغ فى الشعور بمسئولية الحاكم
بعض ما بلغه عمر بن الخطاب من الشعور بهذه المسئولية ، كان قلبه مشغولاً
على الدوام بأمور الرعية ، وبلغ من حرصه على ذلك أن قال كلمته المشهورة :
« لو عثرت بغلة فى العراق لرأيتنى مسئولاً عنها » كما بلغ من حرصه على
رعيتيه أن ابتدع نظام « العسس » ، وهو السير بالليل للوقوف على أحوال
الرعية .

ويحكى لنا التاريخ أنه كان يتجول فى ليلة من الليالى فى أنحاء المدينة
فسمع من وراء الجدران صوت امرأة تبكى ، فدخل دارها فوجدتها أمام
قدر من الماء فيه حصى تعلل به أولادها حتى يغلبهم النوم ، ورأى عمر
بنفسه هذا المنظر المؤلم وصاح فى نفسه قائلاً : ليت أم عمر لم تلد عمر ،

وليت عمر لم يلك من البشر ، ثم عاد مسرعاً إلى بيته وأمر زوجته أن تحمل قدرأ من السمن ، وحمل هو على كتفه قدرأ من الدقيق ، وصنع بنفسه طعاماً لهؤلاء الأطفال الجياع ، وأيقظهم وأكلوا وناموا .

وحكى لنا التاريخ كذلك عن عمر أنه سار في لياة ما حتى وصل إلى بيت كانت فيه امرأة تغنى بصوت مرتفع تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أو من سبيل إلى عمرو بن سيار

وفي اليوم التالي سأل عن عمرو بن سيار هذا فوجده شاباً له شعر طويل ، وله بهذا الشعر الجميل عناية تامة ، ومن ثم أصبح فتنة للنساء المدينة ، فأمر بأن يقص شعره .

ويطول بنا القول إن أردنا أن نتتبع أخبار عمر من هذه الناحية .

معنى ذلك أن عمر كان يحصل على أخبار الرعية بنفسه ، وكان يقف على أحوالها بنفسه . ويقوم بإصلاح الخلل في الأحوال ، كما يعهد إلى تقويم المعوج في الأخلاق ، وكان يرى أنه المسئول الأول عن كل ذلك .

والحديث عن تقدير عمر للتبعة الملقاة على عاتقه يجرنا إلى الحديث عن بعض نوادره في الحرب فقد قيل أنه كان يملك في نفسه قدرة عجيبة على المكاشفة Telebaehy .

كان عمر يخطب بالمدينة خطبة الجمعة ، فرآه الناس وهو يقطع كلامه على حين غرة وينادى بأعلى صوته قائلاً : ياسارية بن حصن .. الجبل ، الجبل . فلم يفهم الحاضرون ماذا أراد بهذه الكلمات التي قطع بها الخطبة . ثم عاد عمر يتم خطبته ، وصلى بالناس الجمعة . وبعد أن فرغ من الصلاة سأله على بن أبي طالب : ما هذا الذي ناديت به . فقال عمر : أو سمعته مني ؟ قال : نعم أنا وكل من في المسجد . فقال عمر ، وقع في نفسي أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل ، فإن عسدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا بعمودهم ، وإن جاوزوه هلكوا . فخرج مني هذا الكلام .

وجاء البشير بعد شهر من خطبة عمر فذكر أنهم سمعوا في ذلك اليوم وفي تلك الساعة حتى جاوزوا الجبل صوتاً يشبه صوت عمر وهو يقول ، « يا سارية بن حصن ، الجبل . . الجبل » فعدلنا إلى هذا ، ففتح الله علينا . في تصوري كذلك أن القارئ الحديث يعجب كل العجب كيف كانت المكاشفة وسيلة من وسائل الإعلام قد مارسها عمر رضى الله عنه .

ثالثاً - الرسائل :

كانت الرسالة من أقوى وسائل الإعلام في عهد عمر بن الخطاب ، وقد حفظ لنا التاريخ طائفة صالحة من الرسائل التي بعث بها عمر إلى قواده في الحرب تارة ، وإلى عماله في الأقاليم تارة أخرى ، وإلى القضاة الذين كان يبعث بهم إلى الأمصار تارة ثالثة .

وكان عمر لا يدع لقائد من قواده أن يتحرك من مكان إلى مكان إلا برأيه ، ولا أن يستبدل خطة بخطة إلا بمشورته ، ولم يكن إلا في أحيان قليلة ، بلى نادرة يترك لهم حرية الحركة ،

من ذلك أن أبا عبيدة بن الجراح استشاره في دخول الدروب خلف العدو فكتب إليه عمر يقول :

« أنت الشاهد وأنا الغائب ، والشاهد يرى مالا يرى الغائب ، وأنت محضرة عدو وعيونك يأتونك بالأخبار ، فإذا رأيت الدخول إلى الدروب صواباً ، فابعث إليهم السرايا وادخل عليهم بلادهم ، وضيق عليهم مسالكهم وإن طلبوا إليك الصالح فصالحهم » .

وترك قائده أبو عبيدة حصار حلب ، فكتب إليه عمر يستضعف رأيه ويقول له :

سرتي ما علمت من الفتح ، وعلمت من قتل من الشهداء ، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحي التي قربت من أنطاكية فهذا بثس الرأي . أترك رجلاً ملكك دياره ومدينته ثم ترحل وتسمع أهل النواحي والبلاد إنك ما قدرت عليه فما هذا برأى ، فأياك أن تبرح حتى

يحكم الله وهو خير الحاكمين ، وقد أنفذت كتابي هذا ومعه أهل مشارف
اليمين فمن وهب نفسه لله ورسوله ورغب في الجهاد في سبيل الله فليفعل ، وهم
عرب وموال ورجال وفرسان والممدد يأتيك متوالياً إن شاء الله تعالى »

هذان نموذجان من رسائل عمر إلى القواد يظهر منهما أن عمر كان
لا يغفل يده أو رجله عن الحركة ولكن كان معه خطوة خطوة . . وكان
في الوقت نفسه يأمره بالزحف إن رأى الخير في ذلك ، ويأمره بالصالح
إن كان طلب الصالح صادراً من العدو .

نموذج من رسائله إلى القضاة :

عمر هو الذي وضع دستور القضاة في الإسلام ، وتلك حقيقة من
الحقائق التي لا جدال فيها ، والدستور الذي وضعه كان ولا يزال وثيقة
إعلامية إلى جانب أنه وثيقة قضائية .

كتب عمر إلى بعض القضاة فقال :

إذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلفتك عنه الرجال . فإن
جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم ترد فيه سنة رسول الله فانظر ما اجتمع
عليه الناس ، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم تكن فيه سنة رسول الله ،
ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الأمرين شئت ؟ إن شئت أن تجتهد في
رأيك وتتقدم فتقدم وإن شئت أن تتأخر فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيراً
لك » .

وهذه الرسالة الصغيرة - هي التي وضعت دستور القضاء في الإسلام ،
وبها علم القضاة أنهم إما أن يحكموا بشيء وجدوه في القرآن الكريم ، وإما
أن يحكموا بشيء ورد في سنة رسول الله ﷺ ، وإما أن يحكموا بما عليه
الجماعة وإما أن يحكموا بطريقة الاجتهاد في الرأي . وتلك هي المصادر
الأربعة للتشريع الإسلامي منذ أيام عمر بن الخطاب إلى اليوم .

وقد أشار عمر في رسالته إلى أن طريقة الاجتهاد أشق على القضاة من
الطرق الثلاثة الأولى ، وهي القرآن والسنة والإجماع ، وهذا معنى قوله :

وإن شئت أن تجتهد في رأيك وتتقدم فتقدم ، وإن شئت أن تتأخر فتأخر
ولا أرى التأخر إلا خيراً لك .

ومن ثم شعر القضاة في الإسلام أن القضاء أمانة ثقيلة ، وكانوا
لذلك يفضلون وظائف التدريس على وظائف القضاء .

وهكذا وضعت هذه الرسالة على القاعدة الإعلامية التي يبنى عليها
الحكم الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ، وهي العقيدة التي أوجبت على
هذا الحكم أن يبنى على طاعة الله ورسوله ، فإن لم يوجد في الكتاب
والسنة شيء لحل القضايا المعروضة فليجأ القاضي إلى رأى الجماعة ،
فإن ضاقت به جميع هذه المصادر الثلاثة - وقلمما تضيق - فله أن
يجتهد برأيه .

ولولا أن عمر ممتلئ بهذه العقيدة ، ولولا أنه يملك الحاسة الإعلامية
الدقيقة ، لما استطاع أن يضع دستوراً للقضاء يمثل هذا اليسر والوضوح
والسهولة .

رابعاً - زيارات عمر الأمصار والأقاليم :

كان من دأب عمر أن يزور الأمصار من آن لآن ، وقصده من هذه
الزيارات أن يتفقد أحوال المسلمين في هذه الأقاليم ، وأن يلتقى فيها
بالعمال أو الأمراء الذين يحكمون باسمه هذه الأقاليم ، وكان كل أمير
من أولئك الأمراء يتوقع في كل لحظة من اللحظات زيارة الخليفة له
ليحاسبه على عمله ويجمع إليه الناس ليبدوا رأيهم في الأمير نفسه ،
ويعرضوا مظالمهم على الخليفة إذا كان عامله قد تراخى في النظر فيها
لأمر أو لآخر .

وكان عمر لا يكتفى بزيارة الأقاليم من وقت لآخر ولكنه كان يدعو
أمراء هذه الأقاليم للحضور إليه بين فترة وأخرى ، وذلك ليتأكد من حسن
سيرتهم مع الرعية ، ويطمئن إلى سير العدالة في تلك الجهات .
والحق - لقد ضرب عمر في هذا المجال أروع المثل ، وكان فيه أسوة

حسنة للحاكم المسلم الذى أخذ نفسه بالعقيدة السليمة التى تقوم على تقوى الله وحده ، ولا يتسع مثل هذا البحث لإيراد الشواهد على ذلك ، وإن البحث ليفترض أن هذه الشواهد شائعة بين الناس جميعا ، يتحدث بها التاريخ منذ خلافة عمر بن الخطاب إلى اليوم .

ولذلك سننص فيما بعد على أن القدوة الحسنة أكبر وسائل الإعلام فى عهد هذا الخليفة الفاروق الذى هو رمز العدل فى الإسلام ، وهو فى هذه الصفة مقدم على غيره .

والذى لا شك فيه أن عمر بهذه السياسة القضائية كان يخدم الناس فى مجال الإعلام خدمة لا تقل عن خدماته لهم فى مجال القضاء .

فأى طريقة أقوى من طريقة الزيارات والاتصال بالناس فى المدينة وخارج المدينة والتعرف إلى آرائهم فى الحكم ، والوقوف على احتياجاتهم والمظالم التى ترفع إلى هؤلاء الحكم ، وذلك فى إثبات أن الخليفة يشعر بتبعته نحو الرعية على هذا الوجه ، وأنه مسئول أمام الله سبحانه وتعالى عن كل ما يحتاج إليه الرعية .

إن الزيارات مازالت إلى العصر الذى نعيش من أكبر دعائم الاعلام ومازلنا فى العصر الحديث ننظر إلى زيارة الملوك والرؤساء للأقاليم ، أو زيارتهم للبلاد الأجنبية على أنها من أنجح الوسائل الاعلامية . ولكن زيارات عمر بن الخطاب كانت أوسع أهدافاً ، وأنبى أغراضاً ، وأبعد عن الرياء والتظاهر ، وأدنى إلى تقوى الله من جميع الزيارات التى نشهدها الآن .

حكى لنا التاريخ أن عمر بن الخطاب قدم إلى الشام راكباً على حمار ، فلتقاه معاوية بن أبى سفيان فى موكب عظيم ، فلما رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة ، فمضى عمر إلى سبيله ولم يرد عليه السلام ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ، فالتفت عمر إلى معاوية وسأله :

أثنتك لصاحب الموكب الذى أرى ؟

قال : نعم . قال عمر : مع شدة احتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ! قال : نعم . قال عمر : ولم ويحك ! قال معاوية : لأننا ببلاد كثير فيها جواسيس العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف العدو بنا وهجم علينا ، وأما الحجاز فإننا نخاف من البدلة وجرأة الرعية ، وأنا بعد عاملك ، فإن استنقصتني نقصت ، وإن استزدتني زدت ، وإن استوقفتني وقفت .

قال عمر : ما سألتك عن شيء إلا خرجت عنه ، إن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب ، لا آمرك ولا أنهاك .
هكذا كان عمر يلم بعماله من حين لآخر لكي يقف على أعمالهم وتصرفاتهم ، ولم يكتف عمر بذلك في سبيل الحصول على المعلومات الصحيحة عن أولئك الأمراء ، بل كان يرصد لهم العيون والرقباء يختلطون بالرعية ويأتونه بما ظهر وما خفى من أعمال أولئك الأمراء ، حتى كان والى من كبار الولاة يخشى من أقرب الناس إليه أن يرجع بكل أخباره إلى الخليفة . كما كان عمر يندب لكل عامل من العمال أو أمير من الأمراء وكلاء خاصا يجمع شكاوى الناس ومظالمهم ، ويتولى عمر التحقيق في هذه المظالم ومراجعتها بنفسه .

نرى — هل عمر يفعل ذلك خوفا على سلطانه ، أو صيانة لملكه ، أو حفاظة على منصبه الذى وضعه الله فيه — وهو منصب الخلافة ؟ كلا ثم كلا ؟ بل كان عمر يفعل ذلك بوازع من ضميره ، وبدافع من تقواه ، وبشعور عميق بالمسئولية التى وضعها الناس على كتفه .

ومن أجل ذلك اتخذ لنفسه كل هذه الذرائع الاعلامية ، وأحسن استخدام هذه الذرائع . وكانت الرعية على ثقة من حسن طويته ونبل غرضه في استخدام كل هذه الذرائع .

والدليل على ذلك أن عمر كان يحصى أموال الولاة ، ثم يستصنى مازاد

منها . وذلك كلما فشلت فاشية من مال أو إبل أو خيل أو غير ذلك من النعم وكان عمر يسألهم دائماً ! من أين لك هذا ؟ وكان عليهم أن يخبروه بمصادرها وإلا حرمهم منها .

فعل ذلك مع عمرو بن العاص حين كان والياً على مصر ، وضاق عمرو ابن العاص بهذه المحاسبة وكان يقول :

« إن زمانا يحكمنا فيه ابن حنتمة (يريد عمر) لزمان سوء »

الحق — لقد كان عمر نموذجاً فريداً في الحكم لا نعرف له نظيراً في التاريخ الإسلامي كله . وكانت له حاسة لم تكن لحاكم غيره .

خامساً — القدوة الحسنة :

لقد أكثرنا إلى الآن من إيراد الأمثلة على عدل عمر ورحمة عمر واتساع عقل عمر ، وشجاعة عمر ، ولم نترك أو لم نكد نترك صفة من الصفات الحسنة في الإسلام حتى وصفناه بها ، وجعلنا منه مثلاً أعلى في هذه الصفات .

ولم نكن مبالغين في كل ما أوردناه من هذه الخصال ، وكتب التاريخ مملوءة بالأمثلة الطيبة على هذا الذي قلناه ، والبحث الذي بين أيدينا لا يتسع لجزء ولو ضئيلاً لهذه الأمثلة .

أفليس معنى ذلك أن عمر بن الخطاب كان قدوة حسنة في قومه؟ بلى . وقد سبق لنا القول في أن القدوة الحسنة في ذاتها تعتبر من أقوى وسائل الإعلام ، وعلى القدوة الحسنة بنيت حياة عمر منذ دخل الإسلام إلى أن فرغ من الحياة الدنيا .

وإني إذ أحيي القارىء للكتب التاريخية التي امتلأت بحكايات عن عمر بن الخطاب أجدني مضطراً إلى الإشارة إلى واحدة منها . للقارى أن يضيفها إلى ما سبق من حكايات وأخبار .

جاء رجل من مصر إلى عمر بن الخطاب وشكا إليه أمراً حدث من الوالى

عمرو بن العاص ، وخلاصته أن الوالى أجرى خيلاً كعادته ، فأقبلت فرس
المصرى ، فحبسها محمد بن عمرو بن العاص وصاح : فرسى وزب الكعبة .
ثم اقترب منه صاحبها وعرفه أنها فرسه هو . فغضب محمد بن عمرو بن العاص
ووثب على المصرى فضربه بالسوط وهو يقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين .
وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوه المصرى إلى عمر . فحبسه زمناً . وما زال
محبوساً حتى هرب من الحبس ووصل إلى المدينة وقدم على الخليفة ، وأبلغه
شكواه . فما كان من عمر إلا أن استقدم إليه عمرو بن العاص ومعه ولده .
فوقفا فى مجلس القضاء . فنادى عمر : أين المصرى ؟ فأتى المصرى فقال له
عمر : دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين . فضربه المصرى حتى
أثخنه . ثم قال عمر للمصرى : أجلها - أى مر بهذه الدرة - على صنعة عمرو
ابن العاص . فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه . فقال عمرو بن العاص
فزعا : يا أمير المؤمنين لقد استوفيت حق المصرى . ثم قال المصرى : يا أمير
المؤمنين - لقد ضربت من ضربى . فالتفت الخليفة إلى عمرو بن العاص
وقال كلمته المشهورة :

« يا عمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .
ترى هل تحفظ كتب التاريخ البشرى مثلاً واحداً كهذا المثل . وهل
تستطيع أن تنسب مثله لحاكم أو ملك ؟ أظن لا .

بهذه الطريقة نستطيع أن نستوعب جميع الذرائع الإعلامية التى استعان
بها عمر بن الخطاب فى خلافته . فنجد منها كذلك : الخطب وهى
كثيرة . منها خطبه فى أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج ، ومنها أحاديثه
للقادة والعمال والقضاة بصرف النظر عن الرسائل التى يبعث بها إلى كل
واحد من هؤلاء . أما الشعر فلم يجد له صدرأً رحباً عند عمر ، ويظهر أنه
لم يعتمد عليه كثيراً ولا قليلاً فى الدعاية السياسية التى انتهجها ، وهى السياسة
التي بنيت على العدل وعلى الحق ، وقل أن تحتاج مثل هذه السياسة إلى وسيلة
من وسائل الدعاية ، وذلك لأنها سياسة تعلن عن نفسها بنفسها وتحمي نفسها

بنفسها ، وتستطيع أن تتغلب بقوتها على كل سياسة غيرها لا يكون لها من الحق ومن العدل كل هذا القدر الذي اشتملت عليه سياسة عمر .

يقول الأستاذ العقاد في كتابه (عبقرية عمر) :

« وإذا أحصيت له في سيرته الطويلة أوامر تحرم الذميين وبعض الحريات أو بعض الحقوق فـسكن على يقين أنه قد صدر في ذلك جميعه عن حكمة توجبها سياسة الدولة ، وقرها العقل والعرف . كما يقرها الدين والكتاب . ولم يصدر قط عن مقصود ، أو عن رغبة في حرمان الذميين حرية يستحقونها ، أو حقاً هم أحرار فيه » .

فأما نهي عن تشبه الذميين بالمسلمين ، أو كراهته أن يبدلوا أزياءهم التي ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لم كان أناس من الذميين يودون التشبه بالمسلمين في الزي والشارة . أكانوا يتشبهون بهم حباً لدينهم فهم إذن مسلمون لا يمنعهم مانع أن يجهروا بالاسلام ؟ أم يتشبهون بالمسلمين كيداً لهم ورغبة في التسلل بينهم والإفلات من عهودهم ، وبخاصة في الزمن الذي كان المسلمون فيه جميعاً في حكم الجنود وما من دولة ترضى أن تبيع أزياء جنودها لمن تشاء .

وأما إخراج بعض الذميين من الجزيرة العربية فما خرج أحد إلا وقد غدر بدمته وكرر الغدر مرة بعد المرة . كما صنع أهل خيبر ، ومنهم من أجلى عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلاً عن نقضه للعهد . كما فعل أهل نجران عندما تعاهدوا على منع سرية ثم عادوا إليه .

ولما قال له التجار من أهل (منبج) .

دعنا ندخل أرضك وتعشرنا (أى ندفع لك العشور) شاور أصحاب

النهي فأشاروا عليه بقبولهم فدعاهم إليه » .

وهذه الأخبار التي رويت في سيرة عمر تدلنا على أشياء كثيرة من أهمها في نظرنا أن عمر كانت له حاسة إعلامية دقيقة . وأنه صدر عن هذه الحاسة في كثير من أفعاله وآرائه .

(م ١٥ - الإعلام في صدر الإسلام)

ومما يدلنا على هذه الحاسة كذلك أن عمر سأل ابنته يوماً وقال لها :
كم تتحملين أن يغيب عنك زوجك في الحرب ؟ فخجلت ابنته خجلاً
شديداً ووجدت حرجاً كبيراً في الإجابة عن سؤاله . فآلح عليها عمر ونهرها
وحذرهما أن تسكت عن الإجابة . فقالت ابنته في حياء شديد : ثلاثة شهور ،
ثم اختفت من حضرته .

إذ ذاك أصدر عمر أمره إلى أمراء الجيوش ألا يتغيب أحد من جنود
المسلمين عن بيته أكثر من هذه المدة .

هكذا أجرى عمر نوعاً من استقصاء الرى أو استطلاع بطريقتة
سليمة قبل أن يصدر أمره للجند .

والغريب أن هذه الطريقة البسيطة أخذت تتطور فيما بعد شيئاً فشيئاً
حتى أصبحت طريقة معقدة . وهى الطريقة المتبعة في وقتنا هذا لقياس الرأى
العام في كل من أمريكا وأوربا . كما نرى ذلك في معهد (جالوب)
الأمريكى ، ومعهد (قياس الرأى العام) الفرنسى ، والمعروف أن العلاقات
العامّة تقوم على شقين في وقت معاً ، أولهما : الرأى العام ، وثانيهما : الإعلام .
وقد رأينا في فصل من فصول الباب الأول من أبواب هذا الكتاب
بعنوان (العلاقات الإنسانية) كيف أن المسلمين منذ عهد الرسول كانوا
يبدركونها إدراكاً سليماً من الناحية الإعلامية الخاصة ، وكيف أنهم أفادوا
منها فائدة جليلة في نشر الدعوة الإسلامية من جهة ، وفي سياسة الأمة
الإسلامية من جهة أخرى .

لقد كان يسع عمر أن يسأل عدداً كبيراً من الجنود وزوجات الجنود
سؤالاً مثل هذا ، ولكنه بدأ بأهل بيته أولاً ، واستغنى بذلك عن سؤال الجنود
أو زوجات الجنود خارج بيته وأسرته بعد ذلك ، وكأنه بهذه الطريقة سار
على أحدث ما وصل إليه علماء العلاقات الإنسانية حين قالوا : إن هذه
العلاقات إنما تبدأ من الداخل ثم تتعداه إلى خارج بعد ذلك .

مرة أخرى أحيل القارئ إلى الفصل الخاص بالعلاقات الإنسانية
ليستذكر بعض الحقائق التى استعدنا الإشارة إليها في الحديث عن عمر .

الفصل الثالث

الدعاية والإعلام في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان

اقترن عهد عثمان بن عفان بما سمي في التاريخ الاسلامي «بالفتنة الكبرى» وهي الفتنة التي انتهت بقتله ، ومن غير المعقول أن تحدث هذه الفتنة دون أن يكون وراءها شيء كثير من الدعايات التي دبرت ضدها الرجل الذي كان هدفاً لهذه الفتنة ، وهو الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وكان إلى جانب هذه الدعايات السيئة التي انتهت بهذه المسألة بجهود إعلامية وليست دعائية - وذلك على النحو الذي كان عليه الاعلام في أيام النبي ﷺ وأيام الشيخين أبي بكر وعمر ، وكان القصد الأول والأخير من هذه الجهود الإعلامية في أيام عثمان هو انتشار الإسلام وصيانتها من كيد أعدائه في الداخل والخارج .

وننظر في أمر الدعاية والإعلام في زمن عثمان فنلاحظ أولاً أننا نكاد نشر إلى لفظ « الدعاية » في أيام النبي ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر ، وذلك باستثناء الدعاية التي مارسها رسول الله ﷺ في الغزوات وكانت تطبيقاً للقاعدة التي تقول :

« الحرب خدعة » .

ذلك أن الأمر في عهد الرسول كان أمر « دعوة » دعا فيها الرسول إلى دين جديد ، وفي أيام الشيخين أبي بكر وعمر لم يكن هناك دعوة جديدة يدعوان بها ، فقد فرغ النبي ﷺ من أمرها ، ولكن كان هناك شيء آخر ، هو المحافظة على هذا الدين الجديد ، والعمل على نشره في نطاق واسع .

فلما كان عهد عثمان حدثت أحداث غيرت وجه الإعلام، وفتحت الطريق

لنوع آخر من أنواع الاتصال والتأثير في الناس ، هو الدعاية ، وربما كان من أسباب ذلك أمران خطيران يتداخل بعضهما في بعض تداخلاً قوياً :
أولهما - أن نظرة عثمان إلى الخلافة أو السلطان كانت تخالف نظرة
الشيخين بعض المخالفة أو كل المخالفة .
ثانيهما - أن سيرة عثمان في الخلافة كانت مغايرة بسبب ذلك لسيرة
صاحبيه أبي بكر وعمر .

صورة السلطان في رأى عثمان

كان عثمان يرى أن للإمام الحق كل الحق في أن يتصرف في بيت المال
حسبما تؤدي إليه المصلحة في نظره ، وما دام هو منقطعاً لعمل واحد -
هو الخلافة - فله أن يأخذ من بيت المال ما يكفيه ويكفي أهل بيته وذوى
قربته ، لا يترك منهم أحداً . وزاد عثمان على ذلك فرأى أن المسلمين
ليس لهم الحق في مراجعته فضلاً عن مؤاخذته ، ولم تكن الخلافة عنده
تكليفاً من المسلمين . ولكن كانت تكليفاً من الله تعالى ، ولذلك قال
لمن أرادوا أن يخلعوه :

« ما كنت لأخضع قيصاً هو من صنعة الله عز وجل » .

فأين هذا من أبي بكر ، فقد قيل فيه أنه حين ولى الخلافة خرج إلى
السوق في صبيحة اليوم التالى ومعه بعض الأقمشة ، فلقى عمر بن الخطاب
في الطريق وقال له : إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ قال : إلى السوق .
قال عمر : ولماذا ؟ قال : لأحصل على رزق عيالى . فأخذه عمر من يده إلى
بيت المال وقال لصاحبه : دبر للخليفة من المال ما يغنيه عن التجارة حتى
يفرغ للخلافة . ومنذ يومئذ أخذ أبو بكر من بيت المال ما يكفيه ويكفي
زوجته فقط ، ولم ينظر إلى أبعد من ذلك .

أما عثمان فكان يتصور السلطان بصورة أخرى غير الصورة التى
تصورها عمر ، تدلنا عليها الرواية التالية :

« روى أن ملكة الروم أهدت أم كلثوم زوجة عمر بن الخطاب عقداً

من جوهر . وكانت أم كلثوم أهدت إليها شيئاً من طرائف بلاد العرب .
فوقع العقد في يد عمر في الوقت الذي أقبل به البريد من بلاد الروم . فلم
يشأ عمر أن يؤديه إلى زوجته حتى أمر فنودي في الناس : الصلاة جامعة ،
الصلاة جامعة ، فلما اجتمع إليه المسلمون شاورهم في أمر العقد . فكلهم
أشار عليه بأن يؤديه إلى أم كلثوم لأنه ملكها . ولكن عمر تخرج من
ذلك لأنه حمل إليها في بريد المسلمين . وأمر برده إلى بيت المال . ورد إلى
زوجته ما أنفقت في هديتها إلى ملكة الروم » .

فأين هذا مما كان يفعله عثمان حين كان يدفع إلى أهله بجواهر من بيت
المال ، وحين أعطى كل بنت من بناته الثلاث أو الأربع ألف دينار
فور زواجها من أحد فتيان قريش .

إن الذي لا ريب فيه أن عثمان كان يفعل كل ذلك عن حسن نية .
وكان بصدد ذلك من تصوره للسلطان بهذه الصورة التي تخالف ما عند
أبي بكر وعمر . ومن أجل ذلك كان يقول في عمر :
« إن عمر كان يحرم قرابته احتساباً لله . وأنا أعطى قرابتي احتساباً لله .
وأين لنا بمثل عمر ؟ » .

ولذلك أعطى مروان بن الحكم وحده خمس الغنيمة التي غنمها
المسلمون في أفريقيا لأنه أحد أقاربه . وأعطى عبد الله بن خالد الأموي
ثلاثمائة ألف . وأعطى ابنه الحارث ألف . وأعطى كل واحد من الوافدين
مع عبد الله بن خالد مائة ألفاً . وأعطى الزبير بن العوام ستمائة ألف .. إلخ .
وإلى جانب هذا كله كان عثمان يؤثر أقرباءه بولاية الأمصار ،
ويفضلهم على كثيرين من صحابة رسول الله ﷺ . وأغضب بذلك عامة
المسلمين . كما غضب لذلك الصحابة أنفسهم .

وتحدث الناس في جميع هذه الأمور حديث السر تارة ، وحديث
الجهر تارة ، فكانت حركة الهمس في ذاتها من أكبر العوامل التي أدت
إلى الفتنة . كل ذلك مع أن سيرة الشيخين برئت من مثل هذه الحركة الخطيرة .

وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين في كتابه « الفتنة الكبرى »^(١) :
« لولا شيء من التحفظ والاحتياط لقلت إن المسئول الأول والأخير عما تعرض له عثمان وأصحابه من الخطر إنما هو هذه العبقرية الفذة التي أتيجت لعمر ، ولم تتح لأحد من أصحابه ومنهم عثمان . »

خلافة عثمان من الزاوية الإعلامية

مهما يكن من شيء فإننا ننظر إلى خلافة عثمان من زاوية الإعلام فيتلين لنا أنها اقترنت بحركات منها :

- أولاً — الحركة الانتخابية التي انتهت بانتخابه خليفة بعد عمر .
- ثانياً — حركة الفتوح وهي استمرار الحركات التي سبقها .
- ثالثاً — الحركة التي ظهرت في إيثاره الأقرباء بمناصب الولاية على الأمصار .

ونحن مضطرون إلى الوقوف عند كل حركة من هذه الحركات الثلاث قبل أن نخوض في الحديث عن الفتنة نفسها وعن الدعايات التي مهدت لظهورها .

الحركة الانتخابية

تمت هذه الحركة عن طريق الانتخاب في أضيق صورته ، لأنه انتخاب مقصور على « أهل الحل والعقد » .

غير أن هذه الحركة الانتخابية في ذاتها كان لها وجه إعلامي ظهر في تزويد المسلمين بصورة عن الدين الذي جاء به الرسول ﷺ ، وهو الدين الذي دعا إلى الشورى ، كما زودهم بصورة صحيحة للحكم الإسلامي ، كيف يكون ، وصورة صحيحة عن الإمامة فيمن تكون .

من أجل ذلك بدأت الحركة الانتخابية بعد وفاة عمر باجتماع الصحابة من أهل الحل والعقد . وتقدم أحدهم — وهو هنا عبد الرحمن بن عوف ونادى علياً رضي الله عنه وقبض على يديه وقال له :

(١) طه حسين : الفتنة الكبرى ص ٢١٨ .

هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر ؟
قال علي : الله لا ، ولكني أحاول من ذلك جهدي وطاقتي ؟
فأرسل يده ، وقال : هلم إلى يا عثمان . وألقى عليه نفس السؤال ، فقال
عثمان : نعم . فقال عبد الرحمن بن عوف : اللهم اشهد . اللهم اشهد ؟
مما لاشك فيه أن إجابة علي بن أبي طالب عن سؤال عبد الرحمن
ابن عوف كانت أدنى إلى الدقة وأقرب إلى التقوى من إجابة عثمان ،
ولكن عثمان أفاد من هذه الإجابة التي أجاب بها علي ، وبادر إلى الرد
بصورة الإيجاب على سؤال عبد الرحمن بن عوف ، وهكذا شاءت إرادة
الله أن تصير الخلافة إلى عثمان في ذلك الوقت . فماذا فعل الخليفة الثالث
رضي الله عنه ؟

حكم عثمان

بدأ عثمان حكمه بداية طيبة ، وسلك في ذلك طريقة إعلانية ناجحة ،
فقد أخذ يكتب الرسائل إلى العمال في الأمصار ، وجاء في بعض
هذه الرسائل ما يلي :

أما بعد : فإنكم بلغتم ما بلغتم بالافتداء والاتباع ، فلاتفتنكم الدنيا عن
أمركم . فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم :
تكمامل النعم ، وبلوغ أولادكم سن الشباب ، وقراءة الأعراب والأعاجم
القرآن ؛ وأن رسول الله ﷺ قال : الكفر في العجم ، فإذا استعجم
عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا .

وعثمان في هذه الرسالة التي بعث بها إلى أحد أمراء الأقاليم صورة من
صاحبيه أبي بكر وعمر ، وذلك في المحافظة على سنة رسول الله ﷺ باعتبارها
ركيزة من ركائز الإعلام وقاعدة من قواعده ، ولا محل للريبة في شيء من
ذلك ، لقد صرح عثمان في هذه الرسالة بأنه من أنصار الاتباع . وليس من
أنصار الابتداع ، وأن هذا الابتداع سيكون على يد جيل من الناس الذين

هم أولاد السبايا ، وهؤلاء الناس الذين امتزجت دماؤهم العربية بدماء غير العربية هم الذين سيدخلون في الدين مالميس فيه .
وهكذا جاء هذا الكتاب الذى كتبه عثمان لبعض الأمراء تصويرا دقيقا لجميع المحن التى تعرض لها المسلمون بعد الفتح ، ومنها محنة البطر عند تكامل النعم ، ومحنة انحراف الشباب أو الجيل الجديد الذى هو من سبايا الفتح ، ومنها المحنة الكبرى التى هى عجز الجيل الجديد من أولاد السبايا عن فهم نصوص القرآن على الوجه الأكمل .

الفتوح فى عهد عثمان

فى أيام عثمان تم فتح بلاد فارس ، ومات ملكهم يزدجرد وهو آخر ملوكهم ، ووصلت الفتوح الإسلامية إلى بلاد الترك ، وتم فتح أرمينيا وفتحت أفريقيا ، وأغار العرب على بلاد الأندلس ، وغزا المسلمون بلاد الروم من جهة البحر ، وفتحوا قبرص ، ووصل المسلمون إلى مضيق قسطنطين ، وانتصروا على الروم فى واقعة (ذات الصوارى) .
ومرة أخرى نقول إن هذه الفتوح لم تكن للغلبة والسلطان ، وإنما كانت لنشر الدين والهداية .

وهنا جاز لرجل الإعلام أن ينظر إلى هذه الفتوح على أنها استمرار فى ممارسة الوسائل الإعلامية التى هيأها الله لرسوله ﷺ . ومنها وسيلة الغزو أو الفتح .

ومن أجل ذلك كثر أعداء الإسلام بقدر ما كثر أتباعه وأنصاره ، وبذل الحلفاء الراشدون جهوداً كبيرة فى حماية الدين من أولئك الأعداء .
غير أن هذه الفتوح كان من أهم نتائجها فى الواقع أنها فتحت على المسلمين أبواب الغنى والثروة ، ووقع فى أيديهم كثير من الغنائم . وكان عثمان يتصرف فى هذه الغنائم بطريقة لا ترضى الصحابة ، وقد كان يؤثر بها — كما قلنا — ذوى القربى ، ويحرم منها كل من ليست لديه صلة أو قرابة ، وكان ذلك يثير فى نفوس الكثيرين شيئاً غير قليل من مشاعر الحقد والحفيظة .

تولية عثمان أقرباءه على الأمصار

وهي الحركة الثانية التي أخذت عليه ، وعدها التاريخ من عيوبه -
نعم كان من أخطاء عثمان في خلافته أنه آثر أقرباءه من بني أمية بالولاية
على الأمصار ، وفيها - أي في تلك الأمصار - كان يعيش بعض الصحابة فقد
سمح لهم عثمان بالسفر إلى تلك الأمصار مخالفاً بذلك تلك السياسة التي سار
عليها عمر ، وهي السياسة التي قامت على احتجاز الصحابة في المدينة حتى
لا يفتن الناس بهم ، أو يفتنوا بأنفسهم ، وحتى لا يحدثوا لأنفسهم في تلك
الأقاليم ثروات ضخمة ربما صرفتهم عن الدين أو قللت من هيبتهم في نفوس
المسلمين الصالحين ، وهذا ما حدث بالفعل في عهد عثمان ، وبسببه أصبحت
الأقاليم مهياة للفتنة ، فما كان أبعد نظر عمر بن الخطاب حين عامل هذه
الأرستقراطية الجديدة التي تألفت من كبار الصحابة بمثل هذه المعاملة التي
وقتهم شر الأقاليم . فلما ذهبوا إليها في زمن عثمان جرفتهم إلى الفتنة ، وذلك
بما أتاحت لهم من الفراغ والثروة ، وأوصلتهم إلى المناصب العليا في الدولة
وطبعتهم بأخلاق غير التي كانوا عاينها قبل الوصول إلى كل ذلك .
مهما يكن من أمر فقد أبى عثمان في السنة الأولى من خلافته على عمال
الأقاليم كما تركهم عمر ، ومنذ السنة الثانية أخذ يعزل ويولي من جديد .

فأما الكوفة :

فقد ولي عاينها واليين من أوليائه وأقربائه وهما الوليد بن عقبة وسعيد
ابن العاص ، عرف أولهما برقة دينه وكان يشرب الخمر حتى أقيم عليه الحد ،
وما زال أهل الكوفة بهذا الأمير وصاحبه سعيد بن العاص حتى طردوهما
وأجبروا عثمان على قبول ذلك .

ومنذ يومئذ أطلقت الفتنة برأسها على الناس وجذبهم إليها ،

وأما في الشام :

فقد ولي أمرها معاوية بن أبي سفيان قبل مجيء عثمان ، ثم أنى عثمان
خشيته في وضعه لأنه من ذوى قرابته ، ولذا طالت مدة معاوية بهذه البلاد ،

وأصبح أشبه بملك عليها ، وكان العمال من حوله يعزلون بين الحين والحين وهو باق في الشام لا يزول عنها ، ولم يكتف عثمان بذلك حتى أضاف إلى معاوية ولايات أخرى ، وهي الأردن وفلسطين وحمص ، ولذلك كان عثمان يبعث إلى الشام بأكثر المتسربين عليه ليعاقبهم معاوية ويؤدبهم بطريقته ، وبعد وفاة عثمان جرو معاوية بن أبي سفيان فاقتطع من الدولة بلاد مصر فالحجاز حتى نظر على بن أبي طالب فإذا معاوية قد استأثر من الأمصار الإسلامية بأجودها وأحسنها .

وأما في مصر :

فقد أرسل عمر بن الخطاب والياً عليها هو (عمرو بن العاص) ، ولما انقضى عام على خلافة عثمان ولى عليها أخاه في الرضاع (عبد الله بن أبي السرح) وأذن له فغزا شمال أفريقيا ، وأعطاه الخمس من غنائمها . فعل عثمان كل ذلك برغم ما أشيع عن ابن أبي السرح قبل إسلامه من أنه سخر من القرآن وقال سأنزل مثل ما أنزل الله ، حتى لقد أهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح لولا أن جاء به عثمان مسلماً بين يدي الرسول ﷺ فعصم الرسول دمه .

وأمام كل هذه الشائعات حول ابن أبي السرح ، وهذه السيرة التي كان عليها ، وأمام حديث الناس في كل هذه ، وأمام الماضي الذي عرف لهذا الوالي اضطار عثمان إلى عزله ، وولى مكانه محمد بن أبي بكر ، وفي عهد هذا الأخير خرج الثائرون من مصر ، واجتمع إليهم غيرهم من أهل الأقاليم الأخرى ، وانتهى الأمر بقتل الخليفة .

قوة المعارضة :

أنكر الكثيرون من أهل الأمصار على عثمان كل هذه التصرفات ، كما اعترض طلبه كبار الصحابة في داخل المدينة ، ومنهم الخمسة الذين اختاروه للخلافة بعهد من عمر قبل وفاته وكلهم من السابقين الأولين ، ومنهم عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن

عبيد الله ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وكان عثمان قد أعطى هذا الأخير ولاية بيت المال في الكوفة ، وذلك حين كان سعد ابن أبي وقاص والياً عليها ، ثم عزل سعداً وولى مكانه الوليد بن عقبة كما سبق القول في ذلك ، فاقترض الوليد شيئاً من بيت المال فأقرضه ابن مسعود ما أراد من بيت المال ، ولما حان موعد السداد طالبه ابن مسعود بالمال فالتوى الوليد . فألح عليه ابن مسعود . فشكا الوليد إلى عثمان . فكتب عثمان إلى ابن مسعود يقول له : إنما أنت خازن لنا ، فلا تعرض للوليد فيما أخذ من بيت المال ،

فغضب ابن مسعود وألقى مفاتيح بيت المال ولزم بيته .

منذ ذلك الوقت أخذت المعارضة من جانب ابن مسعود تشتد شيئاً فشيئاً وازدادت الخصومة بينه وبين الخليفة ، وتطور الحديث بينهما حتى اضطر عثمان في ذات يوم إلى إخراج ابن مسعود من المسجد لإخراجاً شنيعاً ، ودقت صاعته .. وأقبل على بن أبي طالب على عثمان فلامه لوماً شديداً على ذلك ، ثم تولى على أمر ابن مسعود وأخذ يعنى به حتى حملوه إلى منزله .

ولم يقف عثمان عند هذا الحد حتى قطع عطاء ابن مسعود ، وحدد إقامته بالمدينة ، ثم أمر به فانتقل إلى الكوفة ، وانتقلت معه هذه الحركة أو الثورة التي كان محورا لها بالمدينة .

وكان من المعارضين لعثمان في سياسته كذلك رجل آخر من الصحابة هو أبو ذر الغفاري .

نظر أبو ذر فإذا عثمان قد نخص مروان بن الحكم من أقربائه كذلك بأموال كثيرة وأعطى أخاه الحارث مائة ألف ، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف ، فأنكر كل ذلك على الخليفة ، ونهاه عثمان عن كل ذلك فقال :

« لأن أَرْضِي الله بِسَخَطِ عثمان أحب إلي من أن أَرْضِي عثمان بِسَخَطِ الله »

ثم نفاه عثمان من المدينة إلى الشام فانتقل بحركته أو سخطه إلى الشام ، وجعل يقول فيه ما كان يقوله في المدينة ، وزاد على ذلك أنه أخذ ينكر على معاوية بعض ما أنكره على عثمان ، وأنكر على معاوية قوله (مال الله) وقال مكانها (مال المسلمين) ، فنفاه معاوية إلى المدينة ، واستمر أبو ذر في سخطه وطعنه على عثمان لأنه أطلق يده في مال المسلمين ، فنفاه مرة أخرى إلى (الربرة) حتى مات بها .

تلك صورة موجزة لما كانت عليه المعارضة في أيام عثمان ابن عفان .

ثار كبار الصحابة في داخل المدينة ، وأما في الأمصار فقد كان الأمر على أشد من ذلك وحسبنا هنا أن نشير كذلك إل رجلين فقط من أولئك الثوار .

أولهما : محمد بن أبي حذيفة ، والثاني : محمد بن أبي بكر . وكان الأول ابناً لرجل من السابقين الأولين أسلم قبل أن يذهب النبي إلى (دار الأرقم) واجتمع هناك بعدد قليل جداً من المسلمين وذلك في أثناء المرحلة السرية من مراحل الدعوة .

وأما الثاني فهو محمد بن أبي بكر الصديق ، أخو السيدة عائشة أم المؤمنين . والذي يرجحه المؤرخون أن كلا من هذين الرجلين كان يطمع في الولاية ، لما له من عظيم المنزلة ورفيع المكانة . فلما لم يبلغ ما أراد ذهب إلى مصر ، وقام بالدعاية ضد عثمان ، وكان الجو ملائماً لهذه الدعاية . ولما عاد عبدالله بن أبي السرح من موقعة (ذات الصواري) التي انتصر فيها على الروم وجد محمد بن أبي حذيفة يثير الفتنة بين المصريين ويقول لهم :

إنكم تسعون إلى الجهاد ... والجهاد وراءكم بالمدينة حيث يقيم عثمان ويسوس الأمة على غير كتاب الله وسنة رسوله ، وسنة صاحبيه : يعزل أصحاب النبي عن العمل ، ويولى أمور المسلمين جماعة من الفساق وأصحاب

المهون . انظروا إلى واليكم وقائدكم إلى الجهاد (يريد ابن أبي السرح)
إنه رجل نزل القرآن بكفره وأهدر النبي دمه . ولكن عثمان يوليه أمركم لأنه
أخوه في الرضاع . انظروا إلى سيرته فيكم : أترونه يهتدى فيها بهدى النبي
وصاحبيه ؟ أترونه لا يغير ولا يبدل ، ولا يكلفكم من أموالكم وأعمالكم
مالا تطيقونه ؟

وكان ابن أبي حذيفة يذيع مثل هذه الدعايات الخطيرة في الجيش
وكان محمد بن أبي بكر يذيع مثل هذه الدعايات في الرعية . واشترك الرجلان
في توجيه النقد واللوم بكل هذا العنف إلى معاوية بالشام وإلى عثمان بالمدينة .

ويقال إن عثمان أخذ يترضى هذين المحمدين بالمال . ولكن أحدهما
لم يرض بذلك بحال من الأحوال . بل إن محمد بن أبي حذيفة أخذ الكسوة
التي بعث إليه بها عثمان في مصر وذهب بهذه الكسوة إلى المسجد ، وقال
بخطب الحاضرين من المسلمين :

انظروا إلى عثمان كيف يريد أن يخذلني عن ديني بهذه الكسوة !
وإلى هذا الحد بلغت الدعاية ضد عثمان . وكان القائلون بها من خيرة
الصحابة وأبناء الصحابة . مع أن الأمور التي أخذت على عثمان كانت مما يمكن
وقوعه من أي خليفة عدا الشيخين أبا بكر وعمر .

تري ما الذي أوقع عثمان في كل هذا الحرج ؟

وما الذي أثار على عثمان كل هذا السخط ؟

إن الذي أوقع عثمان في كل ذلك شيء واحد فقط ، هو مخالفته للسياسة
الإسلامية التي كان ينبغي أن تسير عليها سياسة الخلفاء الراشدين الذين
عاشروا النبي بأنفسهم ، ورأوه بأعينهم ، وسمعوه بأذانهم ، واشتركوا
معه بأرائهم وأموالهم وجهودهم . وعلى هذه السياسة الإسلامية الرشيدة -
وهي سياسة الاتباع للرسول - سار أبو بكر وسار عمر ، ولكن هذه
السياسة تغيرت على يد عثمان . وحدث هذا التغير المفاجيء وكثيرون من
الصحابة على قيد الحياة ، وأبناء الصحابة كلهم من الشباب المتحمسين

للعقيدة وللكتاب والسنة كما تركهما الرسول . فلم يكن من السهل على هذا الرعيل الأول من صحابة النبي ﷺ وأبنائهم أن يسمحوا بهذه الأمور التي حدثت من عثمان . ولو وقعت هذه الأمور وأكسبر منها بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين لكانت مقبولة إلى حد ما . ولذلك وقع في الخلافة الأموية فالخلافة العباسية من عظام الأمور ما يشيب لها الولدان : وكان الرعيل الأول من الصحابة وأبنائهم قد انقضى ، وخلف من بعدهم خلف حادوا عن الطريق وتنكبوا عن السياسة الإعلامية الرشيدة التي سار عليها أبو بكر وعمر .

(والخلاصة) أن المشول عن وقوع الفتنة الكبرى التي انتهت بهذه المأساة الكبرى ، وهي قتل عثمان أمران :

أولهما : تشدد أبي بكر وعمر في اتباع سنة رسول الله رعاية منهما للإسلام وحرصا منهما على رضا الله ورسوله . وبهذا التشدد في اتباع رسول الله ظهر الفرق واضحا بجلياً بين سيرة الشيخين من جهة وسيرة عثمان من جهة ثانية . وعذر عثمان في ذلك أنه كان يفهم للعدل صورة غير الصورة التي كان يفهمها أصحابه ، ومعنى ذلك أن عثمان لم يصدر في عمل من أعماله عن معصية لله وللرسول ، أو عن تنفيذ لسياسة الابتداع بدل الاتباع . ولكنه صدر في كل ذلك عن هذه الصورة التي تكونت في ذهنه .

ثانيهما : مخالفة عثمان للسياسة الإعلامية التي كان عليه أن يرعاها بغاية الدقة ويتوخاها بغاية التحرج . وأكبر الظن عندي أنه كان في وسع عثمان أن يفعل ذلك لولا أنه وقع تحت تأثير أقاربه من بني أمية وغيرهم . وبني أمية جدهم أبو سفيان ، وهو من قريش أسلم على يد النبي ﷺ قبيل الفتح . ودخل النبي ﷺ عليه وعلى قومه الكعبة فقال لهم : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . وليس الطلقاء في الإسلام كالأحرار الذين أسلموا قبل الفتح من تلقاء أنفسهم لا تحت ضغط من السيف أو الرمح .

الفصل الرابع الدعاية والإعلام في عهد علي

لايسع المؤرخ الإعلامي عندما يتكلم عن الإمام علي إلا أن يشير إلى الشخصية التي انفرد بها بين الصحابة ، ولا نبالغ إذا قلنا عن الإمام أنه كان أكبر شخصية عرفها الإسلام وذلك بعد رسول الإسلام . وما كان خلقه أن يكون أول خليفة لرسول الله لولا أن حالت دون ذلك أمور كثيرة . كل أمر منها له اعتباره ومنها :

أولاً : حداثة سنه عند وفاة النبي ﷺ ووجود الشيوخ من الصحابة الكبار من أمثال أبي بكر وعمر وغيرهما . فقد كان علي عند وفاة النبي ﷺ لم يتجاوز الثلاثين ، وكان أبو بكر وعثمان قد صحبوا النبي ﷺ بضع عشرة سنة وهم شيوخ قبل ظهور علي بن أبي طالب على مسرح الحياة العامة .

ثانياً : وهو الأهم – قرابة علي للنبي ﷺ . وقد كانت هذه القرابة حجاباً له دون الوصول إلى الخلافة . وخاصة عقب النبي ﷺ نفسه مباشرة . ذلك أن القبائل العربية – ومنها قريش – أبت ألا يجتمع لآل هاشم ميراثان كبيران في وقت واحد ، وهما ميراث النبوة وميراث الخلافة . وأهم من هذا وذاك أن الإسلام نفسه لا يقر العصبية بل يقوم على أساس المساواة بين الناس . وفي ذلك يقول عمر :

« إن قريشاً قد اختارت لنفسها وأبت أن تجمع لبنى هاشم بين النبوة والخلافة » .

ثالثاً : أن علي بن أبي طالب قتل من بني أمية عددا كبيرا في غزوة بدر ، فحق عليه بنو أمية منذ ذلك الوقت . وظل هذا الحق في صدورهم حتى بعد أن دخلوا الإسلام . وفي ذلك يقول علي :

« مالى ولقريش أما والله لقد قتلتم كافرين ، ولأقتلهم مفتونين .
ووالله لأضربن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته » .

موقف على من الفتنة

تلك شخصية على ، وتلك هى بعض الظروف التى كانت عقبة فى سبيل وصوله إلى الخلافة قبل كل من أبى بكر وعمر وعثمان . على أن التاريخ الإسلامى لا يكاد يعرف ظروفاً أفظع ولا أسوأ من الظروف التى بويع فيها على ، ويكفى أن نذكر من تلك الظروف أنه بويع بعد المأساة الأليمة التى قتل فيها عثمان بن عفان فى أعقاب الفتنة الكبرى التى انتهت بقتله ، وأكثر من ذلك أن على بن أبى طالب بويع بالخلافة وهو متهم بدم عثمان رغم الجهود التى بذلها فى المحافظة على حياته .

على أن هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالبيعة تحتاج منا إلى هذه الإشارة الموجزة :

أولاً : أن على بن أبى طالب توسط بين عثمان بن عفان والثوار ، واستمهلهم ثلاثة أيام يرد بعدها جميع المظالم فيعزل فيها العمال المكروهين من الرعية ، ويصلح الأمور التى من أجلها قامت الثورة .

ومرت الأيام الثلاثة ، ولم يقبل عثمان مشورة على بن أبى طالب فى شىء من ذلك .

ثانياً : علم الثوار بأن وساطة على لم تثمر وأن عثمان رفض أن يستجيب لمطالبهم ، فعادوا إلى الثورة من جديد ، وتهيئوا جميعاً لقتل عثمان ، فخرج على بن أبى طالب من بيته بعمامة الرسول ﷺ ، ومتقلداً سيفه ، وأمامه ابنه الحسن وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار ، وحمل على وأصحابه على الثوار حتى أبعدهم عن دار عثمان . ثم دخل الإمام على بيت عثمان ، فسلم عليه ، وحادثه حديثاً طويلاً وجاء فى نهايته :

« ولا أرى القوم إلا قاتليك . فمرنا فلنقاتلهم » فأبى الخليفة الطيب عثمان كل ذلك حقنا لدماء المسلمين . فأعاد عليه القول في ذلك فأصر عثمان على موقفه .

ثم خرج على من عنده إلى المسجد وحضرت الصلاة فناداه جميع من في المسجد : « يا أبا الحسن . تقدم فصل بالناس » .

فقال على بن أبي طالب : « لا — لا أصلى بهم والإمام محصور » . وصى على وحده في ذلك اليوم .

ثالثاً : رجع على بن أبي طالب إلى منزله وترك ابنيه الحسن والحسين مع أبناء الصحابة في حراسة عثمان ، وضاق الثوار بالانتظار على هذه الحال . وأخيراً تسوروا دار عثمان ووصلوا إليه وفعلوا فعلتهم وتخلصوا من الرجل .

وسمع بذلك على فأسرع إلى بيت عثمان ولطم ابنيه لطمات قوية ، ووجهه إلى أبناء الصحابة أقسى العبارات . فقال أحدهم — وهو طامع : « لا تضرب يا على ولا تلعن . لو دافع مروان بن الحكم عن عثمان ما قتل عثمان » ومروان هذا من أقرباء الخليفة المقتول .

معنى ذلك أن على بن أبي طالب كان بريئاً من دم عثمان ، لاشك في هذا ، وأنه لم يكن يقدر على تجنب هذه السكارثة وحماية عثمان من نتائجها معاوية بن أبي سفيان ، وأن الخطأ الأول والأخير هو خطأ عثمان ، لأنه لم يشأ أن يستمع إلى نصائح الصحابة ، وفيهم على — ولم يشأ أن يعمل بمشورة على بوجه خاص ، وذلك في اللحظات الأخيرة ، أو الساعات الخرجة التي سبقت وقوع الحادث ، وكان يطلب النجدة أو الغوث كلما اشتد هجوم الثوار على دار عثمان ، ومع ذلك لم يستجب له معاوية بن أبي سفيان مع أنه كان أقرب إلى عثمان من على بن أبي طالب ، ومع هذا وذلك فقد كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتهم عالياً بدم عثمان كما ستأتى الإشارة إلى ذلك فيما بعد .

وكان الثوار من جانبهم ينظرون إلى علي على أنه المسئول الأول عن الإصلاح من حيث هو ، وفي المؤتمر الذي عقده عثمان لهذا الإصلاح لم يكن على عضوا من أعضائه لأن عثمان توخى أن يكون أعضاء هذا المؤتمر من ذوى قرباه ، فحضر هذا المؤتمر عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي السرح ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم ، وفي استطاعة القارىء أن يتكهن بالنتائج التى يتمخض عنها مثل هذا المؤتمر الذى يتألف من رجال كهؤلاء ليس فيهم رجل كعلي ابن أبي طالب أو رجل من كبار الصحابة .

الثورة تباع عثمان

بعد مقتل عثمان بقيت المدينة خمسة أيام بدون خليفة ، وألح الثوار على الإمام على فى قبول الخلافة ، وهو يهرب منهم ويبتعد عنهم ، ثم اتجهوا إلى الزبير وعرضوا عليه الخلافة فهرب منهم ، ثم اتجهوا إلى طلحة فهرب منهم ، ثم اتجهوا إلى سعد بن أبي وقاص فهرب منهم ، ثم اتجهوا إلى عبد الله بن عمر فهرب منهم ، ثم قال بعضهم لبعض : لانستطيع أن نرجع إلى أمصارنا بعد قتل عثمان من غير أن نختار ولياً للأمر مكانه ، فرجعوا إلى على بن أبي طالب ، وألح الأشر النخعي عليه فى قبول الخلافة ، وأخذ بيده فبايعه وبايعه الناس بعد ذلك ، وتقدم طلحة والزبير فبايعاه ، ثم صعد الإمام المنبر فبايعه من الناس من لم يكونوا قد بايعوه من قبل ، ولكن قريشاً وبني هاشم لم يكن لهم رأى فى هذه البيعة ، فقد تركا للثورة وحدها أن تكون صاحبة الرأى فى مبايعة على .

وسمع معاوية بن أبي سفيان بهذه البيعة فسأته أخبارها ، وتوقع الشر كل الشر من ورائها ، وظهر فى الإسلام لأول مرة فى تاريخه خلاف شديد بين نظامين مختلفين هما :

نظام الخلافة الدينية .

ونظام الملك الدنيوى .

الأول ممثله على بن أبي طالب والثاني ممثله معاوية ، وانقسم المسلمون لأول مرة في التاريخ كذلك إلى أحزاب ثلاثة : حزب على ، وحزب معاوية ، وحزب خارج على الفريقين هو حزب الخوارج :

حزبان متعارضان

غير أن الذي بعيننا من هذه الأحزاب الثلاثة حزبان فقط هما حزب على وحزب معاوية :

١ — أما حزب على فكان يتألف من جمهور القراء والفقهاء والنسك والحفاظ ، وكان هؤلاء وهؤلاء من أفراد الحزب يسخطون على ترف الأغنياء الذين أثروا في أيام عثمان من وراء المناصب الكبيرة التي وضعهم فيها ، وكانوا كذلك ينكرون كل خلاف يقع بين المسلمين يؤدي إلى تفريق الكلمة ، وكانوا حافظين لحدود الله ولا يرضون عن أولئك الذين لا هم لهم إلا هذه الدنيا ، وكانوا يكرهون الحرب إلا لنشر الدين ، وطالما عارضوا علماً نفسه في رغبته في الحرب ، وخاصة تلك التي أراد أن يشنها على معاوية .

٢ — وأما حزب معاوية فكانوا طلاب دنيا ومال وجاه ، وكانوا يسمعون الحق كما يسمعون الباطل ، لأنهم لا يفرقون بينهما ، وكانوا لا يعرفون غير الطاعة العمياء لمعاوية بن أبي سفيان ، لا يجيزون إلا ما أجازوه ، ولا يميزون معه بين ناقة وجمل .

فما أبعد الفرق بين الفريقين . فريق على وفريق معاوية .
« كان أصحاب على — كما يقول الأستاذ عباس العقاد — أقرب الناس في ذلك الوقت إلى الإصغاء إلى صوت الضمير قبل صوت الأمير ، وكان أصحاب معاوية على العكس من ذلك » .

وقد شاء القدر أن يرث على من عثمان تركته مثقلة بالأخطاء التي ارتكبها عثمان نتيجة السياسة الإعلامية التي انتهجها مخالفاً بها سياسة صاحبيه أبي بكر وعمر .

وهذا الخطأ الذي ارتكبه عثمان هو أنه لم يحتجز كبار الصحابة بالحجاز ولم يمنعهم من الانطلاق في الأمصار ، ولم يحل بينهم وبين الإقبال على الدنيا والانصراف إلى الجاه والسلطان ، وقد جنى عثمان من وراء هذه السياسة أن كبار الصحابة كانوا حرباً عليه وعلى الخلافة ، من أجل ذلك كان أبو بكر قاصي من يخلفه قائلاً له :

« احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفخت أوداجهم وطمست أبصارهم وأحب كل امرئ نفسه » . . . إلخ .

ومن أجل ذلك كان أبو بكر يحذر رجلاً كعبد الرحمن بن عوف من الدنيا ويقول له :

« . . . ور يتم الدنيا قد أقبلت حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان » .

وهذه الطبقة التي تحدث عنها أبو بكر وحذر منها الخلفاء من بعده هي الطبقة التي كانت مصدر القلق والمتاعب الكثيرة للإمام علي بن أبي طالب ، على حين أن معاوية بن أبي سفيان كان رجاله وأتباعه خلاف ذلك . وكانوا في الوقت ذاته أطوع له من بنائه .

ولا ننسى أن أمية (جد الأمويين) هو الذي اختار الشام لنفسه مقاماً منذ الجاهلية ، وأنه وأولاده من بعده كانوا يتألفون الشاميين منذ ذلك الحين ، فنشأ هؤلاء على حبهم وإيثارهم على غيرهم من المنتسبين إلى قريش ، يضاف إلى ذلك أن تجارة الشام كانت للشام حيث يقيم بنو أمية ، وأن خراج الشام كان للشام أيضاً ، وأما موارد الحجاز فلم تكن للحجاز ، وكانت مصر والعراق من نصيب علي ، ومع ذلك لم ينتفع علي بهما في شيء ، وذلك لفساد الأمر فيهما بسبب الولاة والفتن التي أحدثها أولئك الولاة . وباختصار شديد كانت كل عوامل القلق والاضطراب في جانب علي ، وكانت كل عوامل الراحة والطمأنينة والطاعة في جانب معاوية . . . وحسبك أن تستمع إلى علي بن أبي طالب وهو يقول لأخيه .

« دع عنك قريشاً وتراكنهم في الضلال فإن قريشاً قد أجمعت على حرب أخيك إجماعها قبل اليوم على حرب رسول الله ﷺ »
من أجل ذلك وجدنا على بن أبي طالب يقع عليه كل ذنوب عصره :
وقعت عليه شكوى الناس من قريش .

ووقع عليه شعور الفقراء بالضميم مع أنه واحد منهم .
ووقع عليه تهافت الولاة على المال ، مع أنه شديد المحاسبة لهم .
ووقعت عليه مسئولية الدعوة إلى الإصلاح الذي دعا به الحفاظ والنسك
ومن إليهم . فماذا يفعل على بن أبي طالب أمام هذه الظروف كلها ؟
وما حيلته في الشعور بالتمبرم والسيخط من جميع الناس في عصره ؟
وما عسى أن تكون سياسته الاعلامية في تلك الفترة التي انقسم فيها
المسلمون قسمين أو حزبين ، حزب مع على ، وحزب مع معاوية ؟

الدعاية والإعلام في عهد على

رأينا كيف كان الفرق عظيماً جداً بين على ومعاوية من حيث نظام الحكم
عندهما ومن حيث الرعية التي كان يحكمها كل واحد منهما ، ومن حيث
السنة التي اتبعها ، ومن حيث البطانة التي كانت تحيط بكل منهما ، ومن
حيث الأخلاق والمبادئ التي أخذت بها كل بطانة على حدة ، ومن حيث
الموارد المالية التي تملكها ، ثم من حيث الهدف الذي تهدف إليه آخر الأمر .
وقد شرحنا كل هذه الفروق بإيجاز تام ، ونريد أن نعرف بعض الوسائل
الاعلامية والدعائية التي تدرع بها كل واحد من هذين الفريقين .

ويمكن أن نوجز القول في كلمة نذكرها أولاً ، ثم نقدم الأدلة
عليها بعد ذلك .

وهذه الكلمة هي أن (الإعلام) كان وسيلة الإمام ، أما (الدعاية)
فكانت وسيلة معاوية .

وهكذا وجدنا طرق الدعاية تتسع أمام معاوية لأنه إنما يسعى إلى ملك

دنيوى . وأن طرق الإعلام تضيق أمام على لأنه إنما يتقلد أمر خلافة دينية قبل كل شىء .

ثم هكذا شاعت حكمة الله أن يكون للحق طريق واحد لاثنائى له ، وأمام الباطل طرق متعددة ، وأساليب متنوعة ، ووسائل لا حصر لها . وقد أشرنا إلى بعض وسائل الدعاية عند معاوية ، ولم نذكرها كلها . لأننا إنما نتحدث عن الدعاية الأموية لمجرد موازنتها بالإعلام العلوى ، فما هى وسائل هذا الإعلام ؟ .

الواقع أن الإمام لم يكن يملك من وسائل الإعلام غير وسيلتين هما :

١ - وسيلة الخطبة .

٢ - وسيلة الرسالة .

وكان يساعده على النجاح فى ممارسة هاتين الوسيلتين أمور كثيرة من أهمها :

١ - قوة شخصيته .

٢ - وحسن أخلاقه وجميل سيرته .

وقد كان فى هذه الصفة أشبه رجل برسول الله ﷺ . وفضلا عن هذا وذاك كان الإمام مضرب المثل فى الفروسية العربية ، وما اقترن بها من أخلاق ، ويكفى للتدليل على ذلك أن نسوق شاهدين :

١ - أن معاوية كان من خطته فى الحروب التى دارت بينه وبين على - ومنها حرب صفين - أن يبدأ بامتلاك موارد الماء ، ومتى امتلك هذه الموارد منعها عن أصحاب على حتى يقتلهم ظلماً .

فعل معاوية ذلك مع أصحاب على ، فأشار عليه أصحابه أن يفاوض معاوية فى السلم ولاسكن معاوية لم يقبل منه ذلك ، فما كان من على وأصحابه إلا أن هاجموا معاوية وأصحابه حتى امتلأوا موارد الماء ، وإذ ذاك أشار أصحاب على بأن يمنع الإمام الماء عن أصحاب معاوية فأبى عليهم ذلك كل الإباء ، وقال لأصحاب معاوية : نخذوا من الماء ماشئتم وارجعوا

إلى معسكركم . ثم قال الإمام لأصحابه : خلوا عنهم فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم » .

وهذا نخلق من أخلاق الفروسية العربية الإسلامية كان خليفاً بعلي بن أبي طالب ولم يقدر عليه رجل ك معاوية بن أبي سفيان .

٢ — والشاهد الثاني على أخلاق الفروسية عند علي :

رأى علي عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوء يحاول أن يدفع عن نفسه الموت بما حضره من وقاء ، فصرف على وجهه عن عمرو وهو في هذه الحالة وأنف أن يصرع رجلاً يخاف الموت بهذه الصورة التي لا ترضاه كرامة الصراع في أي درجة من درجاته ، ولو غير علي رأى عدوه بهذه الحالة لانتهاز الفرصة ففقدى عليه وتخلص منه .

بقى أن نضرب المثل على نجاح الإمام في ممارسة هاتين الوسيلتين من وسائل الإعلام — وهما الخطب والرسائل .

خطب علي

والمعروف أن كتاب نهج البلاغة يشتمل على كثير من خطب الإمام علي ، وللقاد والباحثين أن يشكوا في هذا الكتاب وفي نسبة الخطب التي يشتمل عليها إلى الإمام علي ، وأن هذه القضية من قضايا الأدب لا تعنينا في هذا البحث ، ومما لا شك فيه أن قدراً كبيراً من الخطب يمكن نسبته إليه ، وأن الباقي من هذه الخطب لا بد أنه صيغ على غرار الخطب التي صدرت من علي ، وجرت على النمط البلاغي أو الأسلوب الخطابي الذي عرف به ، ونحن نعلم أن الفرق عظيم بين الإعلام من جهة ، والدعاية من جهة ثانية .

فالإعلام لا بد أن يبني على الصدق ، وعلى الصدق وحده . ورجل الإعلام هو الذي يزود الناس بالأخبار الصادقة والمعلومات الصحيحة ، هو الذي يفسر هذه المعلومات — إن أراد — ولكنه يحاول أن يؤثر في الناس بطريقة من الطرق حتى يفهموا هذه المعلومات بالطريقة التي أرادها رجل

الإعلام ، ولكنه يترك لهم الحرية التامة في فهم هذه المعلومات وإدراكها بعد أن قدمها لهم وأعقب ذلك بشرحها وتفسيرها قدر المستطاع .

أما الدعاية فقد تبنى على الصدق وقد تبنى على الكذب ، وهى على الكذب أكثر اعتماداً في أغلب الأحيان . والقصد من الدعاية هو استهواء الناس والتأثير في نفوسهم وعقولهم لغرض مشكوك فيه ، ومع أن الدعاية لها هذا الطابع المخالف لطابع الإعلام فإنها قوة كبيرة من القوى التى تستطيع أن تغير ميزان العالم في جميع الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والأدبية والفنية على السواء .

ومن أجل ذلك أثر عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان يقول : « لا وصول إلى الحق ينبغى أن نخوض كثيراً من الباطل » ومثل هذه الكلمة لا يمكن أن تصدر عن على ، لأن علىاً لا يعرف غير الحق ، أو ما يعتقد أنه حق ، ولا يسلك طريقاً غيره ، لذلك لم يكن لعلى أعوان مخلصون يتعاونون معه ، على حين أن معاوية كان أعوانه يتفانون في الإخلاص له ، ولا يقدمون إلا على الأعمال التى يرضى عنها ، ولهذا السبب بنى معاوية سياسته في الدعاية على الطعن في أعدائه — وعلى رأسهم على بن أبي طالب ، في حين أن علىاً كان لا يرضى لنفسه ، ولا يرضى له دينه وخلقه أن يبنى سياسته الإعلامية على الطعن في أعدائه بنفس الطريقة التى سلكها معاوية .

حدث أن علىاً سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام ممن اشتركوا في واقعة (صفين) فقال لهؤلاء :

« إني أكره أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلاغ في العذر ، وقلتم مكان سبكم إياهم اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوى عن الغى والعدوان من طبع به .

فأين هذا من فعل معاوية حين كان يأمر بأن يسب على فوق المنابر ، ويأتى من الأعمال ما أشرنا إلى بعضه في الفصل الذى عنوانه « الأحاديث

النبوية وقوتها الدعائية » ، وفي ذلك الفصل ذكرنا بعض الأحاديث التي زيفها معاوية على النبي ﷺ .

ومنها : مارواه الزهري أن عروة بن الزبير حدثه فقال :

حدثتني عائشة قالت : كنت عند رسول الله ﷺ إذ أقبل العباس وعلي ، فقال انبي ﷺ : « يا عائشة إن هذين يموتان على غير ملتي » ولا شك أن هذا من الأحاديث الموضوعة وليس له أدنى قسط من الصدق .

ويدلنا كل ذلك على صحة ما قلناه من أن (الإعلام) كان وسيلة الإمام . وأما (الدعاية) . والدعاية السوداء لا البيضاء — فقد كانت وسيلة معاوية .

الدعاية ضد علي

وبغض النظر عن الأساليب التي اتبعها معاوية في نشر الدعاية السيئة حول علي ومنها أسلوب الأحاديث الموضوعة أو الكاذبة ، ومنها أسلوب تفسير آيات القرآن تفسيراً يسئ إلى سمعة علي ، وقد أشرنا إلى أمثلة من ذلك في الفصل الذي عنوانه (الأحاديث النبوية وقوتها الدعائية) ، نقول بصرف النظر عن هذه الأساليب التي اتبعها معاوية في محاربة علي ننظر في كتب التاريخ فنجد أن معاوية أشاع عن الإمام صفات غير حقيقية وأخذه بعيوب ليست فيه ، ومنها :

١ — أشاع معاوية عن علي أنه رجل ذو دعابة . وهي صفة أراد بها معاوية أن يقلل من هيبة الإمام في النفس ، لأن مثل علي لا يصح أن يكون كذلك ، وإلا نظر إليه حزبه من كبار الصحابة نظرة استخفاف ، وهم قوم درجوا على الجدل لا الهزل ، وبلغ ذلك علماً فقال :

عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أن في دعابة ، وأني امرؤ تلعبه ، لقد قال باطلاً ، ونطق آثماً . أما وشر القول الكذب ، وإنه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيحلف ، ويخون العهد ، ويقطع الأهل ، أما

والله إنى ليمنعنى من اللعب ذكر الموت . وإنه ليمنعهُ من قول الحق نسيان الآخرة .

٢ — كما أشاع معاوية عن الإمام على أنه قليل الدهاء ، فكان الإمام يرد عليه بقوله : والله ما معاوية بأدهى منى . ولكنه يغدر ويهجر . ولولا كبراهيتى الغدر لكنت من أدهى الناس . ولكن لا رأى لمن لا يطاع .

وكان معاوية يفخر بذكر الخصال التى استعان بها على الإمام فيقول عنه : إنه كان لا يكتُم سرّاً . وكنت كتوماً لسرى وإنه كان يظلى فى مكاته حتى يفاجئه الأمر وكنت أبادر إلى ذلك . وكان فى أنحبث جند وأشدهم أخلاقاً . وكنت فى أطوع جند وكنت أحب إلى قریش منه فنلت ماشئت .

٣ — وكان معاوية يشيع عن على أنه رجل لا علم له بالحرب وفنون الحرب برغم أنه رجل شجاع وفارس فذ .

٤ — وكان معاوية يشيع عن الإمام أنه رجل لا يصلح للخلافة . وكان يستشهد بنول عمرو بن العاص .. لا يصلح للخلافة إلا رجل له ضرسان يأكل بأحدهما ويطعم الناس بالآخر ، وربما كانت هذه نظرية عثمان بن عفان قبل أن تكون نظرية معاوية أو ابن العاص . ولذلك بذل هؤلاء الثلاثة كثيراً من المال للأتباع والأعوان . وكانوا يقربون إليهم أبناء الصحابة ويبالغون فى إكرامهم ويوفرون لهم أرغد العيش .

٥ — وكان معاوية يشيع عن الإمام بأنه رجل لا يعرف رجاله معرفة جيدة . أما معاوية فكان على العكس من ذلك يحاول أن يدرسهم . وكان يبعث إليهم بالرسل من عنده . وكان يقول للرسل ، حدثوا أصحابى بما يرضيهم وأجيبوهم إلى ما يحقق لهم كل ما يرغبون فيه أما على فكان لا يجامل أحداً من أصحابه فى الحق ولا يشتري غضب الله برضاء الأصدقاء .

٦ — أشاع معاوية عن الإمام على أنه قليل العلم بأخلاق الرعية . أما هو

فعلى العكس من ذلك يزعم لنفسه أنه أثقن درس الرعية ، وكان يصفها بقوله :

« إنهم أتباع كل ناعق ، وأنهم إذا اجتمعوا أضروا ، وإذا تفرقوا نفعوا لأنهم إذا تفرقوا رجع أصحاب المهن إلى مهنتهم . فانتفع الناس بهم » .

وزعم معاوية أن الذى أعانه على دراسة الناس وأخلاقهم إلى هذا الحد هم العميون والأرصاد ، وهم الجواسيس بلغة العصر الحاضر ، يبعث بهم إلى البلاد فيأتونه بأخبار أهلها جميعاً ، فيسوسهم على النحو الذى يرضيهم .

وبفضل هؤلاء الجواسيس كذلك كان معاوية يعرف كيف يختار الرجال القادرين على خلق القلاقل وصنيع المكائد وإيجاد الفتن في بلاد الحجاز والعراق حيث يقيم على وكبار الصحابة ، ويحبب هؤلاء في الحبيء إلى الشام وترك الإمام على بن أبى طالب ، وقد كان في استطاعة الإمام أن يجرد سيفه ، ويعمد إلى قتل هؤلاء - ومعظمهم من الخوارج الذين يتزعمهم الأشعث بن قيس - ولكنه لم يفعل ذلك ، ولو فعل لأمن على نفسه من شرور كثيرة .

٧ - كما اعتمد معاوية في دعايته ضد الإمام كذلك على الطرق المسرحية ، فما أن سمع بمقتل عثمان حتى بعث إلى المدينة من أتى له بقميصه - أى بقميص عثمان وعليه دمه ، وأمر الرسول فحمل القميص على علم ووصل به إلى معاوية ففرشه على الأرض ، وجمع أصحابه ، وجلسوا يبكون على عثمان ويقولون : على بن أبى طالب هو القاتل .

٨ - والذى لابد من ذكره كذلك أن معاوية استغل في دعايته هذه جهل الرعية في زمانه ، وقد كان العلم في الشام - حيث الأعوان الملتفون بمعاوية - أقل من العلم في الحجاز حيث كبار الصحابة وأبناء الصحابة الذين تألف منهم حزب على . واستمع إلى المسعودى إذ يقول :

« وبلغ من إحكام معاوية للسياسة (يريد الدعاية) وإتقانه لها واجتذاب قلوب نخواصه وأعوانه أن رجلاً من أهل الكوفة دخل ببيعيره إلى دمشق ، فتعلق به رجل من أهلها وقال : هذه ناقى أخذت منى ، فارتفع أمرهما إلى معاوية ، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً يشهدون أنها ناقته ، فقضى معاوية للدمشقي على الكوفى وأمره بتسليم الناقة إليه . فقال الكوفى : أصلحك الله أيها الأمير ، إنه جمل وليس بناقة ، فقال معاوية : هذا حكم قد مضى ، ثم دس معاوية إلى الكوفى بعد تفرق الجماعة من أحضره إليه ، وسأله معاوية عن ثمن الجمل ودفعه إليه ، وبر به وقال له : أبلغ عليا أنى أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل » (١) .

واستطردنا إلى وصف شيء من الدعاية التى قام بها معاوية ضد على لتدرك الحقيقة التالية وهى :

— أن الدعاية — ولو كانت قائمة على الباطل فى بعض الأحيان — لها من التأثير فى النفوس والقدرة على قلب النظم والأوضاع — ما للإعلام برغم أنه قائم على الحق وعلى الحق وحده قبل أى شيء . وإنما الحقيقة مؤلمة ؛ ولكن السكوت عنها يضر بالحق نفسه فإن الساكت على الدعاية لا يقاومها بكل الطرق الممكنة كالساكت على النار تقرب منه شيئاً فشيئاً حتى تشتعل بشيابه وتأكله .

صحيح أن من أمضى الأسلحة فى مقاومة الدعاية هو الإعلام ، والإعلام هو القادر على إسكات الدعاية ، وذلك بالكشف عما فيها من الكذب والزيف عن الحقائق والبعد عن الصحة ومخالفة الواقع ، ولكن الإعلام فى هذه الحالة لابد من أن يبذل من الجهود الكبيرة أضعاف ما تبذله الدعاية ، وبغير ذلك تكون الغلبة للأخيرة فى النهاية »

(١) عبد اللطيف حمزة : الإعلام والدعاية ص ١٧٦ نشر دار الفكر العربى . نقلنا عن مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٧٢ — المطبعة البهية .

وهذا هو الموقف الحرج الذى وقفه الإمام على من داهية الشام
معاوية ابن أبى سفيان .

لقد كان الامام محوطا يقوم من أصحابه يعرفون أن لهم حقاً فى مناقشة
الحساب فى كل شىء ، وكانوا قلما يطيعونه فى شىء ، فى حين أن
معاوية كان محوطا يقوم من أتباعه بلغ من أمر طاعتهم له أن صلى بهم
عند مسيرته إلى (صفين) صلاة الجمعة يوم الأربعاء .

(تم بحمد الله)

الختام

بقلم الدكتور إبراهيم إمام

أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة

عندما تفضل أستاذنا الراحل العالم العظيم الدكتور عبد اللطيف حمزة — رحمه الله وأسكنه فسيح جناته — بإعطائي مسودة هذا الكتاب «الإعلام في صدر الإسلام» لكي أطلع عليها ، كما كان يفعل دائماً معي في كل كتبه ، لم يدرك بخدي أن هذه الدرة الثمينة سوف تكون آخر بحوثه العلمية القيمة التي أربت على الثمانين كتاباً وبحثاً .

ومع ذلك ، فإن قارئ هذا الكتاب يشعر شعوراً غريباً بأن مؤلفه العظيم يكتب وكأنه يصلي ، وينشئ العبارات وكأنه يتعبد ، وبتواضع المؤمن العالم يقول — رحمه الله — أنه كان يتهيب الخوض في هذا الموضوع ، وأنه تردد كثيراً قبل الإقدام عليه .

هذا ، مع أن أستاذنا الراحل كان مؤهلاً حقاً تمام التأهيل للبحث في هذا الموضوع الجليل ، ويكفي أنه شارك بالبحث في الثقافة الإسلامية بأكثر من عشرين كتاباً ، كما أسهم في الدراسات الإعلامية بأكثر من أربعين بحثاً قيمياً ، منها ما يعد بحق خير ما كتب باللغة العربية في فنون الدعاية والإعلام حتى الآن .

والواقع أن كتاب «الإعلام في صدر الإسلام» هو افتتاحية سلسلة جديدة من الكتب ، وضع أستاذنا الراحل خططها بإحكام ، على أساس أن الثقافة الإسلامية تحتوى على كنوز من فنون الدعوة والإعلام والدعاية ، تبدأ منذ أخذ الرسول — عليه الصلاة والسلام — يدعو للدين الحنيف سرا ، إلى أن اتخذت الدعوة شكايها العلني ، ثم مرحلة الاضطهاد ، ومنها إلى

الهجرة حتى مرحلة الاستقرار في المدينة ، التي شهدت ذروة الدعوة المقدسة .

ويفرق المغفور له الدكتور عبد اللطيف حمزة بين الدعوة والاعلام والدعاية فيقول أن اصطلاح « الدعوة » مقصور على جهود الرسول - عليه الصلاة والسلام - في نشر الرسالة كما بينا من قبل ، أما كلمة « الاعلام » فتختص بأعمال الخلفاء الراشدين في هذا المضمار ، ولا شك أن « الاعلام » هنا يقصد به التفسير والتنوير والشرح القائم على فكر سليم ، وضمير حي ، وأصول أخلاقية متينة ، في حين أن كلمة « دعاية » تنطبق على أوجه النشاط السياسى التى تعددت بعد تكوين الدولة الاسلامية الكبرى ، وهنا نجد كنوزا من المعرفة والفنون الدعائية في عصور الأمويين والعباسيين والفاطميين ، فضلا عن الدعاية المدروسة المتقنة عند الشيعة والقرامطة وغيرهم .

وما من شك في أن كنوز الدعاية في الحضارة الاسلامية ، لم تجد بعد من يجلوها ويزيل عنها ركام النسيان الذى ران عليها عبر القرون . صحيح أن المستشرقين وغيرهم من الكتّاب الغربيين قد قاموا بجهود متعددة الأهداف ، ومتنوعة الأغراض ، لدراسة الفكر السياسى الإسلامى وفنون الدعاية ، وخاصة عند الشيعة وغيرهم ، إلا أن هذه الجهود كان يحدوها التحيز أحيانا ، والهوى أحيانا أخرى . وقد كان أستاذنا - رحمه الله - يتساءل : وحتى هؤلاء الذين يقومون بالبحث العلمى لوجه الله والحقيقة ، هؤلاء المستشرقون والأجانب ، هل تركهم يفكرون لنا ؟ وهل نرضى أن نظل مكتوفى الأيدي ، ننظر فى سلبية إلى إنتاج الأجانب الفكرى دون أن نبذل أى جهد من جانبنا ؟

ويتحمس مؤلفنا - الراحل - فيقدم اقتراحا يقول فيه : « فإذا كان لى أن أقترح شيئا على الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث فى مصر وفى غيرها من بلاد العالم الاسلامى ، فإننى أقترح أن تتألف لجنة علمية للقيام بهذا المشروع الضخم ، وأعنى به مشروع « التأريخ للدعاية والاعلام فى الاسلام »

ولهذه اللجنة أن تقوم ببحث هذا التاريخ عصراً عصراً ، أو فكرة فكرة ، أو مذهباً مذهباً ، في النهاية ستحصل المكتبة العربية على مجموعات غنية من الكتب الإسلامية ، تصبح كل واحدة منها بمثابة رافد من الروافد التي تصب في نهر الإعلام .

وقد كان يحلو لأستاذنا الراحل أن يتحدث عن مؤامرة الصمت التي ابتلى بها العالم الإسلامي في تاريخه وحضارته ، فقارىء كتب التاريخ ، ودوائر المعارف الأجنبية ، يجد الكثير عن الفكر اليوناني والعصور الوسطى المسيحية ، وعصر النهضة ، والعصور الحديثة مرتبة ترتيباً زمنياً ، ولكن لا يجد شيئاً عن الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، رغم ما أعلنه بعض كبار المفكرين الغربيين من اعتراف بفضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الأوروبية الحديثة .

ومع أن الجوانب التاريخية والسياسية والأدبية من الحضارة الإسلامية قد حظيت ببعض اهتمام الباحثين ، كما ظفرت الدراسات الدينية بعناية ملموسة ، إلا أن الجوانب الإعلامية والدعائية ، لم تكن موضع بحث علمي رغم ثرائها ونخصبها وتنوع فنونها على مر العصور الإسلامية .

ولا أريد أن يفهم القارىء أن مؤلفنا — رحمه الله — كان لا يحفل بالدراسات الأجنبية أو أنه كان معادياً لها ، لأنه كان على — النقيض من ذلك — محتفياً بها مقدراً لجهودها ، غير أنه كان يفرق دائماً بين الغزو الفكري لحضارتنا العربية — وهو ما لم يكن يقره أبداً — وبين التعاون العلمي ، وتبادل المعرفة ، وهذا ما كان يشجعه ويؤيده كل التأيد .

ورب سائل يقول : ولكن ألم تزدهر الحضارة الإسلامية قبل ظهور أجهزة الإعلام الحديثة من صحافة وإذاعة وتلفزيون وسينما ، وغيرها من فنون الإعلام المختلفة ؟ فهل نقحم على حضارتنا الإسلامية ، تلك المفاهيم الحديثة ، التي لم تكن جزءاً من صلب كيانها ؟

الحقيقة أن هناك علماً جديداً يقال له « علم الاتصال بال الجماهير » وهو

(م ١٧ — الإعلام في صدر الإسلام)

فرع من دراسة الاتصال الإنساني ، عني به العلماء منذ ظهور الدول الشمولية والدكتاتورية الحديثة ، كالفاشية والنازية وغيرها ، وما كان من أثر قوى للزعماء وأجهزة الدعاية على سائر الناس ، وكانت ذروة ذلك كله في إنشاء وزارة الدعاية الألمانية تولاها جوبلز لأول مرة في التاريخ .

وقد توجهت عناية العلماء والباحثين إلى دراسة الاتصال وفنونه المختلفة ، مبتدئين بالاتصال الطبيعي عن طريق المحادثة الشخصية والاتصال المباشر وجها لوجه ، ثم الاتصال الجمعي الذي يظهر في الخطابة السياسية والدينية ، والتجمعات المختلفة التي يلتقي فيها القادة بأفراد الشعب من الجماهير ، إلى أن تنتهي الدراسة بالاتصال الجماهيري أو الاتصال الصناعي ، حيث لا يتم لقاء بين المصدر والجماهير مباشرة وإنما تنقل المادة الإعلامية من خلال صحيفة مطبوعة ، أو كلمة مذاعة ، أو صورة مرئية على شاشة التلفزيون الصغيرة ، أو شاشة السينما الكبيرة .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية لم تشهد هذا النوع الأخير من الاتصال الصناعي ، فقد ازدهرت فيها طرق الاتصال الشخصي والجمعي ازدهارا شديدا ، فالقصائد الشعرية ، والنثر الفني الرائع ، والخطب السياسية والدينية والرسائل البليغة ، وحلقات الفقهاء والدعاة ، وفنون النداء والمنادين ، وأسواق الأدب والبلاغة ، والندوات على اختلاف أنواعها ، فضلا عن أوجه النشاط الدبلوماسي التي وضع أساسها الأول رسولنا الكريم ﷺ بأصولها الرائعة ، التي أخذها عنا الغربيون فيما بعد ، مع تطويعها وفقاً لمذاهبهم وأخلاقهم ومصالحهم ، كل هذه الفنون الاتصالية . وغيرها من الكتابات الممتازة التي ازدهرت بها الحضارة الإسلامية بمذاهبها المختلفة ، وفرقها الفكرية والدينية المتعددة ، تصلح أساسا طيبا للدراسة العلمية الجادة ، وهذا ما أراده أستاذنا الراحل الكريم :

ولكن بيت القصيد في الدراسات الإعلامية يكمن في الأبعاد النفسية والاجتماعية لعمليات الاتصال بوجه عام والاتصال الجماهيري بوجه خاص ، كما تشمل تلك الدراسات بحث العلاقة الوثيقة بين النظم السياسية والاجتماعية

من جهة ، والنظم الإعلامية من جهة أخرى . وهذه هي الدراسات التي اهتم بها الباحثون في العالم الغربي ، وأراد — أستاذنا الراحل — أن ينحو نحوها في العالم الإسلامي ، وذلك تأصيلا لهذه الثقافة الإعلامية الجديدة ، وبحثا عن جذورها وأصولها الراسخة في حضارتنا ، وقد وضع العالم الراحل تلك اللبنة الأولى في صرح البناء ، فكان ذلك الرائد الأول في هذا المضمار ، وإن خير ما يمكن أن نقوم به لإحياء ذكرى فقيدنا العظيم هو مواصلة البحث والدرس في هذا الميدان . وهذا ما فعلته كريمته الفاضلة السيدة كريمان حمزة ، وما سوف يفعله بإذن الله تلاميذه وعارفو فضله ، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

دكتور

إبراهيم إمام

المفهرس

الصفحة

٣	تقديم : بقلم الدكتور عبد الحليم محمود
٩	الإهداء
١١	مقدمة
١٦	هذا الكتاب

صور الاتصال والاعلام عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام

٢٢	الفصل الأول : الاتصال بالجماهير - بعض صورته في الجاهلية
٢٣	فأما الإعلام
	القصيدة الشعرية ٢٦ - الخطبة والخطباء ٢٨ - المناداة ٢٨ -
	الأعياد ٢٩ - عيد الشباب ٢٩ - الأسواق ٢٩ - سوق دومة ٣٠
	سوق المشقر ٣٠ - سوق هجر ٣١ - سوق عكاظ ٣١ - سوق
	مجنة ٣٤ - سوق ذي الحجاز ٣٤ - المربد ٣٤ - الندوة ٣٥
	إشعال النار في رموس الجبال ٣٥ - المناداة ٣٦ .

الباب الأول أشهر صور الاعلام في صدر الاسلام

٤٠	تمهيد
٤١	أسلوب العلاقات الدولية
٤٤	الفصل الأول : القرآن أكبر وسائل الإعلام في الإسلام
٥٩	الفصل الثاني : الأحاديث النبوية وقوتها الدعائية
٦٦	الفصل الثالث : القدوة الحسنة
٦٨	القدوة الحسنة وصاحب الدعوة

صفحة

محمد المثل الأعلى في الصبر على الحرب الباردة بينه وبين	
المنافقين بالمدينة	٧٠
الفصل الرابع : الاتصال الشخصي والجمعي وأثره في نشر الدين	
وجمع كلمة المسلمين	٧٥
لقاء الرسول برجال من الخزرج في البيعة الأولى	٧٧
الفصل الخامس : القصص غير القرآن	٨٢
الفصل السادس : موسم الحج من أعظم وسائل الدعوة	٨٦
الفصل السابع : العلاقات الإنسانية في صدر الإسلام	٩٣

الباب الثاني

الدعوة في عهد الرسول وأساليب نجاحها

تمهيد : الدعوة والإعلام والدعاية في الإسلام	١٠٤
الفصل الأول : المرحلة السرية	١١٣
الفصل الثاني : المرحلة العلنية	١١٨
عرض الرسول نفسه على القبائل العربية	١٢٠
الفصل الثالث : مرحلة الاضطهاد الديني	١٢٤
الفصل الرابع : مرحلة الهجرة - الهجرة إلى الحبشة	١٢٨
الفصل الخامس : مرحلة الاستقرار بالمدينة	١٣٤
الأذان وإقامة صلاة الجمعة	١٣٦
إقامة العلاقات الودية مع اليهود	١٣٨
العلاقات الودية مع القبائل المجاورة	١٤٠
الاحتياطات الإعلامية والحرب	١٤١
بعثات الرسول إلى الأمراء والملوك	١٤٧
استقبال الرسول للوفود	١٥١
حركة الهمس وأثرها في نشر الدعوة	١٥٤
الفصل السادس : بعض الغزوات النبوية من الزاوية الإعلامية	١٦٠

الصفحة

غزوة بدر ١٦٠ - غزوة أحد ١٦١ - غزوة الأحزاب	
أو غزوة الخندق ١٦٤ - فتح مكة ١٦٥ - معركة	
حنين ١٦٦ - بعوث النبي وسراياه إلى حدود الروم وغايتها	
الإعلامية	١٦٨
الفصل السابع : الخطبة النبوية	١٦٩
المجالات العامة للخطب التي أثرت عن النبي	١٧١
مجال الأخلاق	١٧٢
خطبته في معنى الإخلاص	١٧٢
النبي يثني على أصحابه	١٧٣
حجة الوداع	١٧٥
الفصل الثامن : الدعاية الشعرية في عهد الرسول	١٨١

الباب الثالث

الدعاية والإعلام في عهد الخلفاء الراشدين

تمهيد	١٩٣
الحكومة الديمقراطية ١٩٤ - ومنها الحكومة الأتوقراطية ١٩٤	
ومنها الحكومة الشيوقراطية ١٩٥ - ومنها الحكومة الأوليغاركية ١٩٥	
الفصل الأول : الإعلام في عهد أبي بكر	١٩٩
يوم السقيفة	١٩٩
حركة الردة	٢٠٣
بعثة أسامة بن زيد	٢٠٦
البعوث إلى العراق والشام	٢٠٧
جمع القرآن الكريم	٢٠٩
الفصل الثاني : الإعلام في عهد الخليفة عمر	٢١٢
عمر والسياسة الإعلامية	٢١٤
أولا - في الفتوح	٢١٤

الصفحة

٢١٥	ثانياً — سياسة عمر مع كبار الصحابة
٢١٦	ثالثاً — العسس
٢١٨	رابعاً — الرسائل
٢١٩	نموذج من رسائله إلى القضاء
٢٢٠	خامساً — زيارات عمر الأمصار والأقاليم
٢٢٣	سادساً — القدوة الحسنة
٢٢٧	الفصل الثالث : الدعاية والإعلام في عهد عثمان
٢٢٨	صورة السلطان في رأى عثمان
٢٣٠	خلافة عثمان من الزاوية الإعلامية
٢٣٠	الحركة الانتخابية
٢٣١	حكم عثمان
٢٣٢	الفتوح في عهد عثمان
٢٣٣	تولية عثمان أقرباءه على الأمصار
	فأما الكوفة ٢٣٣ — وأما الشام ٢٣٣ — وأما في مصر ٢٣٤ —
	قوة المعارضة ٢٣٤
٢٣٩	الفصل الرابع : الدعاية والإعلام في عهد علي
٢٤٠	موقف علي من الفتنة
٢٤٢	الثورة تباع عليا
٢٤٣	حزبان متعارضان
٢٤٥	الدعاية والإعلام في عهد علي
٢٤٧	خطب علي
٢٤٩	الدعايات ضد علي
٢٥٥	الخاتمة بقلم الدكتور إبراهيم إمام
٢٦١	فهرس الموضوعات

رقم الإيداع ٨٩/٢١١٨ ترقيم دولي ٦ - ٣٣٥ - ١٠ - ٩٧٧

مطبعة الدجوى

دار الفكر العربي

الإدارة :

١١ ش. جوار صني - القاهرة

ص. ب. ١٣٠ ت ٣٩٢٥٥٢٣

تطلب جميع منشوراتنا من فروعنا

الفرع الرئيسي :

٤٦ ش. جوار صني - القاهرة

ت ٣٩٣٠١٦٧

فرع مدينة نصر :

٩٤ ش. عباس العقاد / المنطقة

السادة - ت ٢٦١٩٠٤٩

فرع الدقي :

٢٧ ش. عبد العظيم راشد / متفرع

من ش. الدكتور شاهين - العجوزة

ت ٧١٧٤٩٨

مؤسسة

دار الكتاب الحديث

للطباعة والنشر والتوزيع

الكويت

ص. ب. ٦٠٥٦ / السامية 22071

٥٧٤٨١٦٥ ٦ ٥٧١٨٥٧١